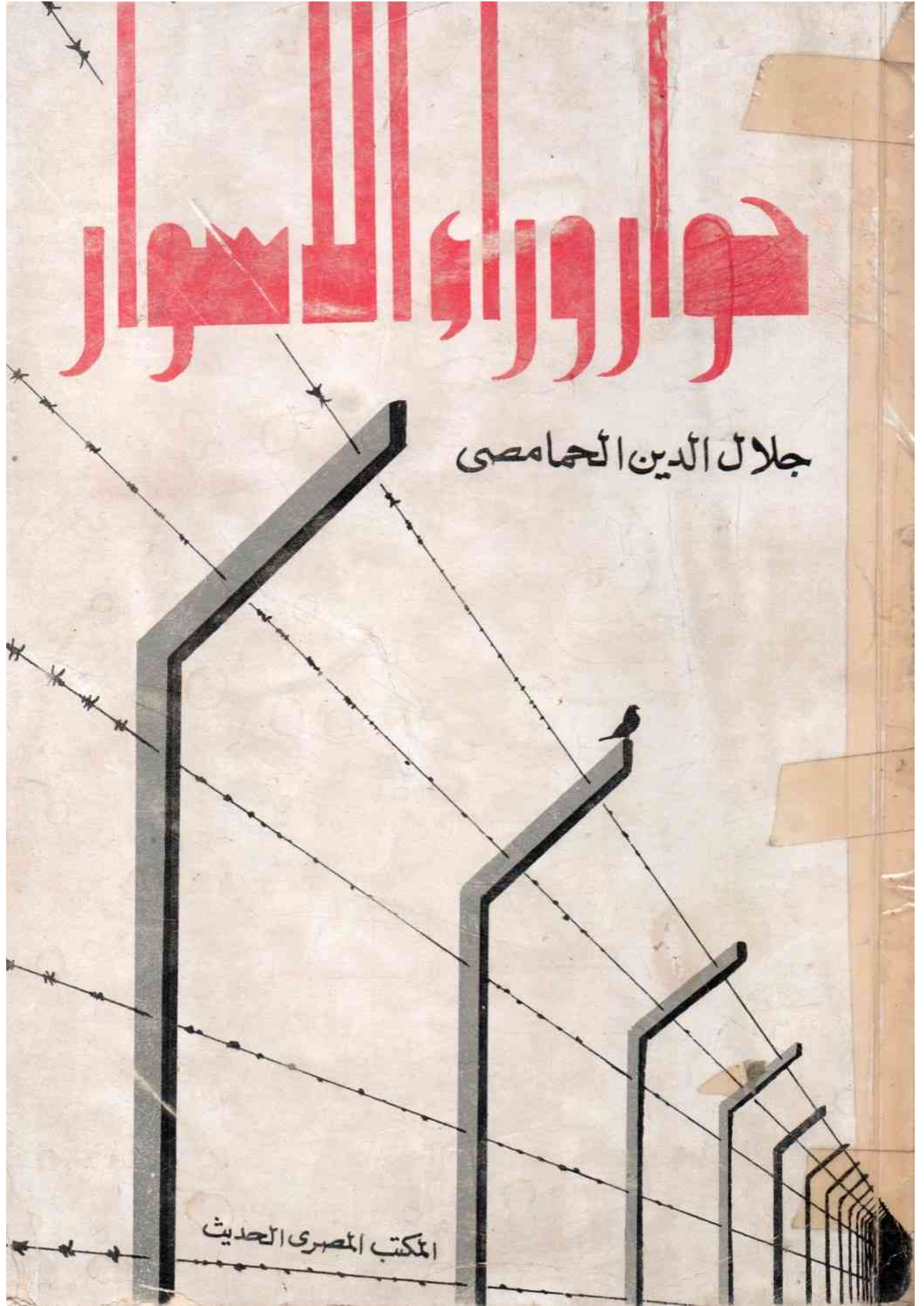

حوار وراء الأسوار
جلال الدين الحمامصى
المكتب المصرى الحديث

حوار وراء الأسوار

الطبعة الاولى ٢٦ يناير ١٩٧٦

الطبعة الثانية ٢٧ يناير ١٩٧٦

الطبعة الثالثة ٢٨ يناير ١٩٧٦

الطبعة الرابعة ١ فبراير ١٩٧٦

النـــاشر : المكتب المصرى الحــديث للطبــاعة والنشر
٢ شــارع شريف تليفون ٥٣١٢٧ القــاهرة
٧ شارع نوبار تليفون ٢٦٦٠٢ الاسكندرية

جلال الدين الحمامصى

حوار وراء الأسوار

المكتب المصرى الحديث

إهداء

إلى الضابط الأسمر زميل المعتقل

مقـدمة الكتاب

هذا الكتاب ليس تاريخا . ولا أحب أن يقرأ على أنه استعراض تاريخى لفترة طويلة من حياتنا . ولكن يمكن القول بأنه عرض سريع – وأكرر كلمة سريع – لزاوية تاريخية هامة عشتها بنفسى ، وساهمت فى بعض جوانبها بجهد صحفى أحيانا وسياسى أحيانا أخرى ، أو بهما معا . وكل الوقائع التى وردت فى هذا الكتاب مؤكدة ، اما لأنى ساهمت فيها . واما لأنى حققتها تحقيقا دقيقا التزمت فيه بالواقعية والأمانة .

والزاوية التى ركزت عليها فى هذا الكتاب بصفة عامة هى نزاهة الحكم . وحرية الرأى ، وفاعليتهما فى نجاح النظام أو فشله . واذا كان بعض الناس يعتبرون هذه الزاوية جانبية ، ويرون انها لا تؤثر على تكوين الهيكل الهندسى لنظام الحكم ، فانى أختلف معهم فى هذا الرأى ، وأومن بأنه لا بقاء لنظام لا تـكون نزاهة الحكم ومحاسبة المخطئين أو المنحرفين من أكبر الأسس التى يقوم عليها . وكل الثورات العسكرية التى قامت فى القرن العشرين – وما قبل هذا القرن – كانت لمحاربة الفساد أو الرشوة أو الانحراف .. ثم لم تلبث أن انغمست فى نفس الأخطاء لتجد نفسها تواجه بثورة أخـــرى ..

واذا كانت كل هذه الثورات قد حاولت تغطية فشلها فى تحقيق أهدافها بالالتجاء الى الأساليب البوليسية وأجهــزة المخابرات ، وتعذيب خصومها ، فان هذه المحاولات الارهابية لم تنقذها من مصيرها المحتوم . خاصة بعد اتساع رقعة خصومها بحيث يصبح تغييرها أمرا لا مفر منه . والتاريخ الحديث القريب ملىء بما يؤيد كل هذا الذى أقوله .

ومما يؤسف له ان مواجهة اخطاء ثورة ما بثورة عسكرية اخرى يؤدى الى نفس النتائج ونفس المصير .. ومن هنا كان لابد من بحث عن بديل لهـذا يجنب الشعوب الاستسلام لنظم لا خبرة للقائمين عليها بالحكم لأن مقومات ذلك غير متوافرة فيهم ، كما يجنب الصغيرة منها من الدخول فى تجارب ومغامرات ومناورات تجعلها عرضة للدمار والخراب والضعف والتخلف .

وهذا الكتاب محاولة للبحث عن هذا البديل .. وقد تكون هذه المحاولة غير مستكملة الجوانب . ولكنها من المحاولات التى تدعو الى السعى وراءها ، لنستكمل بها دراسة واجبة تقودنا الى مستقبل مأمول .

ولست ادعى انى وضعت يدى فى مضمون هذا الكتاب على كل عيوبنا واخطائنا أو انجازاتنا أو وضعها على الحلول السليمة التى تصلح للتغلب عليها . وانما أحس انى ساهمت فى محاولة فتح الأبواب المغلقة ، والدعوة الى عمل موحد يخرجنا من الظلام الذى عشنا فيه طويلا ، الى النور الذى نتعرف به على أعمالنا ، ونتحسس طريقنا الى الطهارة والحرية والعدل والمساواة .

ولعلى انجح بهذا الكتاب فى تجميع الشباب حول أهداف كبيرة ، وان أساهم مع الآخرين فى ازالة القلق الكبير الذى عاشه هذا الشباب وما زال يعيشه حتى الآن .

ان الكتاب يؤكد ما لمصر من تاريخ كفاح عريق .. كما يؤكد أن على الشباب أن يربطوا بين ماضيهم البعيد .. وبين حاضرهم الذى يعيشونه ، ومستقبلهم القريب .

يناير ١٩٧٦

جلال الدين الحمامصى

هذا الكتاب .. وهذا الكاتب

لا أريد بهذه الكلمة تقديم الكتاب أو الكاتب الى القراء ، فكلاهما غنى عن التقديم بما أشتمل عليه الكتاب من موضوعات كثيرة يدور حولها الحوار . ويرتفع فى جوها اللفظ ، وبما عرف عن الكاتب من مواقف وطنية كثيرة . وجهود صحفية مقدورة ..

وانما أريد بهذه الكلمة لفت أنظار القراء الى أمر له شأنه ووزنه فى تقدير ما يكتبأو يقال ، وهو طبيعة الكاتب أو المتحدث التى تملى عليه ما يكتبه أو يتحدث به ، فانهـــا تبدو فى الكتاب كما تبدو الصورة فى المرآة اذا كان خلقه الصـــدق وهدفه الحق . وأمله الاصلاح ، ومن ثم يدخل الكاتب عنصرا رئيسيا أو أساسيا مع العناصر والعوامل التى يقوم عليها تقدير الكتاب .. وقد يكون بين الكتاب والكاتب ما بين الصدى والصوت . فيجد القارى فيهما تفسيرا لكليهما ، كما يبدو ذلك واضحا فى هذا الكتاب الذى يدور الحوار فيه حول حرية الرأى ونزاهة الحكم .

لقد عرفت الكاتب أول ما عرفته فى معتقل الزيتون سنة ١٩٤٣ وكنت قد سبقته اليه ، فكان أول ما أثار اهتمامى به وتقديرى له تضحيته بمقعده فى مجلس النواب . ومنصبه فى جريدة المصرى من أجل نزاهة الحكم وحرية الرأى وهو لم يكن قد جاوز الثلاثين من عمره .

ولـــا خرجنا من المعتقل .. وتغير جهاز الحكم .. حملنى — بأخلاقه — على أن أعمل معهفى جريدة الكتلة مع شعورى بالحرج من ذلك ، اذ كان ماضى مع حزب الوفد ومع سكرتيره « مكرم عبيد » لا يطوع لى العمل فى هذه الصحيفة ، ثم حدث أن رشح حزب الكتلة الأستاذ زهير صبرى المحامى منافسا لصديقى الأستاذ أحمد حسن الباقورى فى دائرة الخليفة ، فصارحت الأستاذ جلال الحمامصى

بالرغبة فى الاستقالة من العمل معه حتى لا أشعر بالتناقض مع نفسى ، اذ كيف أعمل بالكتلة وأحارب بالدعاية مرشح الكتلة ، ولكنه رفض قبول ذلك . وقال : أخطب ضد مرشح الكتلة فى اليوم عشرين خطبة . فأنت لاتعمل هنا حزبيا ، وانما تعمل صحفيا ولك مطلق الحرية فى أن تقول ما تشاء وتفعل ما تشاء ..

ولم يطل عملى معه فى هذه الصحيفة .. وقد تركها — هو الآخر — وترك الحزب الذى كانت تصدر عنه وتنطق باسمه ، اذ سمع — وهو فى رحلته بأمريكا — أن « مكرم عبيد باشا .. قبل النحاس باشا » فى مناسبة جمعت بينهما ، فقطع رحلته . وعاد الى مصر ليستقيل من الجريدة — وكان عضو مجلس ادارتها المنتدب، ويستقيل من الحزب وكان أمين صندوقه ، لأن موقف رئيس الحزب مع رئيس الوفد يهدم كل ما بناه بالكتاب الأسود ، ويهدم كل ما قيل فيه عن الشرف ونزاهة الحكم .

وجمعنى العمل الصحفى من جديد فى مجلة الأسبوع التى أصدرها ثم فوجئت به يغلقها ، لأن الحكومة القائمة — وكان فيها أو على رأسـها أحد أقربائه قرابة بعيدة — عرضت عليه معـونة من « المصاريف السرية » فوجد فى ذلك ما يمس كرامته ونزاهته ، ولم يجد أبلغ فى الرد على هذه المحاولة من اغلاق المجلة .

ثم دعانى الى العمل معه فى جريدة جديدة وكل اليه رئاسة تحريرها والاشراف عليهـا — وهى الزمان — فلم يمض عـلى صدورها أربعة أيام حتى وجدته يجمع أوراقه الخاصة فى صمت ، ليترك الجريدة الجديدة لصاحبها . لأنه تدخل أو يريد أن يتدخل فى شئون تحريرها وذلك يمس كرامته . ويخل بوظيفته كرئيس تحرير مسئول ، ولمـا شعر صاحب المؤسسة « ادجار جلاد » بالحرج . قال كالمعتذر : الست فى سن أبيه . فأجاب جلال الحمامصى : ان الكرامة لا تقاس بالسن ولادخل لها بالكبر والصغر ..

وكانت له مواقف أخرى قبل الثورة وبعد قيامها لا يتسع المقام لعرضها ، اذ وكلت اليه أعمال صحفية كبرى كانشاء وكالة أنباء الشرق الأوسط ورئاسـة تحرير الجمهورية . ورئاسة تحـرير

الأخبار . فلم تضعف شكيمته ولم تلن قناته . مع كثرة ما قاساه وعاناه . وتعرض له . بسبب الحرص على الشرف والاعتزاز بالكرامة . والايمان بحرية الرأى ونزاهة الحكم ..

وقد يؤخذ عليه الغلو فى ذلك أو الاسراف فيه ، ولكنه هكذا خلق .. وهكذا شاء الله أن يكون ، ولعل مما يعتذر به عنه أن الأخلاق — فى نظره — هى القاعدة القوية الأساسية التى يجب أن تقوم عليها السياسة .. وهى كذلك . أو يجب أن تكون ذلك .. ورحم الله شوقى اذ يقول :

وليس بعامر بنيان قوم ... اذا أخلاقهم كانت خرابا

ولا أقل ان هذا الكتاب امتداد لعمله فى الكتاب الأسود . وانما أدع للقراء أن يحكموا عليه بما يرون . ويزنوه بالمقياس الذى لا يغفل قدر الكاتب عند تقدير الكتاب .. وقد عرفوا من هذا القدر قليلا من كثير ..

عبد الرحيم فوده

● الاستاذ الشيخ عبد الرحيم فوده احد زملاء المؤلف فى معتقل الزيتون فى فترة ما قبل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢



القســـم الأول



الجزء الأول

مع مطلع الثورة الكبرى

لم يكن من طباعه أن يتكلم كثيرا . أو أن يقحم نفسه فى مناقشات يشعر من بدايتها انها عقيمة لا تقود الى نتائج سليمة ، وخاصة اذا كان المشتركون فيها جماعة من أصحاب التفكير السطحى ، أو تسيطر على تفكيرهم واتجاهاتهم الأغراض الذاتية .

وكان البعض يرى فى طباعه هذه بعض الغرابة . فالانسان بطبعه شغوف بالاشاعات والأقاويل والتفاهات التى تروح عن النفس . وتخلق النكتة المصرية اللاذعة ، بل كان الكثيرون من المقربين اليه يرونه معطلا لنشاطه الذهنى والفكرى . وغير مساير لطبيعة المجتمع . بينما هو نفسه كان يرى عكس ذلك . فهو لم يكن ينفر أو يهرب من المجالس التى تتحكم فيها هذه المناقشات الخفيفة الوزن ، بل كان يفضل الاستماع اليها ومتابعتها . والحكم على الناس من مضمون التفاهات التى تسيطر على جو بعض قاعات الحوار وان لم تكن ترتكز على واقع ملموس أو حقائق تناقش . بل ترتكز على الاشاعات والأقاويل ، وهو لم يكن ممن يحبون الانطلاق وراء الاشاعات وجعلها مادة أساسية للمناقشات مع التسليم بأنها صحيحة وأن مصادرها لا يشك فى صحتها ، بل كان يحب أن تكون مساهمته فى المناقشة قائمة على أساس « الشىء المؤكد » لأن التسليم بصحة الاشاعات دون محاولة تحليلها أو تفهم أهدافها لا جدوى منه الا اضاعة الوقت .. أو التعلق بآمال كاذبة حرصت الاشاعات على الباسها ثوب الحقيقة التى يصح أن تناقش وتحلل .

وقد عاش المجتمع المصرى فى الفترة التالية لقيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فى جو تسيطر عليه الاشاعات والتكهنات لأن الصحافة كانت غائبة بالتزامها الصمت مرغمة ، ولم تكن الرقابة لتسمح لها

بمتابعة الوقائع او الاقتراب منها . ومن هـذا الواقع انطلقت الاشـاعات لتعبث بعقول النـاس وتفكيرهم ومنطقهم وربما كان مصدر هذه الاشاعات فى بعض الأحايين هو جهاز المخابرات الذى يريد اغراق الناس او الجماهير فى متاهات وأحلام ..

ومجمل القول ان صاحبنا كان يحلم بما يسميه المثالية فى كل شىء . وقد عاش معظم حياته فى جو اقرب الى الخيال منه الى الواقع . فكان يسـتمع الى مناقشـات الناس وتكهنـاتهم ، وتحليلاتهم ، .. ثم يحاور نفسه — فى هدوء احيانا ، وفى غضب وثورة احيانا اخرى ، ولكنه فى كلا الحالين كان يبدو دائما الشخص الذى يفضل ان يسمع ويراقب ولا تفلت أعصابه لئلا يفقد توازنه .

وكثيرا ما كان يعود بالذاكرة الى السنوات الأولى من حياته ، عندما نشأ فى بيت تسيطر عليه النزعة السياسية وتتقاسـمه الأحزاب المختلفة . وهو يذكر ثورة ١٩١٩ التى قام بها الشعب ضد القوات البريطانية المحتلة ، وسمع اسم سعد زغلول يتردد . وكانت الروايات تروى أمامه عن اعتقاله ، وابعاده عن البلاد ، وما تبع ذلك من ثورة الشعب الغاضبة ، الثورة التى تعتبر من علامات حيوية الشعب لأنها عمت كل البلاد .. ولم يشترك فى المناقشات الدائرة قبل اندلاع الثورة فلم تكن سنه تسمح بذلك . ولكنه تابعها بفكره الصغير ، ووجد بين افراد أسرته من يؤيد سعدا ، ومن يعارضه ويتهمه بالعبث وقيادة البلاد الى اسـوأ الأوضاع . وكان لكل فريق حججه ، ولكل قسم من اقسام الأسرة المبررات التى تجعله يهاجم أو يؤيد او يتحامل ..

وحاور نفسه . ووازن بين هذه الآراء جميعا واستخدم هـذا المنطق — فى التحليل : ما دام الزعيم الذى اسمه « سعد » قد اعتقل ، وأن سجانه هو المحتل فلابد ان يكون قوة شعبية يخافها الانجليز ، وما دام قد ارتضى الابتعاد عن منزله وبلاده اذن فهو رجل يقبل التضحية ويقدم عليها من اجل تحقيق هدف . وما دام .. وما دام .. فهو اذن صادق جدير بأن يؤيد .

واعلن الطفل الصغير — فيما بينه وبين نفسه — أنه « سعدى » .

بل تجرأ ذات يوم وقال للمعارضين فى أسرته ان سعدا هو الزعيم الذى يجب أن يؤيد ، ويكفى تأييد الشعب وثورته ..

واستهزأ به المعارضون فى كلمات قليلة فزاده هذا الاستهزاء اصرارا على رأيه .. وكان يتطلع من وراء نافذة منزله بدمياط فيرى بسالة رجل الشارع فى مواجهة السلطة التى كانت تحاول قمع ثورة الشعب الثائرة ، ويجد الدموع تنهمر من عينيه ، لما كان يتعرض له الشعب المكافح من جهة .. ولان نفسه لم تكن تقبل أن يستهزأ بارائها وان كانت صادرة من طفل صغير .

وكان يقول لنفسه وهو يبكى فى صمت والدموع تنهمر منه — لماذا البكاء ، وأنت على حق ؟ — وكان يجيب نفسه — « بأن البكاء يمسح الألم ويزيحه ويفسح المجال لآلام مقبلة . وتراكم الالام يسبب انفجارا نفسيا ، وليس من الخير أن يعرض الانسان نفسه لهذا كله » . ولكن هل كان الطفل قادرا على أن يتجه بتفكيره صوب هذا الاتجاه ؟ وهل كان من الممكن أن يفهم المعنى الكامن للبكاء ، ومعنى الألم وتراكمه ؟

ربما ، ولكن من المؤكد أنه بكى . وبكى اكثر من مرة حين كان يرى نفسه غير مرغوب فيه من المعارضين فى أسرته للزعيم الذى أسمه « سعد » . وكان يحس أن اتجاهاته السياسية — أن صحت هذه التسمية بالنسبة له — قد حرمته أن يشهد بعض المناسبات العائلية السارة .. وهو لا يستطيع أن يؤكد أن ذلك كان مقصودا، ولكن الحرمان قد حدث . وابعاده عن الكثير من امثال هذه المناسبات ما زال عالقا بفكره حتى الآن . وهو أمر قد جعله شخصية تقبل التحدى — فى صمت — وتمضى فى تحديها الى الحد الذىيعرضه لكل الأخطار الممكنة ، حتى ولو أدى هذا التحدى الى أن يفقد الكثير مما يعشقه الطفل .

وكانت هذه هى البداية الى طريقه السياسى الملىء بالأشواك والمتاعب والتحديات ، وقد أدرك وقتذاك انه لكى يحقق أهدافه « المثالية » يجب أن يطرق أبواب « الصحافة » وأن يدخل منها

الى مجال يخدم فيه الشعب الذى يبكى ولا يجد من يدفع عنه الآلام التى سببت له البـكاء .

والخطوة الأولى لم تكن سهلة أو ميسرة لأسباب كثيرة ، أهمها أنه بدأ طرق أبوابها فى سن مبكرة ، وهو تلميذ فى المدارس الثانوية، ولم تكن مهنة الصحافة ، وقتذاك هى المهنة التى تليق بمن كان ينتسب الى أسرته ـ أوهكذا كان تفكير المجتمع فى ذلك الوقت ـ وقد اعترضت الأسرة بشدة على هذا الاتجاه ولكن والده كان متفتح الأفق فسمح له بذلك ـ رغم أنه لم يستكمل دراسته ـ بشرط أن يحصل على شهادة جامعية ، حتى ولو لم تكن هذه الشهادة ذات ارتباط بالعمل الصحفى . وأحس الشاب أن وراءه قـوة ممثلة فى والده كما استفاد من غريزة التحدى التى ولدت فيه من الصغر ، فصبر واجتاز كل الصعاب التى اصطدم بها للتوفيق بين هوايته وبين دراسته ، وليحقق الوعد الذى قطعه على نفسـه بأن ينهى دراسته الجامعية . وأصبح فى النهـاية ، وبعد فترة طويلة ، حاملا للشهادة الجامعية ، وصحفيا على أبواب مستقبل مرموق ..

وفى كل هذه المراحل ، فقد كان الحوار بينه وبين نفسه مستمرا لا يتوقف .. يسبح به فى آفاق بعيدة ويستعجل الأيام كما لو كان على موعد مع متاعب لا غنى له عنها ، ومنها على سبيل المثال أن يكون لنفسه أسرة صغيرة تهيىء له السبيل الى كفاح شريف . ولعل التحدى الذى ملأ عقله وقلبه قد دفعه الى أن يخالف الذين سبقوه الى العمل الصحفى وقالوا ان الصحافة لا تقبل «المشاركة» فاما أن يتفرغ لها أو يتركها ليكون أسرة وعائلة . وأراد أن يهدم هذه النظرية ، وأن يقول للشباب ان الصحـافة والزواج يدعم بعضهما البعض .

وقد كان فى سنواته الأخيرة بالدراسة الجامعية يفكر جديا فى الزواج بعد أن يضع يده على الشهادة النهائية ، بل لعله اختار شريكة حياته واطمأن الى أن اختياره الشخصى كان سليما . ولكنه فى لحظات حواره مع نفسه ـ شعر بمشقة قبل أن يصدر قراره اذ وجد نفسه مترددا فيما اذا كان يتقدم لخطبة من اختـارها

أو لا يتقدم » . فقد كانت الفترة الأولى فى عمله الصحفى فترة صعبة مليئة بالعقبات ، مزدحمة بالخلافات تحمل فى ثناياها الكثير من الدلائل على أن عمله الجديد يفرض عليه اتجاهات معينة قد يرفضها ويترك العمل ويواجه بطالة يراها أفضل من الخضوع لما يخالف رأيه .

وكان الحوار بينه وبين نفسه فى هذا اليوم عنيفا وقاسيا . فهو بين نارين . أو بمعنى أصح بين غرامين متصارعين . فى الجمع بينهما قسوة على نفسه وقسوة على من اختارها لتكون شريكة حياته ، ذلك لأن حرية تصرفه فى عمله الصحفى ستقيده بقيود شديدة لا يرضاها لنفسه ، فتكوين الأسرة مسئولية كبرى . وهذه المسئولية ستفرض عليه حتما أن يطأطىء رأسه فى بعض الأحوال ويقبل ما لا تحتمله نفسه المنطلقة اذا وضع فى اعتباره الأسرة ولقمة العيش .

لم يكن يريد أن يحمل شريكة حياته ما لا يكون فى طاقتها احتماله من تشرد وجوع وحرمان ، لقد كان يشعر ان حياته ستكون قاسية فيها المخاطر وفيها التشرد . وفيها الحرمان . وهذا ما حدث فعلا .. وقد يكون من أخطائه انه لم يسألها أو يشركها معه فى الحوار حول هذا المستقبل ، فقد كان يميل دائما أن يكون اختياره أولا مع نفسه كما أنه لم يكن فى الوقت فسحة تسمح له بنقل الحوار الى من اختارها لمشاركته الحياة ، اذ كان هناك من تقدم لخطبتها وكان عليها أن تعطى قرارها فى نفس هذا اليوم .

ربما كان تردده راجعا الى أنه فى حواره مع نفسه افترض أنها ستقف الى جانبه وستؤكد عزمها على المكافحة معه . افترض أسوأ الاحتمالات ، وهو أن هذا العزم من جانبها قد يكون وليد تفكير سريع لا يعيش طويلا ، وانها قد تتخلف فى الطريق أو تخلق له المتاعب عندما يواجه بحالات تحد لا مفر منها قد تؤدى به الى التعطل .

وفى لحظة اليمة وبعد حوار قاس قال كلمته : ان الوقت لا يسمح . والظروف لا تمكنه حاليا من أن يتقدم لخطبتها . وانتهى الحديث أو

.. انتهى الصراع . وفى ذلك اليوم طفرت دمعة من عينه ، وان كان قد أحس أنه بقراره هذا قد أسعد من أحبها لأنه أنقذها من طريق طويل وشاق ..

ولم يكن فى قراره هذا متسرعا ، فان ما توقعه قد تحقق . بل لعل ما حدث له فيما بعد لم يكن يتوقعه أو أدخله فى حسابه السريع ، اذ دخل المعتقل بعد فترة قصيرة من قراره ليبقى فيه ثمانية عشر شهرا سجينا مبعدا عن والديه وأخوته . وهو يذكر أنه تذكرها فى أولى لياليه داخل المعتقل بل لعله خصص هذه الليلة كلها لاستعراض شريط علاقته البريئة الطاهرة بها .. واستراح من الحوار الذى دار بينه وبين نفسه ، ومن القرار الذى اتخذه باخلاء طريق الحياة السهلة أمامها ولو أنها كانت شريكة حياته ، لكانت هذه الليلة الأولى — وما بعدها من ليال طوال — من أشق الفترات على نفسها .. فهو اذن قد جنبها بقراره مرارة البعد ، ومرارة الحرمان ومرارة الرحلة الطويلة التى بدأها وما زال سائرا فى طريقها .

وهو يذكر انه نام فى تلك الليلة نوما عميقا على خلاف ما توقع . واحس فى الصباح انه مازال يملك فى يديه أعز ما يجب أن يكون زاده فى كل لحظة : حريته . صحيح انه يعيش داخل أسوار معتقل يحيط به الحرس فى كل مكان ، ولكنه داخل نفسه احس أنه الرجل الحر الذى لا ارتباط له بأحد ولا سلطان لأحد عليه ، حتى من هؤلاء الحراس المسلحين الذين يراقبون حركاته ويقفون حائلا بينه وبين الانطلاق الى خارج الأسوار .

ومع أول نهار فى المعتقل بدأ يمارس حياة جديدة . فهو لم يكن وحده فى المعتقل . بل كان هناك الكثيرون من مختلف القطاعات الشعبية ومن مختلف الأعمار ، فقد كانت مصر تعيش فى ظل الأحكام العرفية بسبب الحرب العالمية الثانية . وكانت الحكومة تمارس حرياتها فى اعتقال من تشاء من خصومها استنادا الى أن نشاطهم السياسى وغير السياسى يضر « بالصالح العام » .

وهو قد دخل المعتقل لأنه ساهم فى عملية نشر سرية هدفها

محاربة الفساد والرشوة اللذين تفشيا فى الاداة الحكومية ، ولم يمنع وقوع مصر تحت الحكم العرفى وسلطة الحكم العسكرى من التفكير فى ضرورة مواجهة الشعب بالحقائق ، ولم تحل الرقابة دون وضع خطة لتنفيذ هذا العمل السرى الكبير بحيث تصل الحقائق الى الشعب بطريقة أو بأخرى ، ذلك لأن الشعور بالمسئولية ازاء الشعب كان أضخم من أن يقابل بهز الأكتاف أو الاحتماء وراء قيام الرقابة والحكم العسكرى تهربا من تحمل هذه المسئولية بكافة تبعاتها . وقد كان فى الامكان اثارة بعض جوانب هذا الموضوع فى مجلس النواب أو فى مجلس الشيوخ . ولكن الحكومة كانت تملك الأغلبية ، وكانت قادرة على اغلاق باب موضوع المناقشة ، من هنا كان لابد وقبل أن يطرح الاتهام داخل البرلمان من أن يعرفه الشعب أولا بطريق النشر السرى ، وان تتحرك كل قوى المعارضة — رغم ضآلتها داخل البرلمان — لاثارة الموضوع على أوسع نطاق .

وقد توقع القائمون بهذا العمل أن يعتقلوا ، وان تتخذ ضدهم أعنف الاجراءات . ولكنهم لم يترددوا فى الاقدام عليه أداء لمهمتهم السياسية الكبرى وهى محاربة الفساد اينما وجد . ذلك هو ما كان عليه التفكير السياسى فى ذلك الوقت . تفكير يرتكز على تقدير المسئولية وتحمل تبعاتها،ثم لأنه رغم كل الظروف التى أحاطت بالبلاد . كانت كرامة الفرد مصونة ومحسوبا حسابها .

وقد كان صاحبنا أصلا من اعضاء حزب الحكومة فى مجلس النواب ، وقد دخل المجلس عن طريق التحدى لحزبه ورئيسه الذى لم يشأ فى البداية الموافقة على ترشيحه . فلما أصر وتحدى . قبل اصراره وتحديه ثم أخرج من الحزب والمجلس فيما بعد لأنه واصل عملية التحدى فى قوة واصرار ووقف الى جانب مكرم عبيد عندما عارض رئيس الحكومة بسبب خلافات تتصل بالنزاهة . ولم يشأ أن يبقى بعد ذلك أداة سياسية عاطلة ، بل اقترح على رئيس المجموعة الحزبية المنشقة عن الوفد أن تجمع المخالفات الحكومية وتصدر بها « كتابا أسود » يطبع سرا ويوزع سرا ويكشف مساوىء الحكومة واتجاهاتها الهدامة ، تحديا لها وتحديا لكل

القوانين العرفية التعسفية التى فرضت على الصحفى رقابة قاسية وحجبت الحقائق عن الشعب .

ومن تلك الفترة بدأ ايمانه يتزعزع فى أمانة « السياسى » المصرى ، وتقديره للمسئولية قبل الشعب . وكان دخوله الى المعتقل بداية عمليات اتصال بعقول وأفكار مختلفة تمثلت فى أفواج المعتقلين التى كانت تفد على معتقل الزيتون بين وقت وآخر لتحل محل المفرج عنهم .. فقد كان المعتقل دائما مليئا بنوعين . نوع فرض عليه البقاء لفترة طويلة ، ونوع يأتى ويذهب ليحل محله من يبقى بعض الوقت .

وقد كان هو أحد الذين ظلوا فى المعتقل فترة أكبر ومن هنا فقد كانت دائرة معرفته بالمعتقلين تتسع يوما بعد يوم وأسبوعا بعد اسبوع وشهرا بعد شهر .

وفى هذا المعتقل بدأت جلسات الحوار المفتوح تعقد كل ليلة ، وتشترك فيها جماعات لا رابط بينها فى التفكير أو فى الثقافة . وانما ربط بينها هذا القيد الذى فرض عليها والزمها البقاء داخل جدران أربعة .. ومن هذا الواقع كان الحوار مفيدا .

وقد كانت هذه الجلسات بداية لمزيد من الدعم لتحديه . ومزيدا من الاصرار على الانتصار على الحكم الذى قيده .

والاعتقال فى حد ذاته اشق من السجن . ذلك لأن المحكوم عليه بحكم قضائى يدخل الزنزانة وهو يعرف كم قدر القاضى لفترة بقائه سجينا . أما فى المعتقل فلم يكن الفرد ليعرف كم يبقى ومتى « يتفضل » الحاكم فيصدر أمره بالافراج عنه .

وكم من صديق زائر جاءه سرا الى المعتقل ليقول له ان الافراج عنه ممكن لو أنه كتب مستعطفا رئيس الوزراء أو لو انه أعلن اعتزاله للعمل السياسى . وكان يستمع الى هذه العروض ويبتسم ولا يتكلم الا بالرفض أو الاعتذار .. على أساس انه سعيد فى هذا المكان الذى يسمح له بأن يقول ما يشاء ويصرخ برأيه كيفما يشاء .

اذ ماذا يمكن أن يفعل أكثر مما فعل . ثم اذا خرج من المعتقل لأنه استجدى الحاكم الافراج عنه ، فكم سيساوى خارج المعتقل . صفرا . أو أقل من الصفر .. وما قيمة الصفر فى حيـاة الفرد ؟ وما قيمة الانسان الذى يستجدى الحاكم حرية هى ملك له ؟ أليس هذا تسليما للحاكم بحقه فى أن يوزع نسمات الحرية ، فيعطيها لمن يشاء ويحبسها عمن يشاء ؟ وهل تسمى هذه حرية ؟

كان اصراره على رفض « الحرية الممنوحة » أقوى سلاح واجه به حياته الجديدة . وهو قد افترض منذ بداية اليوم الأول أنه باق فى المعتقل ما بقيت حكومة الوفد فى الحكم ، وانه لن يعرض أعصابه لهزات تسببها الآمال الكاذبة فى أن الافراج قريب . ولقد أحس بقسوة هذه الهزات على بعض زملائه فى المعتقل الذين ضعفوا بعد أيام من دخولهم الى هذا المكان . واحس بشدتها وهم يتلقون من أقاربهم الأمانى والوعود — ولعلها كانت كاذبة — بأن البقاء فى المعتقل لن يتعدى أسبوعا واحد . فقد كانوا اذ ذاك يعيشون على الأمل . فاذا لم يتحقق انهارت أعصابهم وضـعفت مقاومتهم .. وتساقطوا كما تتساقط الفاكهة الفاسدة .

وهو لم يكن يريد لنفسه هذه النهاية المبـكرة . بل كان يحس بأن استمرار بقائه فى المعتقل لن يضره فى شىء بل ان هذا البقاء — قصر أو طال — سيزيد من صلابته السياسية ويقوى من غريزة التحدى الراسخة فى نفسه ، ويحقق أمنيته فى ألا يكون مدينـا لأحد ، ولا معتمدا على أحد .

وقد كانت فترة المعتقل هى بداية الالتحاق بمدرسة من مدارس الحياة . مدرسة علمته الكثير ، ودرس فيها ما لم يكن يدرسـه لو أنه ظل محتفظا بعلاقاته مع المدرسة السياسية المصرية التى كانت أركانها قد بدأت تتداعى ويمشى الفساد فى طرقاتها ومسالكها ، ملتهما كل القيم الأخلاقية والخلقية ..

وقد قرأ كثيرا خلال فترة السنة والنصف التى قضاها فى المعتقل . قرأ فى الأدب . وقرأ فى السياسة وتعمق فى دراسة ما لم يكن قد تعمق فيه ، وخرج من قراءاته السياسية باتجاهات جديدة على

تفكيره الحزبى . فان الذين خدموا القضية المصرية على اختلاف سبلهم ووسائلهم لم يكونوا « خونة » يقبلون التسليم للاستعمار بمطالبه ، بل كانت تجمعهم الجبهة الواحدة وقت الشدة ، والمواجهة الفعلية مع الانجليز المستعمرين ، وكانت الارادة الشعبية الاجماعية تقف وراءهم فى هذه المواقف الوطنية التى امتلأ بها تاريخنا ، ومع هذا كانت عيوبا فى نظمنا الحزبية لأنها تتسابق الى الحكم دون أن تكون لها برامج داخلية محددة .. ومن المؤكد أن هذا التسابق نحو الحكم قد أوقعها فى أخطاء كثيرة كانت من صنع ديكتاتورية القصر الملكى ، والاعيب دار المندوب السامى — السفارة البريطانية فيما بعد — لقد وقعت الأحزاب ضحية لمبدأ « فرق تسد » . وقد كان المبدأ اساس عمل السراى وأساس عمل المعتمد البريطانى . ومع هذا لم يخل تاريخ الأحزاب السياسية المصرية من مواقف تاريخية مجيدة واتجاهات وطنية رائعة ، وقد ظل حزب الوفد محتفظا بشعبيته الجارفة الى أن تزوج زعيمه مصطفى النحاس باشا فى سن متأخرة ، وكانت عروسه شابة صغيرة جميلة تتطلع الى الثراء والجاه والسلطة .. واستطاعت بما توفر لديها من براعة ريفية أن تستأثر بالزوج الزعيم ، وان تقلب أوضاع البلاد رأسا على عقب ، وعدت الأخطاء التى ارتكبتها آخر حكومة للوفد قبل الثورة ، من الأخطاء الجسيمة التى تستحق أن يتضمنها كتاب أسود ..

وفى مدرسة معتقل « الزيتون » أيضا ، ومع استمرار الضيف الجديد مع زملائه بدأت فى ليلة من ليالى أبريل ١٩٤٣ حركة نشاط وتجمع ، ولقاءات .. والحوار المفتوح المتصل .

حوار .. الجيل القديم

جلسة هادئة ضمت مجموعة مختلفة من المعتقلين . منهم الأزهرى وضابط الجيش والطالب والعامل .. ومن لا عمل له ولكن الحكم العسكرى اعتبره خطرا على الأمن ، فان الكلمة المطاطة كانت تحشر بها وبأمثالها القوانين الاستثنائية ويجد الحاكم من خلال معناها الواسع الثغرات التى يتسلل منها الى جنونه .

كان الوقت بعد العصر .. وهم جلوس تحت ظل شجرة ضخمة لها تاريخ ، ولها بالقطع ذكريات عند أصحاب هذا البيت القديم .. الذين سكنوه فترة ما وهم أحرار ثم تركوه أو باعوه ليصبح مكانا له رهبته ، وله قيوده وله حراسه الذين يحيطون به طوال الليل والنهار لحماية الدولة من هذه القلة التى سكنت القصر بأمر الحاكم. وساد الصمت بعض الوقت .. ثم قطعه الشيخ الأزهرى بضحكته العالية التى اعتاد اطلاقها وهو يوشك أن يتكلم .. وكان صديقنا الأزهرى قد أعتقل بعد أن قاد أو اشترك فى مظاهرات تعبر عن سخطها وتبرمها من الطريقة التى تحكم بها البلاد وبخاصة بعد حادث ٤ فبراير وحصار قصر عابدين بالدبابات الانجليزية لفرض حاكم بعينه رئيسا للوزارة . والأزهرى دائما وأبدا وعلى المدى الطويل من تاريخ مصر كان سباقا الى ابداء رأيه فيما يواجه البلاد من مشكلات . وكانت تجمعات الأزهريين داخل المساجد وخطبهم النارية البليغة ومساهمتهم فى مظاهرات الاحتجاج ودعوة الناس الى الكفاح والجهاد ضد المستعمر وغير المستعمر تتسم فى كل المناسبات بالعنف والاقدام على مواجهة المخاطر ، ذلك لأنه يمثل الريف المصرى والقرية المصرية بكل ما فى هذا التمثيل من معانى الوطنية والتفانى فى خدمة الوطن . بل لقد كان كفاح الأزهر على طول تاريخه وعرضه امدادا وامتدادا لكل الثورات الشعبية التى اشتعلت قبل ثورة ١٩١٩ وبعدها ، كما كان دليلا على ان الشعب لا يتردد فى تحمل مسئولياته . وان قادة الأمة وزعماءها

رغم اختلاف اتجاهاتهم السياسية ووسائلهم فى علاج القضية الوطنية كانوا يحرصون على أن يظل الشعب جاهزا للتجمع والتصدى لمواجهة المستعمر أما الخلافات الداخلية فلا ضرر منها اذا كانت حول الآراء تتصارع ، ومظاهرات تتعدد .

ولم يتغير شعب مصر على المدى الطويل . ولكنه كان عاطفيا ووفيا اذا أحب زعيما وتفانى فى تأييده بعد اقتناع كان من الصعب تغيير عاطفته مهما تتغير الظروف . وأوضح صورة لذلك موقفه مع سعد زغلول ، فقد كانت الجموع تردد فى كل انتخابات برلمانية « لو أن سعدا رشح حجرا لانتخبناه » وكذلك كان هذا وضعه مع خليفته مصطفى النحاس . فانه عندما اتهم بأن حزبه انحدر الى أدنى مراحل الفساد والرشوة — بمقياس ذلك الوقت — خرجت المظاهرات فى الشوارع تردد « حرامى . حرامى . ولكن نحبه » ..

ومن ثم كانت عاطفة الشعب تلعب دورها فى كثير من الأزمات فيبدو تصرفه متناقضا مع طبيعة الموقف ، وقد نفسر ذلك بأن روح التحدى التى سيطرت على تفكيره ومشاعره هى التى جعلته ينطلق فى حماسة للاشخاص قبل أن يفكر أو يزن الأمور بميزانها السليم . ولعل فيما حدث بعد ٤ فبراير ما يدل على أن العاطفة أحيانا قد تنحرف بالوطنى وتطعنه فى صميم وطنيته ، فعندما نجح النحاس باشا فى تشكيل وزارته الوفدية وذهب السفير البريطانى لزيارته عقب ذلك بمكتبه برئاسة الوزارة التهبت الجماهير المحتشدة فى فناء الرئاسة حماسا وحملت السفير على الأعناق .. اعترافا بجميله .. ولست أشك فى أن الذين فعلوا ذلك أحسوا بالألم فيما بعد لأنهم بعملهم هذا جرحوا الكرامة الوطنية فى صميمها .. وغاب عنهم ما قاله النحاس فى خطابه للسفير وليكن معلوما أنه لا المعاهدة المصرية البريطانية ولا مركز مصر كدولة مستقلة يسمحان للانجليز بالتدخل فى شئوننا الداخلية وبخاصة فى تشكيل الوزارات أو تغييرها

ونعود الى هذه الجلسة فنذكر الحوار الذى دار فى ليلة من ليالى ربيع ١٩٤٣ .

الأزهرى : لقد سمعنا ونحن فى المعتقل عن « كتاب أسود » أصدرته الكتلة المستقلة . فما الذى تضمنه هذا الكتاب ؟ وما قصته ؟ ؟.

واعتدل الضيف الجديد فى مكانه .. ونظر الى الوجوه المتطلعة اليه .. وابتسم ابتسامة هادئة ثم قال :

الضيف : من المؤكد ان هذا الكتاب الاسود قد احدث دويا فى مصر ، وخارج مصر . لأن الوقائع التى تضمنها كانت صارخة وناطقة بالفساد الذى ساد الحكم فى مصر من جهة . ولانه امكن اعداده وطبعه وتوزيعه فى ظل الاحكام العرفية، وعلى الرغم من كل العيون التى انطلقت فى كل مكان تراقب تحركات المعارضة وتحسب خطواتها حسابا مدروسا .

الازهرى : وهل هذا هو السبب الذى من أجله اعتقلت ؟

الضيف : اعتقد ذلك . وان كنت اعرف ان الحاكم العسكرى يستطيع أن يعتقل دون أن يطلب منه بيان الاسباب أو الحيثيات . لأنه يتصرف فى ظل قانون استثنائى هو وحده الذى يفسره كيفما يشاء ، وعلى ما يهوى وليس مطلوبا منه أن يقدم حسابا للاخرين .

وهنا اعتدل الضابط الشاب استعدادا للمساهمة فى الحوار وتأهبا لالتقاط الخيط من صديقنا الأزهرى . كان وجهه الباسم — يتسم بالهدوء ولكن كلماته وحسن اختياره لها كانا ينطقان بالحيوية والوطنية .. والانسانية .. وقد اتاحت الايام الاولى فى المعتقل للضيف ان يدرس هذا الضابط ويتعمق دراسته . لا ليعرف شخصيته فقط ، وانما ليعرف كيف يفكر شباب الضباط فى هذه الظروف التى تمر بها البلاد . وقد اكتشف من معرفته ان الصنف الجديد من ضباط الجيش يختلف اختلافا كبيرا عن الصنف القديم الذى أعده المستعمر ليكون زينة فى الحفلات والمواكب لا ليكون جيشا قادرا على احتمال عبء الدفاع

عن مصر . وقد كانت احداث ٤ فبراير ١٩٤٢ . التى احاطت فيها وحدات من الجيش البريطانى بقصر عابدين لتفرض على الملك تكليف مصطفى النحاس بتشكيل وزارة جديدة حافزا لتحريك العاطفة الوطنية فى نفوس الصنف الجديد وقد بلغ بهم التحدى لقوات الاستعمار أن يحتفلوا بلقاء الملك فاروق فى ذكرى ٤ فبراير بناديهم بالزمالك لاتفانيا فى حبه فانهم الذين خلعوه فيما بعد ، ولكن اشعارا للمستعمر بأن الجيش لن ينسى هذه الاساءة التى مست كرامة مصر .

وقد ادخل الضابط المعتقل ، بعد أن طرد من الجيش ، لأنه كان قد بدأ سلسلة متصلة من المغامرات ضد المستعمر ، وهى مغامرات اتسمت ، الى جانب وطنيتها بالشجاعة والصبر والاقدام ، وهذه صفاته دون شك ، وان كنت تنظر الى وجهه الأسمر ، والى أناقته وعنايته الفائقة بمظهره وشاربه وهندامه ، فلا يخطر ببالك أن هذا كله يخفى وراءه حماسا واقداما واصرارا على أن يكون لمصر مكانها تحت الشمس .. وكان الضيف يسائل نفسه دائما : هل كل الصنف الجديد داخل الجيش من هذا النوع ؟ ولم يدر بخلده وهو يطرح على نفسه هذا السؤال ان هذا الصنف الجديد من الضباط سيكون على رأس حركة عسكرية تطيح بالملك فاروق .. وتدخل مصر فى سلسلة من الاحداث الكبيرة والتغيرات الخطيرة بما فيها من سلبيات كثيرة وايجابيات محدودة .

وتحدث الضابط الاسمر فسأل الضيف :

الضابط الاسمر : هل لديك نسخة من هذا الكتاب ؟

الضيف : كانت لدى نسخة واحدة احتفظت بها لنفسى ، ولكن البوليس استولى عليها عندما جاء قبيل الفجر يطرق ابواب منزلى . وقضى الساعات يبحث عن المزيد من النسخ ، ثم انصرف بعد أن صدرت اليه الاوامر بالانصراف،

ثم عاد بعد اسبوعين يبحث عن جديد .. لأن شيئا جديدا طرأ على الموقف ، وأثار اهتماما جديدا .

الازهرى : وهل وجد عندك هذا الجديد ؟

الضيف : كان هناك جديد على الدوام . والجديد فى هذه المرة كان منشورا مطبوعا وموزعا تضمن الرسالة التى حول بها الكتاب الاسود من القصر الملكى الى رئيس الوزراء ولم تكن صيغة الرسالة عادية لانها تضمنت التلميح بأن الكتاب قد اشتمل على وقائع تستأهل الرد ..

الازهرى : وهل وجد المنشور معك ؟

الضيف : نعم . فلم يكن ممكنا أن يخرج الكتاب الاسود ونكتفى به . بل كان لابد من المتابعة ، فنحن نعتقد أن من حق كل مواطن أن يعرف الحقائق ، ومن حق كل مواطن أن يتكلم وان ينتقد ، وان يهاجم الحاكم اذا ما ارتكب الخطأ الذى يحاسب عليه ، ومن ثم لم نتردد فى مباشرة « المواجهة العلنية » واذا كانت الصحف قد منعت من الاشارة الى صدور الكتاب الاسود ثم حيل بينها وبين نشر رسالة رئيس الديوان الملكى ، فليس معنى هذا ان نتقاعس ونسكت ونخضع ، والا ذهب الجهد الذى بذل فى اعداد الكتاب الاسود عبثا ، وكل عمل كفاحى يجب أن يتابع وأن يمضى به أصحابه فى نضالهم لتثبت جديتهم فى العمل . وقد كان مكرم عبيد واحدا منهم .

الضابط الاسمر : صح . هذا كلام سليم . فالاستسلام يعنى اعطاء الحاكم كل الفرص فى الانطلاق بلا رقابة شعبية ، ولابد فى كل المناسبات من تذكيره بأن هناك رأيا عاما قائما يتحين كل الفرص للتعبير عن رأيه .

الازهرى : لكم كنت اتمنى ان تكون معنا نسخة هنا من الكتاب الاسود لنقراها . ولكن حدثنا بعد هذه المقدمات الشيقة عن قصة هذا الكتاب ..

الضيف : انها قصة ممتعة استغرقت أحداثها ما يقرب من ثمانية اشهر ، وقد بدأت عندما أحسست أن الصلات بين القصر والوزارة قد بدأت تضعف فوق ضعفها ، ولم يكن الملك فاروق ، فى ذلك الوقت قد انحدر الى ما انحــدر اليه فيما بعد ، ولم تكن مراكز القوى داخل البلاط الملكى قد برزت بالصورة الخطيرة التى ظهرت بها فيما بعد ، ولعلها كانت موجودة ولكنها لم تتحين الفرصة لبسط نفوذها على الملك وعلى الحكم وعلى كل السبل المؤدية الى الثراء . بل أنها كانت معرضة ومكشوفة للناس . وكثيرا ما كانت تهاجم وتنتقد وتنسب اليها الاخطاء ، وآية ذلك أن الاستاذ محمود محمد محمود رئيس ديوان المحاسبة ضمن تقريره السنوى عن حسابات الدولة ملاحظة بشأن مبلغ خمسة آلاف جنيه عمولة استولى عليها كريم ثابت المستشار الصحفى للقصر الملكى مقابل اداء خدمة لجمعية المواساة فى الاسكندرية . وقد احدثت الملاحظة ضجة كبرى وبخاصة عندما عرف ان القصر حاول اقناع محمود محمد محمود بحذفها من تقريره فرفض واستقال ، ثم انتقلت هــذه الواقعة الخطيرة الى مناقشة مفتوحة فى مجلس الشيوخ فأتاح لها ذلك فرصة النشر على الناس رغم قيام الرقابة على الصحف ، فقد كانت الحكومة مرتبطة بأن كل مناقشات تجرى داخل مجلسى البرلمان لا تخضع على الاطلاق لسيطرة رقابة النشر . وكان مالا ينشر فى الصحف يجد طريقه الى الناس عن طريق عرض المعارضة له داخل المجلس .

ولعل من أهم الاسباب التى حالت دون سيطرة مراكز القوى على الأوضاع الداخلية سيطرة تامة هو انه كانت هناك مراكز قوى شرعية ودستورية فى مواجهتها . ولكن عندما اختفت هذه المراكز الشرعية وحلت محلها مراكز الضعف .. تجبرت مراكز القوى وازداد نفوذها بصورة ارعبت البلاد .. وقد رأت الكتلة الوفدية المستقلة — وهكذا كان اسم حزب مكرم عبيد — ان الفرصة سانحة لاستغلال السراى فى عمل تقوم به المعارضة ضد مصطفى النحاس وحكمه ، وكان الملك فاروق كذلك يتحين الفرصة

للانتقام من رئيس الوفد بسبب احداث ٤ فبراير ١٩٤٢ لأنه رفض أن يشكل وزارة قومية بينما كانت بريطانيا تريدها وزارة وفدية تحمى ظهرها فى حربها ضد المحور . وجاءه السفير البريطانى مايلز لامبسون فى الساعة التاسعة مساء ومعه دبابات الجيش المحتل ليفرض على الملك قبول تشكيل الوزارة برئاسة مصطفى النحاس، وكان أول اتصال مع رئيس الديوان الملكى بشأن هذا الموضوع فى ليلة ما فى اغسطس ١٩٤٢ . وكانت وقائع الفساد الحزبى قد بدأت تأخذ شكلا مثيرا ، وبدأ الناس يتكلمون عن ترقيات استثنائية وتصرفات مالية تمس نزاهة الحكم . وعمولات تدفع فى مقابل تخفيف أو شطب أحكام التموين وانطلاق قرينة رئيس الحكومة السيدة زينب الوكيل فى ممارسة عمليات استغلال نفوذ لتحقيق الثراء استنادا الى قيام الرقابة على الصحف ، واطمئنانا الى انه لن يتكلم أحد أو يذيع اسرار هذه المخالفات كلها .. وسألت أحمد حسنين باشا : الا من سبيل لوقف هذا الفساد الذى يكاد يقضى على الاخلاق ؟ ورد قائلا : لا يمكن أن اتحرك الا اذا كانت هناك ادلة ووقائع تحت يدى .. وقلت له : واذا تحقق ذلك ؟ .. فقال : الان ليس هو الوقت المناسب فما زالت الوزارة تقضى شهر العسل مع دار السفير البريطانى ولكن هذا الوقت سيأتى قريبا ..

وسافرت فى اليوم التالى مع مكرم عبيد باشا رئيس الكتلة الى مصيف رأس البر .. ورويت له خلال الرحلة ما دار بينى وبين أحمد حسنين باشا ، فصمت قليلا وقال « ما رأيك فى أن نجمع الوقائع ووثائقها ثم نضمنها عريضة نرفعها الى الملك ؟ قلت : فكرة سليمة .. ومحاولة قد تأخذ بعض الوقت فتقدم عندما يرى القصر أن شهر العسل قد انقضى ... » ولم أكمل كلامى فقد كان مكرم عبيد رجلا شعبيا يفضل التخاطب مع الجماهير قبل أن يتخاطب مع الملك أو المسئولين ، ولهذا لم يكن يريد أن يقدم عريضة لا يقرؤها أحد . أو يقتلها رئيس الحكومة بصمته

على كل اتهام يرد فيها ومن ذلك كنت أحس انه يفكر فى طريقة تجمع بين الامرين : عريضة الى الملك . و « منشور يتضمن نص العريضة ليوزع على الناس ، وبذلك يضمن أن يحقق هذا العمل نتيجة رسمية وشعبية معا . . ولم اكن مخطئا فى تفكيرى اذ لم يلبث أن صارحنى مكرم باشا بهذا الرأى ، وطلب منى ان ادبر أمر طبع العريضة المتوقعة فى كتاب . وتلك كانت نقطة بداية « انكتاب الأسود » عريضة الى الملك . منشورا مطبوعا فى شكل كتاب وعندما بدا مكرم يعمل على استيفاء البيانات والوثائق الدالة على فساد الحكم وجدنا انفسنا فى النهاية أمام سيل من الوقائع وشعرنا أنه لا سبيل الى اخراجها فى كتاب صغير الحجم ، ولابد من أن يتضمنها كتاب كبير يطبع ويوزع على الناس فى وقت واحد عندما تقدم العريضة الى الملك وبذلك تكتمل الضربة وتأخذ شكلها الحاسم .

وكانت عملية طبع الكتاب هى مشكلة المشاكل . اذ أن كافة المطابع لم تكن تقبل طبعه بسبب رقابة البوليس المفروضة عليها ، ولانه كان يتحتم الحصول على موافقة مسبقة قبل طبع أى شىء ، ثم ان مكرم عبيد كان يحرص على أن يظهر جهده فى ثوب جذاب وفى كتاب كامل الشكل ولم يكن ممكنا استعمال الات الرونيو لتحقيق هذا الغرض .

وكلفت بالبحث فى هذا الموضوع : كيف نوفر طبع الكتاب بعيدا عن رقابة البوليس ، وكيف يحقق فى نفس الوقت أن يكون الكتاب جيد الطباعة والاخراج ؟ . وتفرغت لهــذه العملية الشاقة تفرغا تاما فقد كنت اذ ذاك مستقيلا من عملى الصحفى بجريدة المصرى ، لأن صاحبها بقى مع الوفد بينما خرجت منه مع مكرم عبيد ، ومع انى كنت قادرا على الانتقـــال الى عمل صحفى آخر فى جريدة أخرى لأن الصحفى لم يكن مملوكا لفرد واحد الا أن ارتباطاتى السياسية هى التى فرضت على أن ابتعد عن أى عمل صحفى اكتفاء بالعمل السياسى ، وكنت قد فصلت من

عضوية مجلس النواب (الشعب حاليا) بعد أن اكتشف المجلس أن سنى لم تكن قانونية — رغم اقراره بصحة عضويتى من قبل — .

وكونت فريقا من شباب الحزب لتحمل اعباء هـذه المهمة الضخمة ، منهم من كلف بشراء مطبعة صغيرة قديمة ولكنها صالحة لطبع الكتاب ، ومنهم من كلف بشراء الورق اللازم لطبع الكميات المطـلوبة ومنهم من كلف بالتعاقد مع عمال جمع وطبع ، ومنهم من كلف باختيار مكان سرى نخبىء فيه كل ذلك ، ولم يكن أحد منهم يعرف ماذا يعمل الآخر . ولم يكونوا جميعا يعلمون الفكرة من وراء ذلك كله . ولكنهم كانوا من الشباب المخلص لفكرة الحزب فرضوا بالسكوت . ولم يحاولوا الاستفسار أو التساؤل .

ولم يكن هذا هو حال شباب حزب الـكتلة وحده . بل أن شباب مصر فى ذلك الوقت ، وفى كل الاحزاب كان يؤمن بالرسالة الوطنية ، ويحرص على النظام ، ويحترم رأى الكبار ، لأنهم اعتادوا أن يستمعوا اليه ويحاوروه ويحاولوا أن يكونوا منهم الصفوف التاليـة التى تحمل اعباء المسئولية .

وكان أحمد ماهر باشا من رجال مصر الذين يجدون متعة فى الجلوس الى شـباب مجلس النواب فيعلمهم أساليب المعارضة والتأييد . وكان يجلس الى شـباب الجامعة والمدارس فيشعرهم بأن لهم كيانا وأن لهم قيمة فى حياة الوطن . . كان كل كبير يحرص على تكملة الصفوف الناقصة بعناصر شابة مكافحة مثقفة قادرة على تقديم التضحيات ، أو بمعنى آخر كان كل كبير يحرص على ادخال الشباب فى تجارب الحياة المرة فى ظل الرعاية والارشاد ليكتسـبوا الخبرة من التجـارب ثم ليختاروا ما يشاؤون .

الضابط الاسمر : هذا عظيم ...

الضيف : وبدا مكرم يكتب . ويدقق . ويحقق . ويعد العريضة ، تماما كما يعتكف النائب العام لاعداد عريضة الاتهام فى قضية كبرى وهامة ، ومن أجل جمع الحقائق والوقائع والأدلة جند مجموعة ضخمة من معاونيه ومعارفه فى الوزارات ، وغيرها ، لاداء هذه المهمة من غير أن يطلعهم على حقيقة المهمة . ولا أريد أن أطيل عليكم فى تفصيلات صغيرة . المهم أنه كلما انتهت كتابة جزء سلمناه الى العامل المكلف بالجمع ، وهو الوحيد الذى كان يعرف — ولو بالاستنتاج — سر العملية كلها ، ولعله فهم ذلك صراحة عندما قيل له أنه يجب أن « يحبس نفسه » فى المكان الذى اخترناه للمطبعة ، ولا يغادره ، ولا يتركه ابدا ، وقد رضى بذلك عن طيب خاطر .. وهذه صورة أخرى من صور الكفاح العمالى تدل على أن العمال لم يكونوا أقل وطنية من الاخرين . بل كانوا اذا اقتنعوا بسلامة فكرة أو موقف لا يترددون فى العمل بكل طاقاتهم وتضحياتهم . كان العامل يتسلم الأصول ويجمع الحروف ، ويعد الصفحة ، ويطبع البروفات ، ويتسلمها بعد تصحيحها ليصحح الاخطاء المطبعية . ثم كان يقضى أوقات فراغه — وكانت طويلة ومملة — فى حفظ كل ما جمع من أصول الكتاب حتى أصبح الوحيد فى مصر كلها الذى حفظ ما جاء فى الكتاب الأسود عن ظهر قلب .

الأزهرى : ولكن كيف ؟ .. الم يشعر البوليس بهذه العملية أو يرتاب فيما يدبر فى الخفاء .. ؟

الضيف : لقد احسسنا اكثر من مرة بأن هناك علامة استفهام كبيرة تشغل بال البوليس السياسى ولا يجد لها جوابا سريعا .. ولهذا نقلت المطبعة من مكانها مرتين .. وبمنتهى السرية .. كذلك كنا دائما نقوم بتحركات تضلل البوليس ، ويبدو أنه لم يتنبه الى ذلك الا فى الايام الاخيرة بعد ان طبع الكتاب كله وكتبت العريضة بخط اليد واصبحت العملية كلها فى انتظار ساعة الصفر .

ثم حدث بعد ذلك أن عرفت واقعة جديدة مدعمة بوثيقة مهمة أخطرت بها مكرم عبيد ، وياليتنى لم أخطره بها . فقد صمم على اضافتها الى العريضة والى الكتاب المطبوع. وكانت المطبعة قد فكت اجزاؤها . وسرح العامل الذى كان سجينا معها ستة أشهر .. ولم يكن ممكنا المجازفة بطبع تفاصيل هذه الواقعة فى مطبعة تجارية عامة .. ولكن مكرم عبيد كان فرحا بالواقعة ، وازداد تصميما على اضافتها ، ولم يكن امامنا الا المجازفة .. مع احتمال أننا قد لا ننجح فيها وقد تضيع بها العملية كلها .

وقد نجحنا فى الاتفاق مع مطبعة قامت باداء المهمة المطلوبة ، ولكن البوليس عرف بها أو خيل الينا أنه عرفها — فلم يكن أمامنا الا الاسراع بساعة الصفر .

الازهرى : وهل كانت الواقعة خطيرة الى هذا الحد الذى يتعرض فيه الكتاب للسقوط فى ايدى البوليس ؟

الضيف : نعم . فقد وقعت تحت ايدينا رسالة برقية أرسلت بالشفرة من رئيس الوزراء الى سفير مصر فى بريطانيا .

الضابط الاسمر : وماذا تضمنت هذه البرقية ؟

الضيف : كانت حرم رئيس الوزراء السيدة زينت الوكيل — صاحبة النفوذ الاكبر فى هذه الفترة — تطلب شراء قطعة من الفـــراء .

الضابط الاسمر : واقعة خطيرة .. واستغلال رسمى لاجهزة الدولة .

الضيف : من غير شك .

الضابط الاسمر : ولكن كيف تحددت ساعة الصفر ؟

الضيف : عندما احسسنا بشدة مراقبة البوليس لنا ذهبت الى احمد حسنين باشا واخطرته ان العملية كلها قد انتهت ، ونخشى ان يضيع الجهد الجبار الذى بذل فى طبع الكتاب ، لأن البوليس قد ضاعف من جهوده لحل اللغز الذى شم بعض روائحه ، ولكنه لم يعرف من أين تنبعث هـــذه الروائح ، وما هو نوع الطبخة وكان احساسنا بذلك ناشئا من أن معظم أعضاء الكتلة وضعوا تحت رقابة مشددة .

وابتسم احمد حسنين فى هدوء ــ وكان ذلك فى أوائل مارس من عام ١٩٤٣ ــ وقال : يبدو أن فى الامكان أن نحدد ساعة الصفر قريبا ، واذا كان هناك خوف من أن تسقط العملية كلها فى يد البوليس قبل اختيار ســـاعة المناسبة ، فلا مانع عندى من تسلم النص المكتوب باليد للعريضة ومعه الوثائق للاحتفاظ بهـــا فى خزائن قصر عابدين .. وما عليك الا أن تسلمها الى غدا فى منزلى . ومع أن تسليم العريضة يعتبر عملية بسيطة الا أنه فى واقع الامر كانت عملية ضخمة كبرى .. استغرقت ١٢ ساعة متصلة .

الضابط الأسمر : (**ضاحكا بصوته العالى**) ــ هذا كلام جميل .. فانه تعجبنى جدا هذه الأعمال المرسومة التى يتم فيهـــا خداع قوات البوليس السياسى .

وكان هذا الضابط قد عاش جزءا كبيرا من بداية حياته النضالية هدفا لرجال البوليس السياسى ، أو ما اسميناه فيما بعد رجال المباحث العامة ، لانه يقوم بعمليات تركزت كلها على محاربة المستعمر واقلاق راحته . ويروى اصحابه عن ذلك قصصا كثيرة ، وان كان هو لم يذكرها لى على الاطلاق ، بل كان يتجنب الحديث عنها ، ويكتفى اذا وجه اليه سؤال فى موضوعها بضحكة عالية من ضحكاته التى كانت تكشف عن اسنان بيضاء يعتنى بها كثيرا ، رغم كثرة السجائر التى كان يدخنها فى اليوم الواحد . وهو لهذا

كان يطرب اذا وجد من يشاركه العبث برجال البوليس السياسى .

الازهرى الفيلسوف : ولماذا استغرقت عملية تسليم العريضة والوثائق هذا الوقت كله ؟

الضيف : لقد كنت تحت رقابة شديدة من البوليس السياسى ، وازدادت هذه الرقابة عنفا فى الأيام الأخيرة وكانت خطة التسليم تبدأ بزيارة لمنزل فى شبرا « حجز » فيه الخطاط الامين فترة طويلة ليكتب العريضة بخط اليد تطبيقا للاصول والبروتوكول فى أن كل عريضة ترفع الى الملك يجب أن تكون بخط اليد .. لماذا ؟ لست ادرى .. وكان على بعد تسلم العريضة والوثائق أن أضعها فى السيارة ، واخترق بها القاهرة من شبرا الى ميدان عبد المنعم بالدقى (أمام مستشفى مورو) حيث كان يقيم أحمد حسنين .. وكانت العملية تتطلب للتأكد من تضليل البوليس السياسى الا أذهب الى شبرا مباشرة بل أسير على غير هدى فى شوارع القاهرة حتى أضمن مائة فى المائة انى أفلت من الرقابة البوليسية ثم أعود مرة أخرى الى مواصلة عملية التضليل زيادة فى التأكد من خلو الرقابة . هذا الى أن تسليم العريضة الى أحمد حسنين باشا كان مقدرا له أن يتم حوالى الساعة الثامنة ، وبعد أن يخيم الظلام على الشوارع والمنازل .

وملأت مستودع البنزين فى مساء اليوم السابق لتنفيذ الخطة ، ثم قمت فى الصباح الباكر . وانطلقت بالسيارة أجوب بها شوارع القاهرة . واقف عند منازل بعض الأقارب والأصدقاء لزيارتهم ، وامضى فى هذه الزيارات أطول وقت ممكن ، والقى بين الوقت والآخر نظرة من النافذة لأتأكد من نجاحى فى الهرب من الرقابة البوليسية .. ثم فضلت الا أبدأ الخطوة الثانية ، وهى الانتقال الى شبرا الا بعد التأكد أكثر من مرة من أن طريقى قد أصبح آمنا ، ولهذا حرصت على أن أجوب شوارع القاهرة مرة أخرى ،

وأتوقف مرات . ثم أعود الى متابعة السير . وبعد ظهر ذلك اليوم كنت اقف أمام المنزل فى شبرا ، ثم دخلته وخرجت ومعى حقيبتان صغيرتان فيهما حصيلة هذا العمل الكبير الذى هز مصر هزا ، ووضعتهما فى السيارة باطمئنان ثم انطلقت مرة أخرى الى أمكنة مجهولة ، وأخذت اتطلع من مرآة السيارة الصغيرة للتأكد من سلامة الطريق حتى غربت الشمس فأخذت فى الانطلاق نحو الدقى .. وتلك كانت الفترة الحرجة التى كدت أن أفقد فيها اتزانى ، اذ أنه كلما اقترب النجاح ، ازدادت ضربات قلبى ، ولكنى كنت أحس بأن شيئا ما داخل نفسى يقول لابد من أن انجح ، لأن الله معنا .

كان ايمانى بالله لا يتزعزع . وكنت أعرف ان الله لا يحب الفساد ، وانه أذا كان المفسدون يظنون انهم استطاعوا بقدراتهم الهرب من العقاب . فان الله أعدل من أن يجعلهم يهربون بخطاياهم . ان الله يمهل ولكنه لا يهمل ، ذلك كان حديثى بينى وبين نفسى فى هذه اللحظات الحرجة ، وكنت أتخيل الجهد الذى بذل فى جمع المعلومات وكانت صورة العمل الكبير الذى كان يبذل فى طبع الكتاب ، وكيف اننا نوفق المرة بعد المرة فى نقل المطبعة الصغيرة من مكان الى مكان تضليلا للبوليس . وكيف تجمع شباب الحزب وسيداته يعملون الساعات الطويلة فى جمع ملازم الكتاب وترتيبها وتجليدها بالغلاف الاسود .. كنت اتصور كل هذا الجهد الذى باركته يد العناية الالهية .. ولا اتصور اطلاقا انه يمكن ان ينتهى الى لا شىء . ان هذا العمل الذى احمله معى هو معركة من المعارك لمحاربة الفساد الذى هز ثقة الشعب فى نزاهة الحكم واصبح الكلام عنه على كل لسان .. فهل يمكن ان ينتهى الى لا شىء ..؟ مستحيل ! وفى الساعة السابعة مساء وصلت الى ميدان عبد المنعم ووقفت بعيدا عن المنزل أرقب . وأتأكد أن الطريق الى داخل منزل أحمد حسنين خاليا من كل رقابة . ثم خرجت من سيارتى فى الساعة المحددة وحملت معى الحقيبتين ، .. وبكل هدوء وايمان

فتحت باب الحديقة .. وضغطت على جرس الباب . وفتح البـــاب فورا وخطوت الخطوة الأخيرة نحـــو نصف النجاح . وعندما جلست فى صـــالون المنزل . أخرجت العريضة من الحقيبة ووضعتها على الأرض وكانت ضخمة فى حجمها وارتفاعها . ثم فتحت الحقيبة الأخرى وأخرجت منها الوثائق المدعمة لمـــا ورد فى العريضة من وقائع . ثم أشعلت سيجارة وأغمضت عينى ولم أفتحهما الا عندما أحسست أن باب الصـــالون يفتح ، ورأيت أمامى أحمد حسنين يتطلع الى العريضة بضخامتها وقد ارتسمت على وجهه علامات الدهشة .. وتساءل : كل هـــذا عريضة واحـــدة ؟

وطال الحديث بيننا فى تلك الليلة . كنت أحاول الاتفاق على تحديد ساعة الصفر للعملية الأخرى المكملة ، وهى ذهاب مكرم عبيد الى قصر عابدين ومقابلة أحمد حسنين لتقديم العريضة بصورة رسمية . ذلك لأن خطتنا كانت قائمة على توزيع الكتاب على الشعب فى نفس اليوم ، وتلك كانت عمليـــة تتطلب اعدادا وتحضيرا على أســـاس أن التوزيع يجب أن يتم فى كافة انحاء مصر فى وقت واحد .

الضابط الأسمر : عظيم .. عظيم جدا ؟

الأزهرى الفيلسوف : هذا عمل جليل يستحق الاعجاب والتقدير وان كنت واحدا من الأزهريين الذين كادوا يحطمون سيارة مكرم عبيد يوم كان عضوا بحكومة الوفد ..

الضـــيف : لا داعى للاسف . فقد كان لك فيه رأى . ثم عرفت الحقيقة . وهذه ميزة الحياة الديمقراطية . أن تسهل لك الوقوف على الحقائق كلها ، وهى التى تسمح لك بأن تكون رأيا غير الرأى الذى كنت عليه . انها تجعلك حرا فى اختيار الطريق الذى تسير فيه . صحيح ان الديمقراطية كانت أسيرة الظروف الاستثنائية التى تعيش تحت وطأتها البلاد ، ولكن من الممكن أن تتخلص من هذا الأسر بين

الوقت والآخر اذا وجدت من يناهض الاستثناء ، ويتمسك بحقـــه .

الضابط الأسمر : ان هذه حقيقة لا خلاف عليها ، الديمقراطية عصب الحياة لكل الشعوب . والقول بأنها تصــلح لشعب ولا تصــلح لشعب آخر كلام مرفوض فى كل الأزمنــة (ملتفتا الى الضيف) ثم ماذا ؟

الضـــيف : المهم أن احمد حسنين لم يكن قادرا على أن يحـــدد الموعد ، ولكنه قال ان هذا قد يكون فى خلال أسبوعين .. وان على أن أتصل به تليفونيا بين وقت وآخر ، فاذا قال لى «أنكاوتشوك» السيارة جاهزا وأن التسليم سيتم غدا. فمعنى ذلك أن الموعد سيكون فى اليوم التالى ظهرا . وخرجت فى تلك الليلة سعيدا أنطلق بسيارتى الى منشية البكرى حيث كان يسكن مكرم عبيد .. وأخذت أفكر خلال هذه الرحلة الطويلة فى الخطوة الثانية ، كيف يتم توزيع الكتاب ، وكيف نضمن وصوله الى كل الناس وكيف .. وكيف .. كنت أحس أنى تحررت من أسر دام ١٢ ساعة . لم أكن أتطلع الى ما ورائى ولم يكن يعنينى ان كنت مراقبا أم غير مراقب ، ولم يكن يعنينى أن أتلفت يمينا أو يسارا . كنت أسبح بفكرى فى الآثار المرتقبة والتى ستترتب على تقديم العريضة واذاعتها على الناس . ونسيت فى غمرة هذا التفكير كله أن أضغط على بنزين السيارة وأسرع لأنهى حالة القلق التى كان يعيشها مكرم عبيد فى هـــذا اليوم ، والتى جعلته يخرج فى هذه الساعة الى حديقة منزله ليقطعها ذهابا وايابا فى حركات عصـــبية ثم ينطلق الى الشارع متطلعا الى كل سيارة قادمة لعلها تكون سيارتى. ولست أنسى اللحظة التى رآنى فيها ، وتطلع الى وجهى دون أن ينطق بكلمة وعندما رفعت له يدى بعلامة النصر.. انطلق يقبلنى ولم يسأل عن تفاصيل ما واجهته خلال اليوم ولكنه بادرنى بسؤال هام وهو : ومتى تتم الخطـــوة الثانية ؟ .

وفى تلك الليلة جلسنا نخطط لعملية توزيع الكتاب .

الضابط الأسمر : .. ان القصة شيقة . والعملية رائعة . رائعة . ولهذا أقترح أن نؤجل الكلام عنها . ان أيامنا فى المعتقل طويلة . وأحب أن ندخر بقيتها الى غد ..

***

ولما انتهت الأمسية بأحاديثها الشيقة ، وانطلاقاتها الحرة سار الضيف مع الضابط الأسمر فى حديقة المعتقل يتحدثان فى كل شىء وكانت العلاقة بينهما قد توطدت وتدعمت ، وقال الضيف بأن فى داخل هذا الضابط عزيمة جبارة ، وقدرا كبيرا من الوطنية واصرارا على أن تستعيد مصر مكانتها الحرة .. ان تحطم الأغلال داخلية كانت أو خارجية .. وكانت نغمات موسيقى الجاز فى ملهى « حلمية بالاس » القريب من المعتقل تصل اليهما لتقطع هدوء الليل وسكونه ..

وكان هذا الملهى واحدا من الملاهى التى يقضى فيها الملك لياليه المتصلة . فمنذ ذلك التاريخ كان فاروق قد بدأ فى انطلاقة اباحية علنية كأنه يتحدى كل القوى السياسية المصرية والبريطانية . كان يرى نفسه ضائعا ، فأراد أن ينسى هذا الضياع فى جلساته مع النساء ، ومنذ ذلك الوقت بدأت مراكز القوى فى البلاط الملكى تستعد للامساك بدفة الأمور . وفجأة تطلع الضابط الأسمر الى الضيف وسأله :

ـ سمعت ان الملك فاروق يقضى لياليه متنقلا بين ملاهى الليل فى القاهرة .. فهل هذا صحيح ؟

الضيف : يبدو أن ما يقال هو الصحيح . وان صدمة ٤ فبراير قد أخلت بتوازنه ..

الضابط الأسمر : أو ليس من الغريب ان يكون مصير الكتاب الاسود بما تضمنه من مخالفات وفضائح بين يدى رجل انغمس هو نفسه فى الفضـــائح .

الضـــيف : انى أتفق معـــك فى الرأى ، ولكن ماذا كان يمكن أن نفعله ؛ لقد كان لابد من تحرك . وكان لابد من تحريك الهدوء وتحويله الى عاصفة ، كان لابد من اشعار الحكومة أن الحكم العرفى لا يحميها اذا كانت هناك ارادة شعبية صلبة ، وان الاجراءات الاســـتثنائية لا تقف حائلا دون الوصول الى معرفة الحقائق أو بمعنى آخر كان لابد من تجنب الوقوع فى براثن السلبية التى تولد الخوف والقلق فى نفوس النـــاس . وكان لابد أن يبقى الرأى العـــام مستيقظا . وأن يعيش فى جو تصطدم فيه الآراء وتتصارع لانه لا حياة للرأى العام الا فى هذا الجو الصحى .

ولا يعنينا أن يكون الملك فاسدا . ان الذى يعنينا أن نستغله وأن ننفذ من جدار سلطانه الى مواجهة الفساد .

الضابط الأسمر : (**بعد صمت طويل**) ربما كان ذلك صحيحا .. ولكنى أحس ان هذه بداية النهاية قد تطول هذه البداية حتى تصل الى النهاية ، ولكن من يدرى ؟

وكان ذلك فى ربيع عام ١٩٤٣ .

ما تضمنه الكتاب الأسود

وفى الليلة التالية ، كان أخوة المعتقل يفدون واحدا بعد الآخر الى حيث اعتادوا قضاء أمسياتهم الهادئة .. وكان ذلك بعد أن انتهوا من تناول طعام العشاء الجماعى الذى اعتادوا أن يبدأوه بترديد نشيد « بلادى بلادى » ثم يمضون فى أحاديث صاخبة ونكات لا تتوقف ، ولكنها تنصب على الحكم والنظام وما جرى فى مصر . لم يتركوا أحدا الا تعرضوا له بالنكتة اللاذعة ، ولعلهم بذلك كانوا يمارسون حرية لا وجود لها فى الخارج وهذا ما كان يجعلهم يحسون بالطمأنينة والراحـــة .

ومع ذلك وعلى الرغم من كل هذه النكات ، ومن كل ما كان يردده المعتقلون لم تكن هناك عقوبات أو جزاءات .. بل كان ضـــابط المعتقل يستمع الى هذا كله ، ويبتسم وأحيانا . كان يشاركهم وينقل اليهم ما يتردد فى خارج المعتقل من نكات جديدة .

وكان الضابط الأسمر يجلس هادئا ساكنا واضعا ساقا على ساق يتطلع الي وجوه الجالسين .. ثم يطلق تنهيـــدة طويلة ، ويشعل سيجارة بعد أخرى فى هدوء يخفى وراءه عصبية حادة .. ومع أن الكلمات التى كان ينطق بها خلال هذا الحوار وخلال جلسات أخرى مقصورة على قلة من المعتقلين كانت قليلة الا انها بليغة قوية تدل على أن شيئا يتحرك داخل نفسه ، ولكن لا يريد أن يبوح به ولعله لم يكن يعرف ماذا يجب عليه عمله ، أو ما هو البديل لهـــذا الذى تعيش فيه مصر ، على أن المؤكد انه كان يتطلع الى حريته لا لينعم بها ، وانما لكى يواصل ما بداه من مناواة للمحتل وارهاب لأذنابه من المصريين .

وكان الأزهرى الفيلسوف يتحرك من مكان الى آخر فى حدود الحلقة الضيقة التى كانت تضم الشمل .. بينما يطلق فى نفس

الوقت ضحكته العالية العصبية التى كانت تعبر عن قلقه من امتداد أيام الاعتقـال وكان يردد بين الوقت والآخـر ، وبصوت عال « يا نحس » ولعلها كانت كلمة تعبر عما فى نفسه ، وان كان قد حرص دائمـا على القول بأنهـا مشتقة من اسم رئيس الوزراء « النحاس » وانه يشعر براحة شديدة عندما يقف فى نافذة حجرته أو على سطح المعتقل ويطلق الكلمة قوية ليسمعها الذين يستمتعون بحرياتهم خارج المعتقل ، ولكنهم لا يجسرون على النطق بهـا .. وما دام هو قادرا على ترديدها فمعنى ذلك أنه حر .

وكان بين الجالسين معنا فى تلك الليلة شاب ضئيل الجسم ، صغير السن ، كثير الكلام ، يناقش ويحاور مما أكد للضيف أنه درس القانون وانه يعد نفسه للدفاع عن حقوق الناس . وقد كان واقعه كذلك فهو قد تخرج فى كلية الحقوق وظهر من كلامه أنه يفضل الصحافة على مهنة المحاماة وانه سيسعى الى بلاطها بكل ما يملك من قدرات وعزم .

وكان هناك ايضا الضابط الطيار الذى دخل المعتقل لأنه عدو للمحتل البريطانى ، ولأنه قد عزم على محاربتهم بكل قواه وكان صديقا للضابط الأسـمر . ولكنهما كانا يختلفان فى الطبـاع وفى الصفات وفى التفكير .. لم يكن غبيا .. ولكنه كان يتظاهر بالغباء ، وكان يهز رأسه كلما استمع الى كلام لا يعجبه ، .. ويردد كلمة « حلو .. خليها على الله » .

وكان هذا الضابط الطيار أول المتحدثين فى تلك الليلة وبدأ يهز رأسه ويرتب كلمات السؤال الذى ينوى أن يفتتح به النقاش ، وفى نفس الوقت يضحك فى هدوء ضحكة لو أن غريبا سمعها لقال عنه « ما هذا الابله » ولكنه لم يكن كذلك .

الضابط الطيار : « صلوا على النبى يا جماعة » .. الليلة عاوزين نسمع اولا بقية قصة توزيع الكتاب الأسود .. ثم صلوا على النبى كمان .. وبعدين نسمع عن الوقائع التى تضمنها الكتاب .

الضابط الأسمر : يا حسن . . (وكان هذا اسم الطيار) . . يا حسن أعقل وأتكلم كويس . .

الضـــيف : ان خطة توزيع الكتاب الأسود فرضت علينا أن نكشف الستار عن سر العملية الكبرى وان يعرف بعض أعضاء الحزب ما الذى كان يهرب فى الخفاء ، ولعل ضـــخامة العملية وما بذل فيها من جهد وفرحة أعضاء الحزب بها هو الذى أوجد عندهم حالة من الالتزام بالسرية كاملة الى أن يرى الكتاب النور ويصل الى أيدى الناس .

وقد وضعت خطة التوزيع على أساس ارسال الكميات المخصصة للمحافظات والمديريات فى « اقفاص للفاكهة » تشتمل على نسخ من الكتاب ومعها رسالة تضمنت مهمة محددة هى أن يبقى أعضاء الحزب فى المحافظات — وكان أغلبهم يجهل ما فى الأقفاص — لا يغادرونها الا بعد أن يسمح لهم بذلك ، وبعد أن يخطروا بطريقة التصرف فيما هو داخل الأقفاص .

أما فى القاهرة والاسكندرية فقد وقع الاختيـــار على مجموعات من الشباب ، الى جانب بعض أعضاء الحزب ، وطلب منهم تقسيم المحافظتين الى عدة أقسام كما طلب من كل فرد منهم أن يعد كشفا بأسماء وعناوين الشخصيات المؤثرة شعبيا وسياسيا فى كل قسم من الأقسام التى كلفوا بها وان يكونوا تحت تصرف رئاسة الحزب بصفة مستمرة لاخطارهم بما سيقومون به من عمل وطنى هام . . ولم يحاول هذا الشباب الصغير أن يسأل أو يتحرى أو أن يخطر البوليس بما يجرى من أعمال ، فقد كان الالتزام بنظام الحزب مسيطرا عليهم . وكانوا يعدون أنفسهم جنودا فى معركة ، لا يسألون ولا يحاورون وانما ينفذون . هكذا كان الشباب المصرى وطنيا متحركا مستعدا لأداء كل عمل يطلب منه بعد اقتناع وبعد ايمان .

وكنت أواصل الاتصال برئيس الديوان الملكى أحمد حسنين باشا سائلا عن مصير « الكاوتشوك » وكانت الاجابة تأتى دائما « لسه شوية » ومكرم عبيد يكاد يفقد أعصابه لأنه كان يخشى أن يكون الملك قد صرف النظر عن اجراء « مواجهة » مع مصطفى النحاس ، وفى نفس الوقت كان تحت تأثير التصور بأن هذه العملية الشاقة المنهكة توشك أن تسقط فى يد البوليس .

وجاءت ساعة الصفر .. ونطق أحمد حسنين بكلمة السر ، وطلب أن يسلم الكاوتشوك ظهر اليوم التالى وكان ذلك فى الأسبوع الأخير من شهر مارس ١٩٤٣

وعقد اجتماع عاجل بمنزل مكرم عبيد ، وصدرت التعليمات فورا الى المحافظات بفتح الأقفاص فى الساعة السابعة صباحا من اليوم التالى ، فقد أردنا أن يوزع الكتاب قبل أن نقدم العريضة رسميا . وفى الساعة العاشرة مساء وزعت نسخ الكتاب على شباب الحزب فى القاهرة والاسكندرية بلا أقفاص وبلا احتياط . ولم أنم تلك الليلة .. ومن المؤكد أن الآخرين من الذين ساهموا فى العملية واجهوا نفس الحالة . وكان مقررا أن يخرج مكرم عبيد من بيته فى ساعة مبكرة من الصباح وأن يتوجه الى مكان مجهول الى أن تحين ساعة ذهابه الى القصر . فقد كان واضحا فى الكتاب الأسود انه نص عريضة مرفوعة الى الملك ولما كان الكتاب سيوزع مبكرا . فقد خشينا القاء القبض عليه قبل ذهابه الى قصر عابدين .

وفى الساعة التاسعة صباحا ، كانت القاهرة وكل محافظة من محافظات مصر تتحدث عن كتاب أسود أصدرته الكتلة المستقلة ولم يستغرق توزيع الكتاب سوى ساعة أو أقل لأن الذين جندوا للعملية كانوا من الكثرة بحيث أمكن أن يكون الكتاب فى متناول الذين أردنا أن يصل اليهم قبل أن تدق ساعة البريد الثامنة .

وأخطر مكرم عبيد فى مخبئه بنجاح العملية والانتهاء من توزيع الكتاب ، ولم أكن معه فى تلك اللحظة ولكن الذين شهدوه بعد ما انتهت المكالمة التليفـونية قالوا انه كان يتحرك فى المنزل بعصبية شديدة « ويدندن بأغان غـير مفهومة ، فقد كان له صوت موسيقى .. وكان سعيدا بالغ السعادة لأنه ضرب « النحاس باشا » ضربة معلم .

واستدعى رئيس الحكومة مدير الأمن العام محمـود غزالى الى بيته ليحقق معه فى الموضوع ، وكيف غاب عن البوليس اكتشاف هذه العملية الضخمة . ويقال انه جرى وراءه داخل المنزل محاولا ضربه بحذائه ، وان كان محمود غزالى قد أنكر ذلك .

وتحرك مراسلو الصحف الأجنبية يحاولون العثور على نسخة من الكتاب وانطلقت اذاعات العالم توزع أنباءه الى جانب ما كان يذاع عن أنباء المعارك فى الصـحراء الغربية وأوربا والعالم كله .

وقبل الظهر بدأ أعضاء الحزب يفدون على القصر الملكى فى انتظار وصول مكرم عبيد . وكان الفريق محمد حيدر باشا موجودا فى السراى ، وما كاد يرانى ، وكنا أصدقاء ، حتى بادرنى بقوله : سأعد لك مكانا فى السجن . وقد كان اذ ذاك مديرا لمصلحة السجون .

ووصل مكرم عبيد فى الموعد المحدد فرحا سعيدا يكاد يطير من فرحته ولم يقل شيئا للصحفيين الذين تجمعوا حوله وانما اتجه مباشرة الى مكتب احمد حسنين باشا حيث كانت العريضة رابضة على مكتبه بعد ان أخرجت من خزينة القصر .

وتمت المقابلة . وانتهت العملية الكبرى واستراحت أعصابنا ، وخرجت فورا من القصر الملكى الى النـادى الأهلى حيث اشتركت مع بعض الزملاء فى مبارة للتنس

كنا قد تواعدنا عليها واحسست أن مهمتى فى أشق مباراة سياسية قد انتهى الجزء الأول منها ، لأبدأ بعد ذلك مباراة أخرى .. ومن نوع آخر .

الأزهرى الفيلسوف : وهل تظن أن العريضة ستحقق أغراضها ؟

الضـــيف : لقد حقق الكتاب الأسود بعض أغراضه فعلا وأحست الحكومة بأن المعارضة ليست صامتة أو سلبية . وأحس الشعب — حتى وان كانت بعض عناصره الوفـدية غير سعيدة بنجاح مكرم عبيد فى كشفه مساوىء الحكومة — بأن كيانه كقوة ما زال قائما ، بل أستطيع أن أقول أن حزب الوفد بأغلبيته الساحقة ، كان متبرما بالأخطاء التى ترتكب فى نطاق حزبى ضيق ويتمنى لو أن زعامة الوفـد ظلت بطهارتها القديمة وبعدها عن التطلع الى الثراء .

المحامى الشاب : ومع هذا فان المشكلة ما تزال قائمة لأن البارزين فى الحزب لم يجدوا الشجاعة فى مواجهة الزعامة بمـا يفرضه عليها الموقف الحزبى من جانب والموقف العام من الجانب الآخر .. وهذا هو مكرم عبيد قاوم كل الانحراف داخل الحزب ومع هذا لم ينضم اليه الا قلة من أعضاء الهيئة الوفدية البرلـمـانية .

الضـــيف : الا يعد هذا كسبا ؟ او ليس هذا أفضل بكثير من أن يظل الوضع على ما كان عليه فلا يرتفع صوت واحـد بالمعارضة داخل الحزب ذاته .

المحامى الشاب : والنتيجة ان فصل مكرم عبيد واخوانه من الوفد .

الضـــيف : وهذا وضع طبيعى . بل لو أن مكرما لو لم يفصل لوجب عليه وعلى اخوانه أن يستقيلوا . ان السلبية قاتلة وتدفع الرأى العام الى اليأس من رجاله .

الأزهرى الفيلسوف : دعونا الآن من هذا النقـــاش الايدلوجى ، ولنرجع مرة اخرى الى الكتاب الأسود ونســـأل ما هى توقعاتك بالنسبة لمـــا ستحققه العريضة .

الضـــيف : لا أستطيع أن أتصور امكانية التخلص من الحـــكومة حاليا . الذى تحقق بلا شـــك هو تدعيم الاحساس بأن مجابهة الضغط والتضخم والتحكم فى الرأى العام لا يمكن أن تنجح اذا وجـــد من يتحداها ومن الضرورى أن تظـــل قطاعات من الرأى العام تدق أجراس انتنبيه لـــكل من يجلس فى المناصب القيادية ولو أن مكرم عبيد واخوانه التزموا السلبية استنادا الى وجود رقابة وفرض وصاية على الرأى ، لتفاقم الوضع الى أسوأ ، على الأقل ، فان الحكومة القائمة شعرت بأن انطلاقها له حدوده . وان هناك رقابة شعبية فعالة ، سواء أكان ذلك فى مجلسى البرلمان أو فى الصحافة السرية . وأنا أحب أن أسمى الكتاب الأسود بهذا الاسم ، ثم ان هذه العريضة ستعطى للعناصر الطيبة داخل الوفد فرصتهم للحد من الاستمرار فى الاســـتغلال .

الضابط الأسمر : صح . هذا سليم . ولكن ماذا تتوقع من مجلس النواب وأغلبيته تؤيد الوزارة القائمة ؟

الضـــيف : من المؤكد ان المعارضة ــ القليلة العدد ــ والموجودة داخل المجلس ستجد فى العريضة فرصـــتها للســؤال والاستجواب . ولا مفر للوزارة من مواجهة هذا وذاك . . وحصيلة هذا كله ان الشعب سيحس بوجـــوده وكيانه سواء أكان الحكم عرفيا أو استبداديا أو دستوريا .

المحامى الشاب : بل انى اتوقع أبعـــد من هذا . فقد توعز الحكومة الى بعض انصارها أن يثير الموضوع برمته لكى يتـــاح لهـــا فرصة الرد ، وهنا لابد أن تعد المعـــارضة عدتهـــا لكى تزيد من ضغطها وتنبه العنـــاصر الطيبة الى التدخل غير العـــلنى .

الأزهرى الفيلسوف : وماذا تعنى بالتدخل غير العلنى ؟؟

الضـــيف : اعنى به التدخل فى نطاق الحزب . فأنا أعلم ان الكثيرين من أعضاء الهيئة الوفدية يتألمون من ان تدخل سيدة فى اعمال الحكومة تحقيقا لأغراضها. ان استغلال المرأة لنفوذها علامة سيئة وانحدار الى الحضيض . صحيح ان البعض منهم قد اعترض ، وبشدة ، على أن تهبط المعارضة الى مستوى منازلة السيدات ، ولكن كان ردنا على هذا هو أن قرينة رئيس الوزراء هى التى شاءت ان تحكم ، وأن يكون لها النفوذ الأكبر فى تصريف الأمور الى الحـــد الذى يجعلهـــا تقترح أسماء وزراء ، بل وتعيين هؤلاء الوزراء .

الضابط الأسمر : هذه كارثة كبرى . ووضع لا يصح السكوت عليه .

الضـــيف : ولكن لا جدال فى أن الحكومة الوفدية قد أحسنت مواجهة مكرم عبيد عندما اتهمته بأنه قد طعن التقـــاليد المصرية فى صميمها بتعرضه لسيدة مصرية واتهامها بأنهـــا تستغل نفوذها ، ولكنى مع هذا أرى أنه لم يكن هنـــاك مفر من هذه المواجهة . وكان لابد من تنبيه النحاس باشا الى ما يجرى حوله .

الأزهرى الفيلسوف : ولكن هل كان النحاس باشا يعلم حقيقـــة ما يجرى حوله ؟

الضـــيف : لقد كنت أقول دائمـــا أن هنـــاك معـــادلة لا تخطىء وهى اذا كان رئيس الوزراء أصلا رجلا فقيرا ، ثم انتقل وضعه داخل بيته من فقر الى ثراء .. أفلا يســـأل نفسه وهو الرجل المجرب : من أين جاء ذلك كله ؟

الضابط الأسمر : انها المعـــادلة التى لا تخطىء فعلا . وكذلك تكرار ما يقـــال من أن الأخطاء لا يرتكبهـــا الزعيم وانما

يرتكبها الذين هم حول الزعيم ، هو كلام نرفضه ولا نقبله، ان المسئولية فى كل الحالات هى مسئولية الزعامة .

الأزهرى الفيلسوف : ولكن هل يلتقط النحاس باشا قفاز مكرم عبيد ويرد عليه ؟

الضيف : هذا احتمال ، بل لقد تردد قبل اعتقالى أن الحكومة تعد كتابا أبيض ، لأنها تشعر بأنها لا تواجه مكرم عبيد وحزبه وحدهما ، بل تواجه السراى أيضا ، ثم لأن الخطاب الذى حولت به العريضة الى النحاس باشا لم يكن خطابا عاديا ، بل صيغ بأسلوب فيه اتهام للحاكم وأن لم يكن مباشرا .

الضابط الطيار : صلوا على النبى ياولاد .. خلونا فى الكلام الجد .. ان التكهن بمستقبل العريضة وكتابها الأسود سابق لأوانه .. فلماذا لا نظل فى حاضرنا ونسمع بعضا مما جاء فى الكتاب الأسود من وقائع ؟

الأزهرى الفيلسوف : **(ضاحكا بصوت عال) أهو دا الكلام الجد .**

الضيف : أن الوقائع التى جاءت فى الكتاب الأسود تنطق بفداحة استغلال الحزب الحاكم لسلطاته من أجل ما نسميهم (المحاسيب والأنصار) فالترقيات فى الوظائف الحكومية كانت تتم بلا قاعدة أو أحقية ، وكنت ترى الموظف المحسوب يقفز من درجة الى درجة فى خلال فترة قصيرة متخطيا بذلك اقرانه .. أو بمعنى آخر كانت لقمة العيش تؤخذ من فم لتعطى لفم آخر .

وكان المحامون من اعضاء الحزب الحاكم يتقاضون أتعابا ضخمة من أجل تحريك القضايا العسكرية الخاصة بالمخالفات التموينية لصالح موكليهم ، بل كانت بعض الأحكام توقف أو تلغى أو تخفف أو تعاد للمحاكم ، لأن المحامين المحاسيب كانوا يتقاضون مقابل ذلك عمولات فى شكل اتعاب ، وما ذلك الا لأن امر التصديق على هذه الأحكام كان يتطلب توقيع الحاكم العسكرى عليها ، وهو نفسه رئيس الحكومة

والحزب وكان اشقاء قرينة رئيس الوزراء يقومون بدور الوساطة فى عقد بعض الصفقات ويتقاضون مقابل ذلك عمولات قد تصل الى مئات الجنيهات ، وبدأت مظاهر الثراء تبدو عليهم وهم الذين كانوا من عائلة كريمة فقيرة

وانى لأذكر جيدا ان النحاس باشا عندما فكر فى الزواج ، وهو فى سن تكاد تقترب من الخامسة والخمسين فاتح مكرم عبيد فى هذا الأمر وطلب منه أن يبحث له عن عروس ..

ووجد مكرم عبيد ضالته فى فتاة مصرية صغيرة السن جميلة جذابة ومن عائلة كريمة ، وعندما فوتح والدها فى أمر هذا الزواج قال لمكرم بمنتهى الصراحة « أنى رجل فقير ولا أملك شيئا ولا أستطيع أن اجهز ابنتى بما يليق بمكانة زعيم الوفد » .

وعندما وضعت هذه الحقائق كلها امام النحاس باشا قال لمكرم ، وانا أيضا رجل فقير ، ولا استطيع أن أدفع مهرا للعروس ، وعليك أن تبحث الأمر مع طلعت حرب باشا ، رئيس بنك مصر ، لاقراضى المبلغ على الا يشترط البنك وجود ضمان شخصى أو غير شخصى .

وبهذه البساطة تمت اجراءات الزواج .. وبدأت السيدة زينب الوكيل تظهر فى الميدان السياسى كعنصر فعال له قوته وله تاثيره ، فقد كانت تتطلع الى الثراء ، وكان لابد من تعويض عن فرق السن الكبير بينها وبين النحاس باشا .. ولهذا قصص كثيرة لا تنتهى ..

المهم ان الصفقات التموينية كانت هدفها وهدف الانصار والمحاسيب ، فيتم التعاقد عليها والتصرف فيها وفقا لمصلحتهم بالاضافة الى استيلاء اعضاء

الحزب او المقربين الى السيدة حرم رئيس الحكومة على الأراضى الحكوميـــة ..

الضـــابط الاسمر : والى اى حـــد بلغ تدخل الســـــيدة زينب فى الحـــكم .

الضـــيف : لقد كانت هى كل شىء .. وقد ترددت اقوال كثيرة عن الهـــدايا الثمينة التى تقـــدم اليها فى مقابل « تصريف الكثير من الأمور الصعبة » وكانوا يلقبونهـــا « برفعـــة الهانم » ويكفى أن يقـــال ان رفعة الهـــانم تريد كذا أو كيت من الطلبـــات .. لتفتح كل الأبواب المستعصية لقد كانت الحاكم بأمرها ، ولعل قصـــة الفراء التى رويتها لكم هى التى كادت تهـــدم عملية الكتاب الاســـود .

الضابط الطيار : ايه حكايتها يا جماعة .. فراء ايه ؟

الضابط الأسمر : يا حسن هذه واقعة تكلمنا عنها من قبل ولا حاجة للرجوع اليهـــا .

الضـــيف : المهم .. ان معظم الوقائع التى تضمنها الكتاب الأسود كانت مدعمـــة بالوثائق ، وكان من الضرورى أن تحصن العريضة من الوقوع فى أى خطأ يسمح للحكومة باستغلاله واعتبـــاره من علامات « الادعاء الـــكاذب » من جانب « الاتهام » . ولقد نجحنا فى ذلك الى حد كبير ، وان كان حماس مكرم عبيد وهو يكتب العريضة قد جعـــله يلبس بعض الحقائق أكثر مما تحتمل ولكنها كانت قليلة جدا .

الضابط الطيار : وماذا ايضا عن الوقائع الأخرى .. قص علينا المزيد منها ..

الضابط الأسمر : لو ان وقائع الكتاب الأسود اقتصرت على بعض ما استمعنا اليه لكان كافيا .. ان تلوث الحكم بالأخطاء

مهما بلغت قيمتها يكفى للعصف بهذا الحكم وبخاصة ونحن نحارب ونكافح ضد محتل وذلك يتطلب اجماعا من الامة .

المحامى الشاب : ووقوع الأحزاب فى اخطاء تمس النزاهة والشرف سمح للمحتل أن ينفــذ الى تفرقة الصف . ان الذين يتجرون بقوت الشعب ويثرون على حسابه .. هؤلاء يجب بترهم والا كانوا خطرا على قضايانا العامة .

الضابط الأسمر : ان استغلال الظروف التى تمر بها مصر لمصلحة شخصية جريمة تفوق كل الجرائم فى بشاعتها وخطرها .

الضيف : اننا الآن فى موقف ترقب لمـــا ســـيحققه هـــذا العمـــل الكبير . فالخطوة الأولى قد اكدت وجود التحدى وعـــدم الاستسلام للحكم العسكرى القائم .. وهو أيضا يعطى الشباب فرصة فى أن يعلم انه لا تهاون من جانب الكبار وان عليهم أن يأخذوا منهم القدوة . وأن يجردوا أنفسهم من التعصب الحزبى أو الالتزام بتأييد فرد بذاته مهمـــا ارتكب من آثام فى حق بلاده . ولقد خرجت الوقائع كلها الى النور وأصبحت فى متناول الشباب وغير الشـــباب ووضعت الحكومة فى موقع المدافع « الذى يجب عليه أن يتكلم » ..

المحامى الشاب : وسيتكلم بلا شك ، وسيجرى الحوار البرلمانى بالقطع ، وستتاح الفرصة للشعب أن يقارن بين الاتهـــام والدفاع . وسيكون هو الحكم ، وهذا هو دور الحـــكم الديمقراطى السليم حتى فى ظل الأحكام العرفية والجبروت الفردى .

الضابط الطيار : صلوا على النبى يا جماعة . هل نسيتم أن الشعب يقف وراء الحكومة بكل طاقاته ، وان الأغلبية البرلمانية طوع أمر الحـــكومة .

المحامى الشاب : هذا وضع نسلم به جميعا ، ولكن ذلك لا يعنى

« التسليم » وعدم توضيح الأمور للشعب . وما دامت فرص الحوار بين الرأى والرأى الآخر معروضة عليه فلابد من ان يحقق هذا الحوار نتائجه مهما طال الوقت . المهم ان هناك باستمرار « حيوية » فى الحوار ..

الضابط الأسمر : (مقاطعا) ولكن كيف يمكن أن نحقق وصول وقائع هذا الحوار الى الشعب ؟ .

المحامى الشاب : ان مكان الحوار كما أتوقعه سيكون فى مجلس النواب ، وهناك التزام على الحكومة بأن كل ما يقال داخل المجلس لا يخضع « للرقابة الصحفية » ، ومن هنا ، فان النقاش الذى أتوقع أن يجرى داخل المجلس سيصل الى الشعب بأكمله . بل ان الصحف ستعرض هذا الحوار بأكمله كوثيقة لها قيمتها فى ابراز حيوية النظام البرلمانى فى ظل الحكم العسكرى أو العرفى . وبهذا يسجل التاريخ ان المصرى لا يعرف الاستكانة أو الاستسلام .. أو الصمت على الواقع مهما يكن أليما .. ومهما تكن نتائج المواجهة مع الحكم .

الضابط الأسمر : صح .. وانا دائما أومن بأن الشعب سيحقق انتصاره فى النهاية ..

* * *

وكعادتهما كلما انتهت امسية من امسيات المعتقل انصرف الضيف مع الضابط الأسمر ، ولكنهما كانا صامتين فى هذه الليلة لم يتحدثا وأن كان الضابط الأسمر يطلق من صدره بين الوقت والآخر تنهيدة طويلة معبرة عن الألم والحيرة .. هل كانت صادرة عن قلب يحب .. أو قلب حزين .. أو قلب ساخط .. أو قلب جمع بين كل هذا .. ؟

لم يكن الضيف يدرى . ولكنه كان يحس أن العلاقات بينه وبين الضابط الأسمر قد توطدت بحيث تسمح له بأن يسأله ..

وقد ظلا فى تلك الليلة القمرية يقطعان حديقـــة المعتقل ذهابا وايابا وكانت أصوات الموسيقى المنبعثة من ملهى حلمية بالاس يذكرهما بأن هناك حياة وحركة ولهوا خارج اسوار المعتقل وكان صوت الحرس ينطلق فى الليل الهادىء بين وقت وآخر كلما سمعوا صوتا أو أحسوا شيئا يقترب منهم بهذا النداء القوى « قف من أنت .. » طلبا « لكلمة السر » .. وكانت أصوات نباح الكلاب فى الأرض الفضاء التىأحاطت بالمعتقل كان ذلك كله يضفى علىأحاديثهما ظلالا تحمل فى طياتها أسئلة كثيرة .

هؤلاء الذين يمرحون ويضحكون ويسهرون الليـــالى الحمراء ويلعبون القمار ويتاجرون بقوت الشعب .. الا يشعرون فى أعماقهم بأن أمرا ما يمكن ان يحدث لهم ويطيح بكل ما بنوا من آمال وثراء .. الا يقرأ هؤلاء التاريخ ليعرفوا ان مصير العابث له نهاية . وان النهاية دائما تكون مريرة . وكان الضابط الأسمر يؤكد أن شـــيئا من هذا لابد أن يقع ولابد أنتتحرك قوى الخير ، حتى ولو كانت قلة ، لتغلب قوى الشر ولو كانت كثرة .

وهذه الكلاب التى تنبح طوال الليل ، فتقلق النائمين هل يتحقق لنباحها نتيجة .. وما هى ترجمة هذا النباح الى لغة البشر .

وكان الضابط الأسمر يؤكد ان هذا النباح لا يقلق الذين ترتاح ضمائرهم فينامون ملء جفونهم وانما هو يقلق الذين لا يعملون عملا يرضى الضمير ، واستمرار هذا النباح لابد أن يوقظ الضمائر النقية النائمة ، وأن يجذبها الى معسكر الذين يعملون اثناء الليل والنهار من أجل وضع أحسن ..

وفى تلك اللحظة من تفكير الضابط الأسمر انطلق صوت الحارس بقوة وهو يردد « قف .. من أنت » ووقف الضابط الأسمر فى مكانه وابتسم .. ثم قال : وهذا هو النداء الذى سيسمعه الجميع فيما بعد ، عندما ينطلق صوت الشعب ليقول « قف من أنت » .

واستمع الضيف الى هذا التحليل من صديقه ، ثم أيقن أن القلب

الذى يحمله هذا الضابط الشاب لابد ان ينفجر بكل ما فيه من حب أو حزن أو ســـخط ..

* * *

ونام الضيف فى تلك الليلة نوما هادئا عميقا ، لم تتخلله الاحلام المزعجة ــ بل لعله لم يحلم أبدا ــ لأنه كان يعيش واقعا مفرحا قريبا يكاد يقترب منه .

كانت الحياة داخل المعتقل شاقة .. وكان المعتقلون فى ضاحية الزيتون يعيشون تحت وطأة الاحساس بأن شخصا واحدا استطاع بجرة قلم أن يسلبهم حريتهم ويضعهم فى منزل كبير تقوم على حراسته قوات أمن ضخمة . كانت فكرة تقييد حرية الحركة وحدها قادرة على تحريك نفوس المعتقلين بعوامل شتى من القلق والضـــيق والتبرم .. ولكنهم مع هذا لم يكونوا فى الواقع سوى « معتقلين مدللين » لا ترد لهم الحكومة طلبا ، ولا تحاول اذلالهم . بل كلما ازدادت طلباتهم ازدادت رغبة الحكومة في عمل المزيد لارضائهم كسبا لسكوتهم ، ومع هذا لم يكن المعتقلون راضين عن هـــذا كله . لأنهم كانوا يريدون حريتهم أولا وآخرا .

ومع هذا ، فان صاحبنا يذكر ما حدث بعد ذلك بسنوات طويلة ، وبعد أن قامت ثورة ١٩٥٢ بهدف تحرير الشعب واعادة ما سمى حقوقه المســلوبة ، فقد كان يســـمع القصص الكثيرة عما لقيه المعتلقون من الشيوعيين أو من الاخوان المسلمين أو من غيرهم ممن أغضبوا الثورة من صنوف العذاب والاذلال فكان يحس بأن معتقلى الزيتون كانوا وديعة فى أيدى رجال الأمن يسارعون لهم بالأطباء اذا مرضوا ، ويوفرون لهم الدواء بكميات كبيرة رغم ظروف الحرب ، حتى ان البعض منهم كان يتاجر فيه ، وكانوا يقدمون لهم احسن أنواع الطعام ويعاملونهم معاملة لم يكونوا يلقون مثلها فى بيوتهم الخاصة ، بل لقد بلغت العناية بهم حدها عندما وفرت وزارة الصحة عيادة كاملة لعلاج الاسنان بكل ما تحتاجه من آلات حديثة ، وكان الطبيب المختص يمضى عدة ساعات فى زيارة المعتقلين ليصـــلح لهم اسنانهم .

وكان ضـــباط البوليس يرافقون المعتقلين اثنـــاء ذهابهم الى المستشفيات للعلاج الخاص ، مثل الجلســـات الكهربائية لعلاج أمراض « يبتكرها » طبيب المعتقل كى يساعد بدوره المعتقلين فى الخروج من المعتقل لبضع ساعات . وكان هؤلاء الضباط على درجة كبيرة من الانسانية بحيث كانوا يتركون المعتقلين احرارا لمدة ساعات ثم يلتقون بعدها فى طريق العودة الى المعتقل . ولم يفكر واحد منهم فى الهرب أو الاخلال بوعده للضابط أن يعود الى مكان اللقـــاء .

تلك كانت العلاقة بين الحاكم والمعتقلين ، مع أن بعضهم كان معتقلا لأسباب ترتكز على العداء الشديد لرجال الحكم .

بل يذكر صاحبنا انه كان يجلس مغرب يوم من أيام المعتقل مع الضابط الأسمر فى حديقة المعتقل . وكانت المفاجأة عندما فتح باب المعتقل ودخلت سيارة بوليس تنطلق منها صرخات ألم . فوقف صاحبنا ومعه الضابط الأسمر واتجها مسرعين صوب السيارة ، فاذا بهما يفاجئان بضابط جيش من زملائهما فى المعتقل ، يعاد بالقوة من المستشفى بعد انتهاء علاجه ، لأنه كان يصر على البقـــاء بالمستشفى وقتا أطول يتيح له زيارات أكثر واجتماعا بأسرته يوميا .

وكان المنظر الذى اثار زميلى المعتقل ان الضابط كان يجلس على أرض السيارة من الداخل وقد وضع بعض الجنود اقدامهم فوق راسه ، فهاجما الجنود واسرع المعتقلون فى الاشـــتراك فى عملية الانقاذ والاحتجاج وكانت النتيجة أن بادر حراس المعتقـــل باطلاق الرصاص فى الهواء لاعادة النظام .

ولكن هذه الخطوة من جانب الحراس اثارت ثائرة المعتقلين ، واوجدت حالة من التمرد .. لم تلبث أن هدات عندما بادر رئيس البوليس السياسى وحكمدار العاصمة وكبار الضباط ومعهم قوة كبيرة من رجال الشرطة الى محاصرة المعتقل .. والدخـــول مع المعتقلين فى « عملية ارضاء » لا عملية تهديد .

وطالب المعتقلون بالتحقيق فى الأمر . فجاء وكيل النيابة الأستاذ انور احمد وقضى ليلة كاملة يحقق مع قوة المعتقل ومع المعتقلين .. يسأل ويتحرى ويحاول تطبيق القانون . كان قراره النهائى أن هناك « اهمالا رسميا » .

لم يواجه المعتقلون بحالة ارهاب أو تعذيب ، بل ان الحكومة سعت اليهم تسألهم عن الترضية التى تقدمها لهم ؟

كانت الحكومة تواجه صحافة تسأل وتدقق رغم فرض الرقابة العسكرية .

وكان هناك برلمان يسأل أعضاء مجلسه عن أسباب الاعتقال . وعن أسباب ما يجرى داخل المعتقلات .

ولهذا كانت الحكومة تخشى الحساب . وتحاول تجنب اية مواجهة . فليس معنى أن يعتقل بضعة أفراد حماية لأمن الدولة خلال الحرب أن يلقى أى معتقل ما يمس كرامته أو انسانيته . ومن هنا وعندما سئل فؤاد سراج الدين وزير الداخلية وقتذاك فى مجلس النواب عما حدث فى معتقل الزيتون قال — فى معرض الدفاع — ان المعتقلين لجأوا الى ارتكاب هذا الحادث لكى يقدموا مادة للاستاذ فكرى أباظة خلال مناقشة الاستجواب المحدد له موعد قريب بشأن الاعتقال والمعتقلين .

انذار للحاكم

وتمضى ايام واسابيع المعتقل هادئة ، ساكنة ، العلاقات بين المعتقلين بعضهم مع بعض تزداد ارتباطا وتوثقا ، وقد أضافوا الى نشيد « بلادى بلادى » الذى كانوا يرددونه مع العشاء نشيدا آخرا هو « أسلمى يا مصر » . وكثيرا ما كان ضباط المعتقل يشتركون معهم فى الغناء ، بل كان اذا احتاج معتقل للاتصال بمنزله تليفونيا سمحوا له .. شىء واحد كان يقلقهم بعض الشىء .. وان لم يقيموا له اى اعتبار . ذلك هو احساسهم بأن بين زملائهم المعتقلين من يعمل لحساب البوليس السياسى وانهم يكتبون التقارير عن نشاط المعتقلين واحاديثهم .. ولكن ماذا يهم ؟ .

وكانت الحكومة — فى نفس الوقت — حريصة على تهيئة الحياة الكريمة لكل معتقل من خصومها . يقرأ الصحف ويستمع الى الراديو ، ويعالج علاجا كاملا ، وتصرف له كل الأدوية التى يحتاج اليها ، كانت الحكومة تحس بمسئوليتها قبل هؤلاء المعتقلين واسرهم . لقد حرمتهم من حرياتهم ومن نشاطاتهم السياسية . ولكنها لم تكن تقبل على الاطلاق أن تحرمهم من آدميتهم او انسانيتهم. هذا الى جانب انها كانت تخشى مواجهة المعارضة فى مجلس البرلمان ، وكم من مرة ووجهت الحكومة بأسئلة تتعلق بالمعتقلين ، فكانت اجابات وزير الداخلية أن حسن معاملتهم مؤكدة ، وواضحة ..

ومع هذا لم تكن طلبات المعتقلين تقف عند حد ، كانوا يسعون الى أقصى التسهيلات . وفى ليلة من الليالى فكرت مجموعة منهم فى تدبير عملية هروب من المعتقل لتحقيق المزيد من المطالب ، ولعلهم ارادوا من ذلك ايضا اعطاء فرصة للمعارضة فى مجلس البرلمان للمطالبة بالافراج عنهم ..

ووقع الاختيار على ثلاثة : الضابط الأسمر والمحامى الشـــاب وثالث تطوع لأنه يحب المغامرات ، ورسمت الخطة بدقة واسندت عملية التنفيذ الى الضابط الطيار فبدأ أولا باقامة « تقفيصة » لتربية الدواجن الى جوار سور المعتقل . وتسهل فى نفس الوقت عملية حفر سرداب تحت السور ينطلق منه الثلاثة الى الأرض الفضاء بجوار المعتقل حيث تكون فى انتظارهم سيارة تقلهم الى مخبأ حتى صباح اليوم التالى ، ثم يتوجه الضابط والمحامى الى قصر عابدين لتسليم عريضة تتضمن مطالب المعتقلين . ويعود الجميـــع الى المعتقل بعد تنفيذ هذه العملية ليبرهنوا على أن الهدف منها لم يكن الهرب لشخصين أو ثلاثة بل انه أكبر من ذلك : الحرية .

واستغرق الأعداد التمهيدى للعملية فترة طويلة ، وقد تحددت لها ساعة الصفر ، وروعى فى تحديدها أن تحقق هدفا جانبيا وهو اتمامها فى ليلة يكون فيها ضابط غير محبوب من المعتقلين ، هو المكلف بالسهر ليتحمل وحده المسئولية وبذلك يتخلص منه المعتقلون .

وحققت العمليـــة أهدافها كلهـــا .. وتم الهرب بغاية الدقة والسهولة . وفى صباح اليوم التالى أذاع المعتقلون نبأ اختفـــاء الثلاثة ، فانتقل الى المعتقل كبار موظفى وزارة الداخلية ، والنيابة وبدأوا التحقيق عن كيفية الهرب ودوافعه ، ثم فى محاولة الوصول الى اتفاق مع المعتقلين على تحقيق ما يرضيهم ، وفى أثناء اجراء التحقيق ــ وقد استمر اليوم كله ــ عاد الهاربون .. وطلبوا بأنفسهم من حارس الباب أن يفتح لهم أبواب المعتقل .

وحققت خطة الهرب بعض أهدافها ــ وان لم تكن كلها ــ فخففت بعض ما كنا نسميه قيودا .. بل اعطيت الكثير من التسهيلات ، وتحقق الافراج عن الكثيرين ممن اعتبرتهم الحكومة غير خطرين ..

وهكذا كان المعتقلون يهربون دائما من دائرة السلبية أو الرضاء بواقعهم ، على اساس أن الحكومة قد هيأت لهم حياة طيبة . لقد كان سعيهم لتحقيق أمل الحياة الأكبر وهو الحرية ، لا يتوقف .. فليس يكفى أن يكون الفرد فى معتقل صغير او كبير ويتعلل بالصمت لعدم توفر امكانيات استمرار العمل والكفاح ، فالفرص متاحة فى

كل مكان .. والدفاع عن الحرية لا يمكن أن يتوقف فى اى ظرف أو تحت اية ضغوط ..

ويقضي المعتقلون امسية العودة من الهروب فى أحاديث هادئة .. عن عملية الهروب ذاتها ، عن الحياة فى القاهرة .. عن المناقشات العنيفة التى دارت فى مجلس النواب . عن الكتاب الأسود . كيف أن رئيس الحكومة ذهب الى المجلس فى احدى جلسات المناقشة ومعه حقيبة فتحها أمام الأعضاء وأخرج منها قطعة الفراء الصغيرة وقال للاعضاء « هذه يا حضرات القطعة التى أثاروا عليها ضجة » قالت المعارضة أن العبرة ليست بحجم القطعة ، ولكن أن تستغل أجهزة الدولة لخدمة قرينة الرئيس . وقد انتهت أيام المناقشات الطويلة بقرار من المجلس طرد فيه مكرم عبيد من عضويته واعتقلته الحكومة بعد ذلك لتضعه فى معتقل خاص بمدينة « السرو » .

وكان الحوار كله مركزا على ما يمكن أن يتحقق من نتائج بالغة الأهمية اذا ما ظل الرأى العام مستيقظا ومتيقظا لما يجرى حوله . تلك كانت المكاسب الكبرى .. وتلك كانت الحقائق التى لا تنكر .

كانت هناك معارضة تمثل الأقلية ، ولكنها كانت قادرة على مواجهة الحكومة . وكان كل ما يراد نشره فى الصحف ، يثار فى مجلسى البرلمان فترى الحكومة مضطرة لنشره .. وبهذا عاش الشعب كله مع الحقائق يتفاعل معها ويرفضها أو يقبلها ، ولكنه فى كل الحالات كان يعلم .. لأن من حقه أن يعلم .

وكان الضابط الأسمر رغمطول فترة اعتقاله يحس بسعادة كبرى وهو يرى هذا كله يجرى خارج أسوار المعتقل وكان الضيف وقد مضى على اعتقاله ما يقرب من العام ونصف العام يحس بأن « الفرج » على الأبواب .

وفى ليلة من ليالى اغسطس ، والضابط الأسمر يسير فى حديقة المعتقل مع زميله الضيف أطلق من داخل نفسه « تنهيدة قوية » ، ثم قال فى صوت خافت :

الضابط الأسمر : ان الأنباء التى عندى تؤكد أن الملك فاروق قد انغمس فى ملذاته الى درجة خطيرة ، ان مصر تسير الى هاوية سحيقة ، وانى أرى أمامى غيوما كثيرة تنــذر بعواصف وهزات ضخمة .

الضــيف : وليكن .. كلما اشتدت الأزمة ، لاحت بوادر انفراجها . اننا هنا فى المعتقل . حرياتنا مقيدة . ولكن قلوبنا عامرة بالايمـــان بأن مصر ستصل الى تحقيق أمانيهـــا فى طرد المستعمر وفى الحرية والنزاهة . ان المشكلة الكبرى هى انه كلما انتكست النزاهة تعقدت الأمور وساءت الأوضاع .. والحرية وقتذاك تصبح هدف كل حاكم مهما كانت نياته ومعتقداته . انه لا سبيل له اذ ذاك فى بقاء طويل الا اذا داس على الحرية وحرم الناس منها .

الضابط الأسمر : صح . فالحاكم النزيه هو الذى يحس بأنه ليس فى حاجة الى حماية نفسه من الشعب ، ان تصرفاته كلها تصبح كتابا مفتوحا للجميع على السواء من معارضيه أو من مؤيديه ، أما الحاكم الذى يستقل بالحكم لنفسه ولأنصاره فانه يقف موقف المدافع عن نفسه لأن تصرفاته لا تصلح بنفسها للدفاع عنه ، فهو لهذا يقضى على الحرية المتاحة للجميع .. ليخلو له الجو من أى معارضة .

الضــيف : ولكنه لا يلبث أن يســقط بعد ذلك مهمـــا تكن قوته او جبروته .

الضابط الأسمر : ربمـــا .. ولكن بعد أن تكون اساءاته قد ادخلت أوضاعنا الداخلية فى دوامة لا نعرف متى تتوقف عن التهام كل ما يصل اليها .

***

كان ذلك الحديث فى اغسطس عام ١٩٤٤ ...

وبعد ايام أطلق سراح الضيف . وخرج من المعتقل ليجد نفسه يعاود من جديد تحركاته واجتماعاته السياسية . فقد كان يحس

بأن تغييرا ما يوشك ان يتم .. ولكنه كان يشم رائحة الفساد منبعثة من القصر الملكى ويرى انها اقوى من رائحة الفساد الحزبى القديم .

كان يرى انه فى خلال فترة اعتقاله تكونت مراكز قوى جديدة فى القصر الملكى ، وان الصراع بينها وبين بعضها من جهة وبينها وبين الوزراء وغير الوزراء من جهة اخرى قد بلغ اشده ، كان يرى كل القوى تتصارع ، وتتصارع معها كل التيارات .. والشعب يتطلع الى هذا كله فى حيرة من أمره ومن مستقبله . لا يدرى أين يسير ، ولا الى اى مصير يصير .

تتطور الأمور وتسقط حكومة الوفد ، وتأتى احزاب الأقلية لتحكم .. تجرى الانتخابات .. ويعود الضيف المعتقل الى مقعد فى مجلس النواب ، وتزداد رؤيته لفساد النظام الحزبى . ويختلف مع مكرم عبيد ، كما اختلف مع النحاس باشا لأن مكرم عبيد كان يرى ان جهده فى محاربة حكومة الوفد لم يقدر تماما من جانب السراى . وانها لم تعد تؤيده ، ولهذا أراد — بعقليته الحزبية — ان يصالح النحاس باشا ، وبذلك يكون قد طعن النظام القائم والسراى معا ، وتناسى انه بذلك طعن نفسه ، لأنه بهذا التصالح قد أنكر كل كفاحه القديم ضد نزاهة الحكم .

وهو يذكر انه حاور مكرم عبيد طويلا فى قراره بمصالحة النحاس وسأله : هل كنا متجنين على الوفد ورئيسه عندما اتهمناهما فى كتاب أسود بالاساءة الى نزاهة الحكم ؟ ؟. وأجاب مكرم : « لا . بل مازلت متمسكا بكل ما قتله » وعاد يسأله : « ولكن بماذا تفسر موقفنا الجديد امام الراى العام وامام النحاس ؟ » وقال مكرم « المهم هو ان نضرب السراى والأحزاب الأخرى » فقال الضيف ولكن هذه الضربة موجهة الينا ايضا .. ولعل اكبر دليل على ذلك هو ان النحاس باشا رحب بهذه المصالحة . الا تحس ان هذا الترحيب غير صادر من القلب ، وانما هو ضربة معلم أخرى أراد بها النحاس ان يقول اننا « لحسنا » كل اتهام وجه اليه .. ولو ان الخطأ الذى ارتكبه النحاس باشا كان سياسيا لامكن نسيانه ، ولكن أما وهو خطأ يمس النزاهة والشرف .. فان نسيانه يعد خيانة للراى العام.

ولم يكن مكرم فى هذا الحوار ، هو المحامى المقنع .. بل كان مرامه ان ينتقــــم .

وكفر الضيف بالحياة الحزبية ، ولم يجد أمامه الا ان ينسحب منها. وأن يكرس كل جهده ووقته وقدراته فى العمل الصحفى المتحرر من قيود الحزبية ، كان يرى أن حياتنا الجديدة تحتاج الى تفكير جديد ، واتجاهات ليبرالية فيقال للمخطىء اخطأت وللمحسن احسنت ، وأن تكون رسالة كل مصلح النزاهة والحرية معا . أما الأمور السياسية فعلاجها هين واخطاؤها قابلة للاصلاح .

***

وقامت ثورة ٢٣ يوليو ، وكانت امنية أن تقوم حــــركة تقلب الأوضاع ، وتحقق دفعة حضارية مثالية الى الامام ولهذا ارتبط بها منذ البداية ارتباطا وثيقا ، لأنها كانت الأمل . ولكن الأحداث التى مرت بها الثورة أو أحدثتها عناصر اهل الثقة التى تشكلت منها حكومات الثورة قد جعلته يعود مرة أخرى الى سابق تحديه . فهو لم يكن يرضى بأن يتناقض مع نفسه .

واصطدم باتجاهاتها وأخطائها مرة ومرات . حتى وجد نفسه فى النهاية مبعدا عن مهنته الصحفية .. وقادته الظروف الطيبة الى العمل الجامعى ، يعلم الطلبة الأعلام .. والصحافة .

وكانت هذه التجربة ممتعة لأنها اعادته من جديد الى الارتباط بالشباب والأمل فى مستقبل احسن وكان صاحبنا يحس بأن الشباب يعيش فى دوامة من الخداع والتضليل فى ظل الشعارات الزائفة ، ولهذا اختار ان يعاود الحوار مع الشباب الباحث عن الحقيقة ، وأن ينطلق من هذا الحوار الى وضع الحقائق .. كل الحقائق أمامه وأن يدخل مع الشباب فى محاولة لايجاد البديل .

ويعترف ضيف المعتقل ان فترة طويلة مضت عليه دون ان تتـــاح له فرصة اجراء نوع من الحوار الذى يريده ويراه مؤديا الى هذا الهدف الى أن وقعت ثورة التصحيح فى ١٥ مايو ١٩٧١ .. وأفاق الشباب بعض الشىء من حقن التخدير التى كان يحقن بها طوال عهد حكمت فيه البلاد حكما بنى على التعذيب والاضطهاد والتشريد

والحرمان من لقمة العيش .. ولكن هذه التغطية لم تكن كافية ، لأن الشباب عاش حياته الأولى غارقا فى أمجاد على الورق ، وفى الخطب متصورا أن مصر قد وصلت الى قمة المجد .. وانها بذلك استعادت مكانتها الحقة ، وكان لهذا يرفض كل الروايات والقصص والوقائع التى تروى وتؤكد ما كان يحدث داخل أجهزة الحكم ، وكان يرفض بكل قوة أن يدخل فى حوار مع أحد اذا كان هذا الحوار يمس هذا النظام الذى يحبه ويؤمن به .

ووقعت الكارثة يوم ٥ يونيو ١٩٦٧ عندما استطاعت اسرائيل فى ست ساعات أن تدحر جيش مصر الذى كانوا يطلقون عليه اسم « أعظم قوة ضاربة فى شرق البحر الأبيض المتوسط » .

ورغم ما كان يذيعه العالم من وقائع عن هذه الهزيمة كان الشباب يصدق كل ما تقوله البلاغات المصرية التى كانت تؤكد ان جيشنا هو المنتصر .

وفى ليلة ٨ يونيو ١٩٦٧ بدأت أوراق الأمل تتساقط .. واحس الشباب المصرى أن شيئا ما قد حدث وأنه أصبح حائرا فى تفكيره .. حائرا وسط هذا الظلام الذى كان يخيم على مدن مصر وقراها .. فارتفع صياحه وصراخه وأحس بالخوف والرهبة والفزع والألم .. وبكى .

ولكنه لم يكن بكاء الاستسلام .. ولا كان بكاء الخوف من أن يكون ما سمعه عن انتصار العدو حقيقيا .. وأن يكون الجيش الوطنى القومى والذى كان اعداده هدفا من اهداف الثورة قد انهزم واندحر فى ستة أيام . ومسحت دموعه بعض آثار الغشاوة التى وضعت على الأعين ، وشعر بأن شيئا ما داخل نفسه يضغط عليها ويسأل : « هل حدث حقا ؟ » وكيف حدث ؟ ولماذا حدث ؟.

وقد خدعه بعض ما قيل فى ٩ يونيو وما بعد هذا اليوم ، ولكنه رغم هذا الخداع كان يحس ان هناك حقيقة ضائعة وان عليه أن يخرج وحده بحثا عن هذه الحقيقة .. لا يسمعها من القدامى اهل الخبرة .. ولا يسمعها من الحديثين اهل الثقة .. وفى اطار هذا

السعى نحو الحقيقة كان له عدة لقاءات مع استاذ الاعلام ضيف معتقل الزيتون ، وهى لقاءات أراد الاستاذ ان يحقق فيها الحوار الذى يسعى اليه . ولكنها كانت لقاءات صعبة قاسية فقد كان مطلوبا من الأستاذ أن يشق بأصابعه فى الصخر الذى بنى على عقول هذا الشباب قرابة خمسة عشر عاما ليحول بينهم وبين الخروج عن خط أطلق عليه خط الالتزام .

وكانت بداية الحوار بالنسبة للاستاذ صعبة أيضا لأنه كان يعرف ان الحقائق مرة ، وأن مواجهة الشباب بها دفعة واحدة ستزيد من تمزقه ومرارته ، ولأنه أيضا الى جانب ذلك يشعر بأن الشباب ــ فى سعيه نحو معرفة الحقيقة ــ كان يتمنى لو أنه خرج من هذا السعى بنتيجة واحدة تؤكد له أنه لم يكن مخدوعا ، وأن سنى حياته الأولى لم تذهب عبثا .. ومن أجل هذا ظل الأستاذ يتحين الفرصة .. ولا يفرضها .. كان من الضرورى أن يكون الشباب هو البادىء بالحديث .

وجاءت الفرصة واسعة وكبيرة ..

فقد كان طلبة كلية الأعلام بجامعة القاهرة يصدرون صحيفة أسبوعية باسم « صوت الجامعة » . وكان الطلاب يرونها فرصة للانطلاق بأفكارهم ، ولكن أستاذهم حرص على أن يقف الى جانبهم ويحتكر لنفسه مؤقتا ركن الرأى الذى يقدم تحت عنوان « رأى من داخل الجامعة » . وكان من الواضح أن بعض الطلبة لا يرضيهم ذلك .. ومن هنا فقد تفجر الحوار .. وبدأ النقاش الطويل .. وكان الهدف أن تعرف الحقائق وأن يبحث عن البديل .

القسم الثانى

الجزء الثانى
الحوار الأول

بين الرفض .. والفرض

لم يكن الأستاذ يتوقع أن يبدأ الحوار داخل مدرج السنة الثانية بكلية الأعلام ، ولكن هذا ما حدث . فقد كان معتادا أن يبدأ محاضرة بعد الظهر بمناقشة معملية تدور حول الأخطاء التى وقعت فيها « صوت الجامعة » فى عددها الأخير .

واستأذن أول طالب فى أن يستخدم « الميكرفون » فى توجيه نقده . ثم بدأ حديثه بقوله « بسم الله الرحمن الرحيم » .. فارتاح الأستاذ لهذه البداية ، لأنه كان يعرف أن بين الطلبة من فقد ثقته فى كل شىء ، وان البعض منهم قد انحرف بشدة نحو اليسار المتطرف لقلب الأوضاع ويحكم الالحاد والسخط فى كل تصرفاته ومن ثم طابت نفسه بهذا الطالب الذى أفتتح النقاش بكلام ينبع من قلب صادق ومخلص وأمين لا يخضع لاهواء مستوردة .

ومضى الطالب فى حديثه مع أستاذه بصوت قوى لا تردد فيه ، مستندا الى تعاليمه التى أكدها له فى محاضرته الأولى بالسنة الأولى وهى أن التزام الصراحة والصدق هو السبيل الوحيد الى ممارسة عمله الاعلامى السليم . وقد اكد له انه لكى يكون صحفيا ناجحا يجب الا يكون آلة فى يد أحد ، ولا يخضع لفكر أحد ، ولا ينافق أحدا ، ومن هذا الواقع حرض طلبته على الوقوف منه بشجاعة موقف المعارضة . بل لعله كان يشجعهم على ذلك ليتيح لهم فرصة التدريب على مواجهة من هم اكبر منهم . وتساءل الطالب فى أسلوب مهذب : « لماذا يظل رأى من داخل الجامعة والذى يحتل مكان الصدارة من الصفحة الأولى لصحيفتنا حكرا للاستاذ المحاضر وهو ليس من جيلنا . انه من الجيل السابق وهو قطعا لا يستطيع ، كما تعلمنا على مدى سنوات طويلة أن يعبر عن آمالنا وأمانينا ؟ » .

وضاق بعض الطلبة بهذا الرأى وهذه المواجهة وان كانت الأغلبية لم تفعل شيئا تأدبا ، ثم ساد الصمت قاعة المحاضرة بعض الوقت ، وابتسم الأستاذ ابتسامة يبدو منهـا انها ابتسامة الرضـا ، اذ يرى ثمرة من ثمرات توجيهه تظهر على الشجرة الخضراء ، وكيف يغضب لهذه المواجهة الصريحة وقد كان حريصا على أن يقول لطلبته دائما انكم قادرون على مواجهتى وقادرون على مخالفتى لأن ذلك يخلق منكم اعلاميين لا يخافون الا الله ؟

ولم يتكلم الأستاذ او يرد . بل ترك للطالب حرية المضى فى تفسير ما يراه من « رفض الجيل الحالى لكل ما يصدر من آراء الجيل السابق . . » وذلك خشية أن يؤدى تدخله الى ارتباك الطالب الصغير أو أن يفسر تدخله بأنه اغلاق لباب المناقشة أو الحوار . لقد جاءت الفرصة التى تحينها وهو يرى أن يظل الباب مفتوحا بلا قيود أو روابـط .

وعندما انتهى الطالب من توضيح وجهة نظره بمنتهى الحرية عاد الى مكانه فى المدرج ، بينما كان الأستاذ يقلب الأوراق التى أمامه . . ثم مضت عملية الدراسة بين دهشة الطلبة ، بلا توقف .

وعندما انتهت المحاضرة ، تباطأ الأستاذ فى الانصراف من قاعة الدرس ، لأنه كان يتوقع شيئا ، وقد تحقق هذا الشىء فعلا ، فان المجموعات التى تحب النقاش ، وتحب أن يظل الحوار حيا تجمعت حول الأستاذ متحفزة وراغبة فى أن تبدأ الكلام من حيث انتهى .

طالب : لمـاذا لم ترد على وجهة نظر زميلنا ، وقد مستك شخصيا ؟

الأستاذ : « ان النقطة التى أثارها زميلك خارجة نسبيا عن موضوع المحاضرة ، ثم انه استعمل حقه فى طرح مشكلة يحتاج الحوار حولها الى ساعات وساعات » .

الطالب : ولكن الم تر ان فى كلام زميلنا افـكارا جديرة بأن تطرح للمناقشة المعلية وهى من صميم عملنا ؟

الأستاذ : هذا سليم خاصة انها عرضت بأسلوب أعلامى على مستوى المسئولية .. ولكن هل صحيح أن الجيل القديم غير مسموح له بالتعامل أو التفاعل مع جيلكم ؟

الطالب : هناك فارق بين التعامل و « التفاعل » ، اننا نقبل التعامل اذا أحسسنا بأننا فى حاجة الى القاء نظرة على الماضى بعيده وقريبه أما التفاعل فاننا نرفضه .

الأستاذ : ان رفض التفاعل كلية تفكير عقيم وغير سليم ، قد يكون مقبولا أن يرفض الجيل الجديد اذابة شخصيته تماما فى جيل سابق له ، أو بمعنى آخر قد يكون مرفوضا — بل هو مرفوض حتما — ألا تكون لكم شخصيتكم المتطورة ، ولكن هل من الحكمة أن يقطع جيلكم كل الصلة مع تاريخ أمته ؟ وهل تفكرون انكم النتاج الطبيعى للجيل القديم . وربما الجيل الوسط بين القديم وجيلكم الحالى ؟ أم أنكم تريدون ان تكونوا جيلا غير شرعى ؟

الطالب : واذا كان الجيل القديم مليئا بالسيئات ، والاستسلام والخضوع لمستعمر او لاقطاعى أو ..

الأستاذ : وكيف حكمت على الجيل القديم بهذا الحكم القاسى ؟ هل بحثت ؟ هل قرأت ؟ هل تعمقت فى السؤال والاستقصاء ؟ أم رضيتم بهذا الذى قيل لكم ، وشحنت به عقولكم ، ثم انك اذا قبلت قطع كل صلة بماضيك فكيف تحكم عليه حكما سليما ، وكيف تقبل حكمك عليه اذا قطعت صلتك به فلم تعرفه أو تنقب فى تاريخه ؟ ثم هل خلا هذا الجيل من حسنات يصح التمسك بها وسيئات تدرس للابتعاد عنها ، وتجنب الوقوع فيها مرة أخرى ، أم يراد أن يمضى الجيل الجديد غارقا فى بحر التجربة والخطأ بلا قيادة منزهة عن الغرض أو علامات مضيئة على الطريق ؟

الطالب : وهل تمضى الأجيال بلا وقوع فى الأخطاء ؟

الأستاذ : هذا صحيح ، ولكن اذا كرر جيل نفس الأخطاء التى وقع فيها الجيل الذى سبقه ، ثم مضى فيما اطلق عليه تجربة « الصواب والخطأ » يحمل ما هو فوق طاقته ويرغم على الدخول فى دائرة الحرمان والهبوط الى ادنى مستوى من الكرامة الانسانية .. اذا تكرر هذا فهل يمكن أن نعتبر ذلك مما يدخل فى نطاق تجربة الصواب والخطأ أم نعتبره حالة من الاستهتار تتطلب الحساب ، وتتطلب توقيع الجزاء ؟

ثم اذا افترضنا ان الوضع لا يسمح باجراء عمليات محاسبة ؟ افلا يصح — على الأقل — أن يكون جيلنا الحالى أكثر شجاعة فى اجراء عملية تقييم سريعة — ان شئتم — حتى يكون البناء الجديد محصنا ضد تكرار الخطأ ؟ .

الطالب : ان الجيل الذى نرفضه قد عودنا على فرض رأيه ، ومن هنا فاننا نرفض أن يعرض علينا رأيه فى تفسير ما هو خطأ وما هو صواب .

الأستاذ : ان من حق كل جيل أن يرفض التفسير الذى لا يقنعه ، ثم لكى تكون محقا تماما فى رفضك .. فان عليك أولا أن تتسلح بنتائج بحث عميق ، وعميق جدا فى أسباب ومسببات أخطاء الماضى .. وذلك لكى يكون رفضك قائما على حجج ترضيك وتجعل رفضك مقنعا للاخرين .

الطالب : ولكن من يضمن لنا الا نقع فى مصيدة لا نستطيع الفرار منها ؟

الأستاذ : هو ان تدرس جيلنا بكل ما كان فيه من أخطاء جسيمة ، وهذا هو ضمانك كى تكون قويا قادرا على تحطيم المصيدة والهرب منها الى الحقيقة ، وما دام هدفك هو الوصول الى أعماق هذه الحقيقة ، فان عزيمتك وقدراتك

على تحمل مصاعب التحديات ستقودك حتما الى اهدافك مهما طال الوقت وامتد الكفاح .

الطالب : أى انك لا تضمن عدم دخولنا المصيدة ؟

الأستاذ : ولماذا تطالبنى بضمان ؟ بل ما هى قيمتك اذا كنت تريد الحياة سهلة لا كفاح فيها .. ان متعة الحيـــاة هى فى الكفاح ، فهو الذى يصقل الرجال ويرفعهم الى مستوى المسئولية . ان الرفض هو علامة الصحة والحياة بشرط أن تكون قاعدة هذا الرفض : العلم والمعرفة ، وهـــذه القاعدة لن تصلح اذا بنيت على خطأ قديم ، وذلك لا يتوافر الا اذا اصطدمت بالجيل الذى سبقك وواجهته مواجهة شجاعة فتأخذ منه ما يقنعك وترفض قبول ما تراه سيئا .

ان التجربة الأولى يجب أن تكون محصورة فى هـــذه المواجهة ، تأخذ منها ما تشاء وترفض منها ما تشاء ثم تمضي الي المستقبل تبنيه لنفسك على « أساس نظيف » وتعدل خطوط الماضى المتشابكة كى تمضى بالخطوط الجديدة بأقل قدر من التشابك والعثرات .

الطالب : هذه فلسفة يراد بها التخدير .

الأستاذ : وجيلكم أيضا يجب أن تكون له فلسفة ، وغاية النجاح أن تمزج الفلسفات بعضها ببعض لتستخلص منها فلسفتك الخاصة ، واذا رفضتم هذا أيضا فلا تلوموا الا أنفسكم اذا فشل جيلكم الجديد نتيجـــة لأنه رفض أن يكون له استقلاله الذاتى . لقد آن لكم أن تستقلوا بالرأى .

* * *

وانتهى اللقاء الأول بلا نتيجة ولم يشأ الأستاذ ان يترك الحوار يمتد طويلا ، هكذا كانت رغبته ولكن الواقع كان يقول غير ذلك ، فان الطلاب الذين استمعوا الى هذا الحوار كانوا قد بدأوا الى

حد ما فى التحرر من الكابوس الضاغط على انفسهم ، كابوس عدم الثقة بأحد من الذين ساهموا فى صنع الماضى البعيد والقريب معا هذا الكابوس الذى جثم على صدورهم منذ كارثة ٥ يونيو ١٩٦٧ وجعلهم اشبه بالتائهين فى صحراء مترامية الاطراف يحيم عليها الظلام ، وتسودها الوحشة القاتلة ، ويكاد ذلك يقضى على كل امل فى قيام غد مضىء . صحراء يتردد فيها بين وقت وآخر نداء « قف .. من أنت ؟ » فيرجعه الصدى .. ولكن بلا جواب .

هل كان الشباب يرفض المواجهة خوفا من الحقيقة ؟ أم أنه كان وما زال مؤمنا بأنه لا خير فى الجميع ؟ .

الحوار الثاني

من أين يبدأ الماضي؟

ومع أن الأستاذ لم يكن حريصا على ممارسة عملية الضغط على طلبته فى مواصلة الحوار ، وعلى الرغم أنه لم يرتبط بموعد معهم ، ومع انه كان متعبا منهكا بعد كلام طويل استمر فى المدرج .. الا أنه لاحظ فى اليوم التالى ما بعث فى نفسه نوعا من السرور للتغيير الذى طرأ على تفكيرهم ، فقد بدأوا يتجمعون حوله يريدون مواصلة الحوار وفتح باب المناقشة من جديد وكان ذلك دلالة على تحررهم البطىء من عقدة الخوف من الرجوع الى الوراء أو مواجهة الماضى مواجهة مكشوفة .

وأراد الأستاذ التظاهر بعدم الرغبة فى الكلام ، ولكن الأشقياء كانوا يعرفون أنه لا يرد لهم طلبا ولا يتردد فى الدخول معهم فى نقاش مهما يكن شائكا ، ومهما يكن شعوره بالتعب والارهاق .

وقد كانوا البادئين فى الحديث باثارة ما شعروا به من قلق وتردد وعدم فهم بعد حوارهم الأول . ويسأل الأستاذ : هل هناك ما يبرر هذا القلق أو التردد ؟

طالب : نعم . فنحن نعيش هذه الأيام فى صراع مستمر مع ماتسمونه الماضى القريب ، بينما لا نتكلم عن حاضرنا القائم الذى يقودنا الى المستقبل .

الأستاذ : — (متحديا) — لقد قلت من قبل انى غير مستعد للدخول فى حوار حول الحاضر والمستقبل معا ما لم تكونوا على استعداد لتحديد الماضى ، ان اصراركم على التهرب من مواجهة هذا الماضى وقد صنعتم جزءا منه ، يعنى انكم تصرون على الفرار من مواجهة واقع قد يكون بعضه اليما اذا اكتشفتم حقيقة اللعبة التى عشتم فيها وصفقتم

لها . انى ما زلت أقول — ولن أتنازل عن رأيى — ان الماضى هو الذى يحدد خطوات الحاضر والمستقبل وما عدا هذا فهو كلام فارغ .

طالب : الى هذا الحد تتمسك برأيك وتتحدى به .. أو ليس الكلام عن الماضى هو اضاعة للوقت . أو ليس معنى ذلك أن تتناسى الرغبة الملحة علينا فى بناء الحاضر والتطلع الى مستقبل أحسن . ومع هذا فما هو الماضى . أو بمعنى آخر هل لنا أن نعرف هذا الماضى الذى تريدنا أن نتكلم عنه؟

الأستاذ : هذا سؤال جديد ، ثم هو أيضا سؤال هام . ان الماضى الذى أريد أن نتكلم عنه هو الماضى الذى سبق ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، والماضى الذى سبق ١٥ مايو ١٩٧١ انهما تاريخان هامان فى حياتنا ، أو بمعنى أصح فى حاضرنا ومستقبلنا ، لقد درستم فى المدارس تاريخا يراه البعض مزيفا ، ويراه البعض مبتورا ، ويراه آخرون تاريخا مصنوعا اسقط الكثير من الوقائع الثابتة التى يجب أن تصان وأبقى لدراستكم سيئات الماضى فقط وذلك لكى يصور لكم ماضى بلادكم تصويرا مخزيا قاتما أليما ويبرر كل خطوة انتقامية تتخذها الثورة ضد الذين صنعوا هذا الجانب الأسود من التاريخ ، لقد أرادوا أن يكون ٢٣ يوليو بداية التاريخ الناصع المشرف .. أو بداية مولد مصر .. فهل كان ذلك صحيحا ؟ هل عاشت مصر مئات السنين ، بل لنقل عشرات السنين قبل الثورة بلا وطنية وبلا مقاومة للمحتل ، وبلا دوافع وثورات شعبية ضد الطغيان وحكم الفرد ، بل هل كانت « الأسرة المالكة » تحكم بلا رقابة شعبية وبلا قيود دستورية ؟ وبلا نقد لكل تصرف من تصرفاتها ؟ وهل كانت مصر غارقة فى الجهل والمرض والفاقة والرشوة والفساد بلا محاولات جادة لنهضة اجتماعية ، وبلا مدارس أو جامعات وبلا صحافة تثور اذا مست حرية الفرد أو حرية المجموع ، أو قيادة حملات صحفية ضاربة كل نوع من أنواع الفساد .. أو بمعنى أعم هل كان الشعب المصرى ضائعا وجاءت الثورة لتحقق له ميلادا جديدا ؟

هذا هو جانب الماضى السابق للثورة الذى يجب أن يدرس ويقيم وتتحدد معالم ايجابياته .. ومعالم سلبياته ، — وهى كثيرة بلا شك — ليعتبر هذا التحديد الخطوة الأولى نحو دراسة ما فعلته الثورة فى الفترة ما بين التاريخين ١٩٥٢ و ١٩٧١ فنستكمل بذلك احتواء ماضينا بشقيه البعيد والقريب ، ومن خلاصة البحث يتحدد برنامج « ثورتنا الشعبية » الجديدة ، الثورة التىترسمون خطوطها وتتحملون مسئوليتها .

طالب : وفى خلال ذلك نترك الزمن يمضى بلا حساب .. لاننا مشغولون عنه بالبحث والتنقيب حتى تتراكم أخطاء ويتولد عائق جديد .

الأستاذ : (**مقاطعا**) ان الحاضر غارق الآن فى معالجة مخلفات الماضى بخطة أحيانا وبغير خطة أحيانا أخرى ، وهو سيظل غارقا الى أن تخرج عليه أنت ببرنامج من صنع وتفكير جيل الحاضر .. ان من مصلحتكم ألا تندفعوا فى محاسبة الماضى من نقطة « فراغ » فان هذا الاندفاع سيؤدى حتما الى أن تصدموا مرة أخرى « بخيبة أمل » يجعل المستقبل أشد ظلاما ، وليس هناك أى خطورة من ترك الماضى — مؤقتا — بلا حساب وهو مهما ارتكب من أخطاء ، فلن تكون فى جسامة أخطاء الحاضر هذا الى أن الأخطاء التى يقع فيها الحاضر حاليا ستفرض عليكم قرارا لابد منه هو : هل يحتاج المستقبل الى تغيير جذرى فى أوضاعنا الداخلية ؟ هل نحتاج الى نظام سياسى آخر غير نظام الحزب الواحد ؟ هل يمكن أن يكون رجال الحاضر والمستقبل ممن اسهموا ولو بقسط غير محسوس فى أخطاء الماضى ؟ .. أسئلة كثيرة تجعلك تقول : اذن دعوا الحاضر يفعل ما يشاء — مؤقتا — فان أعماله ستساعد على أن تكون نظرتكم الى المستقبل أكثر اتساعا وأعمق نضوجا .

طالبة : انى أرى فى هذا الكلام منطقا لا يصح التهرب من مواجهته

والتسليم بوجاهته .. ولكن هل يحتاج هذا البحث الذى تقترحه الى وقت طويل ؟ .

الأستاذ : مهمـــا يكن وقت البحث طويلا فان ذلك يعنى ان بنـــاء القاعدة سيكون من القوة بحيث يحتمل انبناء اى رد فعل متوقع .

طالب : رد فعل .. ماذا تعنى بذلك ؟

الأستاذ : كل اصلاح يواجهه المجتمع لابد أن يقابل برد فعـــل ، والاصلاح الذى ستحددون معالمه ، ســـيكون هدفا من اهداف الطبقة الجديدة التى استفادت من كل أخطـــاء الماضى .. ولا تسألنى عن هذه الطبقة الجديدة الان .. فانك ستصطدم بها خلال بحثك وتعمقك فى هذا البحث .. وستلمس من أعمالها اننا عشنا اشتراكية لحساب قلة .. بينما دفعت الكثرة ثمن الحياة ..

طالبة : انى أستطيع أن افهم ماذا تعنى .. وان كنت أراك تحاول أن تؤثر علينا بحكم مسبق .

الأستاذ : الان وقد وصلنا الى مشارف الطريق .. نؤجل حوارنا الى جلسة مقبلة .. ولتكن غدا ..

طالبة : بشرط أن تتابع الكلام فى هذه النقطة .. انى أشعر انه لابد من اجماع فى الرأى على محاسبة الماضى قبل أن نمضى فى الحديث .. ثم اننا لا نريد منك أن تؤثر علينا باصدار حكم مسبق . اننا نفخر بتاريخنا الذى ولدنا فيه وعشنا له . ولن يستطيع انسان أن يؤثر على ايجابياته بأى مؤثر . حرام أن تفعلوا ذلك بنا .

الأستاذ : انى اعدك بأن اتكلم معكم بأمانة الصديق ، واذا وجدت فى كلامى ما يشتم منه التسرع فى الحكم فأرجو تنبيهى الى ذلك .. ؟

الحوار الثالث

هل نحن فى حاجة الى ثورة ثالثة

كان الأستاذ يحس فى هذا اليوم انه يوشك على تحقيق نوع من الاتفاق بينه وبين طلبته على مناقشة الماضى بشقيه قبل الاقدام على مواجهة الحاضر ورسم خطوط الثورة الشعبية الجديدة .. ولكنه شعر بوجود بعض الوجوه الغريبة ، لاحظ انها تريد أن تعيد فتح أبواب هذا الحوار من جديد ، وكان يحس ان هذه العناصر ذات ميول عقائدية لا تريد أن يمس الماضى ، لا لأنها حريصة عليه وانما لأنها تعارض الحاضر واتجاهاته المعتدلة نسبيا .. ومن هذا الاحساس رأى أن يكون هو البادىء بالهجوم فى محاولة تقفل الأبواب .

الأستاذ مبتسما : ان الدخــول الى قاعة المحاضرة بعد بدايتهـا لا يقتضى أن يعيد المحاضر ما سبق أن بدأ به درسه ، ومع ان هناك فارقا بين قاعة المحاضرة ، وحلقة الحوار الا أنه لا بأس من تلخيص ما انتهينا اليه فى جلستين سابقتين ، لعل ذلك يريح الذين يريدون اعادة فتح أبواب الحوار من جديد .

لقد اتفقنا على انه لكى يبنى شباب الحاضر ثورته من أجل المستقبل فان النقطة الأساسية أو نقطة البداية التى سنقف عندها ــ لبعض الوقت ــ ستسمح لنا بفتح ملفات الماضى ، تدرسها وندقق فيها ونحدد مسئولياتها ، ثم ننطلق متفتحين عقولا وقلوبا من نقطة اللافراغ .. الى مستقبل أحسن .

طالبة : لقد ألمحت فى حوارك السابق الى معنيين جديدين ، أولهما ما أسميته « الطبقة الجديدة » والثانى أطلقت عليه الثورة الثالثة . فهل تسمح بتفسير ما تعنيه ؟

الأستاذ : لقد قامت ثورة ٢٣ يوليو للقضاء على أشياء كثيرة ، منها ما سمى طبقة الاقطاع ، اذ كان قائما بشكل مرعب ، وكان لابد من ازالته .. فهل ازيل فعلا ؟ أم حلت محله طبقة جديدة قد لا تكون فى حجم طبقة الاقطاع القديمة ، ولكنها بالنسبة للمجتمع الجديد طبقة موجودة أطلق عليها اسم « الاشتراكيين الأثرياء » وهذه هى الطبقة الجديدة التى لا ارى البدء بفتح ملفها الضخم بل يتحتم أن نرجع خطوات أخرى الى الوراء حيث نقف عند نقطة ارتكاز نعود بها الى ما سبقها ، ونمضى منها الى ما تلاها ، وهذه النقطة يحددها التاريخ ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

لقد كان بيان الثورة الأول فى صباح ذلك اليوم مقتضبا وقصيرا أو بمعنى آخر كان البرنامج الذى ارتبطت به أمام الجماهير محددا فى نقط قليلة مست الشعور العام اذ المحت الى انها تنوى القضاء على الفساد فى الحكم وفى الجيش ولم يكن واضحا أن هناك برنامجا مدروسا أو أهدافا اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية بعيدة المدى تنوى الثورة المضى فى تحقيقها . ولم يهتم الناس كثيرا بالتساؤل أو بالبحث وراء دوافع هذه الثورة ، لأن الشعب كان قد ضاق ذرعا بالفساد الذى ساد الحكم . وبتحكم طبقة صغيرة من رجال السراى فى تسيير الأمور وبتغيير الوزارات واسناد الحكم الى احزاب الأقلية ، ولهذا كان يتطلع الى حكم أحسن والى استقرار يعيد اليه الاطمئنان فى طهارة أداته الحكومية ، وقد ظن — وتأكد — ان الجيش قادر على أن يحقق له هذه الأمنية .

ولست اريد ان اطرح ما تردد من أن الثورة فيما بعد لم تكن من صنع المصرى وحده بل كانت هناك عوامل اجنبية مهدت لها وساعدتها ، وهيأت لها الجو المناسب كى تنجح . فان هذا يحتاج اثباته الى ادلة تؤكد صحة ما كتب فى الخارج ، وما اكده بعض الأجانب الذين ادعوا انهم اسهموا فى صنع ثورة ٢٣ يوليو . وهذا فى تصورى لا يؤثر على مجرى النقاش الذى يدور بيننا حاليا وان

كنت لن استبعده تماما اذا اصطدم نقاشنا ببعض الدوافع والتحديات التى أخرجت الثـورة عن أهداف مسـيرتها الكبرى فى حكمها الداخلى .

المهم هو ان الثورة وجدت نفسها فيما بين ٢٣ يوليو و ٢٦ يوليو من نفس العام ، وقد أصبحت المسئولة تماما عن حكم مصر ، بعد أن غادرها الملك فاروق وتنازل عن العرش لابنه أحمد فؤاد ، ونكون مجلس وصاية ، لم يلبث ان ذهب هو الآخر لتتحول مصر الى جمهورية .

وفى خلال هذه الفترة كانت الثورة تحاول أن تحـدد لنفسها برنامجا تلتزم به أمام الشعب ، وفى تصورى ان كل برنامج ثورى يزدحم عادة بالأمانى والآمال الكبار ، لتكسب به الثورة قلوب الشعب وتجذبه الى تأييدها ، هكذا تفعل كل ثورة ، وهكذا يقف الشعب دائما وراء ثورته فى بدايتها .. ثم يتداعى هذا التأييد أو يتدعم تبعا لمـا يلمسه الشعب من نتائج سلبية وايجابية .

وثورة ٢٣ يوليو جاءت لترسى قواعد الحرية والعدالة والاطمئنان الى المستقبل ، والاسـتقرار الداخلى المدعم بعلاقات خارجية محايدة ، ثم تطورت بعد ذلك الى ثورة اشـتراكية تدعو الى « الكفاية والعدل » وقد عاشت الجماهير على مدار السنوات الأولى للثورة فى « أحلام » وفى تجارب أطلقت عليها اسم « الخطأ والصواب » بمعنى ان الخطأ لا يعنى الفشل وانما الخطـأ هو الطريق الى الصواب .. وانه لا بأس من أن يقع الخطأ ، ولكن على أن يستمد منه الصواب ..

وكانت الوعود المبذولة للشعب ترتكز على شعار ان الحرية للجميع .. ثم تطور الشعار فصار : لا حـرية لأعداء الشعب .. ومع استمرار تجارب الخطأ والصواب وتمزق مجلس قيادة الثورة ، وانتقال السلطة الى يد فرد واحد تقف الى جانبه طبقة جديدة من الضباط وغير الضباط

الذين لم يكن لهم علاقة بالمجموعة الأصلية التى قادت الثورة وعرفت باسم « الضباط الأحرار » .. مع كل هذا التطور دخلت الثورة فى مرحلة جديدة هى مرحلة شعارات دعائية .. لم يقصد بها الا تخدير الشعب واقناعه بأنه يجتاز فترات بناء تتطلب تضحيات على مختلف المستويات ، ومن هذا الموقع دخلت مصر فى حروب متعددة وخضعت لشعار ضخم ظل يسيطر على الشعب مدة طويلة وهو « لا صوت يعلو فوق صوت المعركة » ومن هذا الشعار ادخل الشعب فى معارك لا نهاية لها .. وصورت نتائج هذه المعارك على انها انتصارات ضخمة . واذا كان الشعب لا يحس بآثارها وقتها فانها قادمة فعلا .. حتى وقعت الكارثة الكبرى — كارثة — ٥ يونيو ١٩٦٧ وكشفت الغطاء عن حقيقة الشعارات وعرف الشعب لأول مرة أن ما كان تحت الغطاء هو العفن الذى يزكم الأنوف .

ولعل اهم سؤال نسأله الآن .. هو ما الذى أدى الى اخفاء كل هذه الحقائق والوقائع ؟ اين كانت الصحافة ؟ اين كان الذين يعرفون الحقائق ولماذا لم يتكلموا .. هل كانت هناك قوى خفية تمنعهم من مواجهة الشعب بالحقائق ؟ .. أسئلة كثيرة هى التى نريد طرحها بلا ترتيب ، وبلا ارتباط بالتواريخ ، وانما هى وقائع وحالات ادت الى ان عاش الشعب فى ظلام فى أمر من أموره .. او بمعنى اصح وقائع تؤكد ان الثورة التى قامت فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ لتصلح الفساد قد ضاعفت من هذا الفساد ، وحولت الرجال الى اشباه رجال ، ولجأت فى سبيل ذلك الى وسائل لم تشهدها مصر من قبل ، حتى كان الأخ يخشى أن يتكلم امام اخيه ، وانتشر الرعب فى النفوس ، تحول الشعب الى اداة جامدة لا تفكر لأن غيرها يفكر لها ، أو لأنها اذا فكرت جر عليها تفكيرها كل وسائل العنف والتشرد .

لقد كانت لقمة العيش هى الأداة التى لعبت دورا كبيرا فى تحديد المصير .

طالبة : لقمة العيش ؟ وماذا يعنى ذلك ؟

الأستاذ : ان لقمة العيش كانت هى الركيزة الأساسية فى وسيلة التعامل مع الجماهير . ولكى افسرها لكم تفسيرا مستمدا من الواقع اروى لكم الواقعة التالية :

فى أعقاب حرب اكتوبر ١٩٥٦ اى بعد العدوان الثلاثى على مصر الذى اشتركت فيه بريطانيا وفرنسا واسرائيل بعد تأميم قناة السويس واوقفته الولايات المتحدة الأمريكية ثم الاتحاد السوفيتي .. كنت ذات مساء أزور الرئيس جمال عبد الناصر فى منزله بمنشية البكري ، وكان اذ ذاك يجتاز المرحلة الأولى من مراحل الثورة ، أو بمعنى آخر كان يودع شخصية الثائر ، ويستقبل شخصية السياسى الذى قرر فيها بينه وبين نفسه أن ينفرد بالحكم ، وان ينطلق فى سياسة جديدة .

وكنت وقتذاك واحدا من القلائل الذين يرتاح اليهم ، ويحاول فى نفس الوقت تطويعهم واخضاعهم لأفكاره واتجاهاته . فى تلك الليلة حاولت أن الخص له احساسى بما سيكون عليه الموقف السياسى فى المستقبل فقلت أن مصر ستواجه ضغطا اقتصاديا أو حصارا اقتصاديا وان علينا أن نستعد لذلك .

ونظر الى بعض الوقت وقال معلقا على رأيى : « أن هذا الحصار لن يؤثر علينا اطلاقا . لأن الشعب المصرى ينقسم الى ثلاث فئات ، الفئة الكبيرة التى تعيش على الجبن والبتاو وقطعة البصل والفئة الأخرى هى فئة نادى الجزيرة (ويعنى بها فئة الارستقراطية) وهؤلاء استطيع جمعهم فى معسكر بالصحراء تحيط به الأسلاك الشائكة ويظلون هناك الى أن اشاء .. أما الفئة الثالثة فهذه أستطيع امساكها من لقمة العيش .. » وكان يعنى بذلك التحكم فى زرقها وما لها وفى دخلها .

وكانت هذه أول مرة استمع فيهــا الى هذا السلاح الجديد .. سلاح لقمة العيش ولا أظن أن هذا التفكير او هذا التخطيط الشعبى طرأ عليه فجأة ، بل من المؤكد أنه فكر فيه من قبل ، وانه قد اتخذ قرارا بأن يحول مصر الى مزرعة تدار لحســاب الاقطاع الثورى الفردى ، بحيث يصبح كل فرد فى هذه المزرعة ملكا له . فاما أن يخضع له ولأفكاره واما ان يحرم لقمة العيش حتى يخضع أو يموت ذليلا .

الطالبـــة : هكذا تحاول أن تؤثر علينـــا بحـــكم مسبق .

الأستاذ : ليس هذا حكما مسبقا بل هى وقائع تروى ، لقد أحسست تلك الليلة انى أمام شخصية جديدة وأمام تطور فكرى زعامى يوشك ان يسيطر على مصائر الناس ، او الشعب ، ولم اكن اتصور فى تلك الليلة ان الرئيس جاد فى تفكيره اوانه يعنى مايقول فعلا ، لان هذا الكلام كان يبدو متعارضا مع كل ما كان يحاول اقناعنا به فى السنوات الاولى للثورة .

وتركته تلك الليلة وأنا لا أكاد أصدق ما سمعت ، ولكن تطورات الاحداث فيما بعد اثبتت انه كان جادا فيما قاله لى فى تلك الليلة السوداء ، بل اكدت لى ان عدوان ١٩٥٦ لم يكن السبب المباشر لهذا التفكير الجديد وقد استعدت كثيرا من الاحاديث التى كانت تدور بينى وبينه وبدأت ادرك ان هـــذا التخطيط لم يكن حديثا ، بل انه تفكير قديم .. وعدت بذاكرتى الى حديث ليلة أخرى من ليالى لقائه ، وتذكرت وهو يشير الى كراسة ذات جلد اســـود ويقول لى : لو انى نفذت كل ما سطرته فى تلك الكراسة لا نطبقت الأرض على من فيها .

طالب : هل قال لك ذلك ؟

الاستاذ : ان كل كلمة اذكرها لكم فى هذا الحوار قد وقعت فعلا ولست فى حاجة الى ان ادلل لكم على صحة ما اقول .

لأن ما وقع بعد ذلك من احداث يؤكد أن هذه الاتجاهات لم تكن حديثة او وليدة حالات جديدة دفعته اليها . بل كانت وليدة جلسات « وحدة » كان يجلس فيها وحيدا وامامه هذه الكراسة السوداء ، وكان يرسم ويخطط : كيف يحكم مصر داخليا .. ويمتد حكمه الى ما وراء حدود بلاده .

وانى لأعود بالذاكرة الى الفترة التى كلفت فيها بتأسيس وكالة انباء مصرية وطنية .. فاذكر انى كنت أعرض عليه خطة العمل خلال السنوات الخمس الأولى وقلت له أن هدفى أن ابدا نشاط الوكالة فى المنطقة العربية ، ثم امتد بها الى الدول الافريقية الكبرى . فنظر الى مبتسما وقال « خليك من افريقيا الآن .. أن دورها لن يأتى بسرعة » ..

وقد فهمت وقتذاك أن الدور الذى يعنيه هو الدور الصحفى ، ثم أظهر الواقع أنه كان يعنى الدور السياسى أو بمعنى آخر الفزو السياسى لأفريقيا ، المهم أنه بدأ بالفعل بعد جلاء قوات عدوان ١٩٥٦ فى اعداد مجموعات خاصة من كافة التخصصات لتكون أداته الجديدة فى تنفيذ مخططاته ، ولتكون هذه المجموعات قادرة على أن تمسك الجبهة الداخلية بيد من حديد بينما اليد العليا تمسك بالسلاح الأكبر « سلاح لقمة العيش » .

ولست انكر انى احسست بأنه كان يعدنى بأن اكون واحدا من العاملين فى هذه المجموعات . ولكنى فى نفس الوقت كنت أقاوم هذا الاتجاه بمناقشته فى آرائه وذلك جعله فى النهاية يسقطنى من اعتباره ويقذف بى الى الشارع ــ بلا لقمة عيش ــ وذلك فى أول يناير ١٩٦١

هذه المجموعات التى شكلها لعبت دورها فى الصحافة وفى السياسة ، وفى المخابرات ، وفى التعذيب وفى

الحراسات ، وفى ابعـــاد الكفاءات ، وتكوين ما سمى اذ ذاك بفريق « أهل الثقة » وتفضيلهم على اهل الخبرة او بمعنى اوضح بدات هذه المجموعات تشكل الشعب المصرى بالشكل الواحـــد اما عن طريق القوة وأما عن طريق الاغراء ، واما عن طريق فتح ابواب الثراء .. وبدات العقول المصرية تهرب الى الخـــــارج وفضـــل البعض الآخر ان يختـــار السلبية او على الأصح أن يختار لقمة العيش فى الظل بعيدا عن الأضواء ..

وبدات الكفاءات المصرية تتضاءل وتنكمش لتحل محلها العقول التى لا تفكر .. ولا تعرف الا أن تقول نعم .

طالب : هذه صورة قاتمة ، لا تقبلها كما هى ، فأنت هنـــا طرف نزاع ، وباعترافك قد اختلفت فى الرأى معه ولهذا فكلامك يحتاج الى تدليل — واعذرنى اذا قلت لك ذلك — وما دمنا قد اتفقنا على أن نفتح كل الملفات .. فأولى أن ندخل من باب التعميم الى التحديد والتدليل .

الأستاذ : ان كلامك معقول تماما . ولابد لنـــا من اختيار حالات من بعض وقائعها ، وعليكم أن تحكموا هل كانت هذه الوقائع ايجابيات أم سلبيات ؟ هل أثرت على التكوين العـــام لكيان الشعب الى الأبد أم أنهـــا ساعدت على أن تخلق وعيا عاما له القول الفصـــل فى كل الحـــالات الكبيرة التى يتوقف عليهـــا مصير الشعب أو أنهـــا ظلت حكرا لجمـــاعة أو لقلة .. أطلق عليها فيما بعد اسم « مراكز القوى » تتخذ القرارات وتدفع مصر الى مغامرة وراء مغامرة دون أن تنجح واحدة منها أو تحقق عائدا قوميا أو وطنيـــا أو ماديا .

طالب : فى تصـــورى أن الصحافة تتحمل فى ذلك مسئولية كبرى ولو أنهـــا كانت قادرة على دق اجراس الخطر والتنبيه الى احتمال وقوعه أو لو أنها كانت حاضرة ما وقـــع شىء من هـــذا .

الأستاذ : هذا صحيح والمسئولية قائمة يتحمل وزرها كل صحفى ، ولهذا اقترح أن نبدأ حوارنا التـــالى حول حرية الرأى ، ومصير الذين حاولوا أن يعبروا عن آرائهم ، ثم كيف كانت لقمة العيش العـــامل الحاسم فيما لحق بالصحافة والصحفيين .. وكذلك بغير الصحفيين .

* * *

الحوار الرابع

نهاية الفرد

كان الحاضرون لحوار اليوم أكثر مما كان متوقعا ، ولم يشترك فيه طلبة الأعلام فقط ، بل أن شبابا من كليات أخرى جاء متعطشا لنقاش سمعوا أنه يدور حول الصحافة والحريات ، وهذا أمر طبيعي فحيثما يكن الحديث عن الحرية .. تجد جموع الشباب تقف فى طوابير ممتدة اما راغبة فى الاستماع والمتابعة واما راغبة فى المشاركة والنقاش واما متعطشة الى الاسهام فى وضع المبادىء التى تحقق فى المستقبل حرية أفضل لصحافة أفضل .

وجاء الأستاذ يحمل معه بعض الأفكار .. ويتوقع نقاشا حادا يتصل بما يقال عن « حرية الصحافة » فى الماضي والحاضر معا ، ولهذا أراد أن يبدأ الحوار من نقطة بعيدة بعض الشىء عن الصحافة .. وأن يدخل منها الى الموضوع الشائك .

الأستاذ : سأبدأ حوارى معكم اليوم « بحكاية » مسلية ، ولكن دلالتها كبيرة ، لأنها تعكس الاتجاهات التى كانت على وشك أن تطفو على سطح الجبهة المصرية الداخلية .

« وساد السكون مكان الاجتماع ، فان الطلاب يحبون الاستماع الى الحكايات ، وخاصة اذا جاءت فى بداية أو نهاية المحاضرة ، بل يتمنون لو أن المحاضر قضى وقت الدرس فى الدردشة بعيدا عن الكلام الجاد » .

الأستاذ : مع بداية استقرار ثورة ٢٣ يوليو واحساس ضباطها بأن الأوضاع قد توطدت فى أيديهم رتبت عدة اجتماعات مع بعض المثقفين من أساتذة الجامعات لاستطلاع آرائهم فيما يجب عمله للمستقبل ، هكذا كانوا يتظاهرون

بأنهم يريدون تعاونا مع أهل الخبرة ، وفى اجتماع من هذه الاجتماعات دار نقاش طرح فيه الجامعيون تصوراتهم وأفكارهم . وكان بينهم أستاذ بكلية التجارة اسمه الدكتور توفيق رمزى كان أكثر المتحدثين تدخلا فى النقاش بالرأى وظهر أنه لم يكن من الذين يقبلون الرأى الخاطىء للحاكم ولهذا عندما انتهى الاجتماع تطلع الرئيس اليه وقال « الأستاذ بتاع البيبة يستنى شوية » وكان الأستاذ الذى يدخن البيبة هو الدكتور توفيق رمزى ، الذى قاطع الرئيس عبد الناصر أكثر من مرة وناقش وجهات نظره .. وانتظر الرئيس حتى انصرف الآخرون ثم تطلع اليه وسأله « أنت بتعمل ايه ؟ » فرد قائلا : « أستاذ علوم سياسية بكلية التجارة .. »

وضحك الرئيس ضحكة ساخرة وسأله « والسياسة دى بيعملوها وبتعلموها فى الجامعة ؟ السياسة دى فهلوة وليست علما » ..

ورد الدكتور رمزى بمنتهى الهدوء : « هذا صحيح . ونحن لهذا ندرس ونقيم أفعال الساسة بعد ذلك ونفحصها ونعد فيها الرسائل الجامعية والدراسات العلمية .. » .

واغتاظ الرئيس من الاجابة واكتفى بقوله « كده .. » وانتهت المقابلة .

الطالب : والسياسة فهلوة فعلا .. اليس كذلك ؟

الأستاذ : ان القصة لا تناقش من هذه الزاوية لأنها توضح أن الرئيس وان تظاهر بالرغبة فى الاستماع الا انه لم يكن يطيق ان يقف منه احد موقف المعارضة او مخالفة رايه .. وهذا أخطر ما يمكن ان يتصف به رجل سياسى .

الطالب : (**مقاطعا**) ولكن الثورية من غير شك تتعـــارض مع السياســـة .

الأستاذ : ربما يكون ذلك فى البداية ، ولكن أن تستمر الثورية الى ما شاء الله فهذا ما لا يقبله العقل ، وقد بدأت الاجتماعات مع المثقفين عندما استقرت الثورة ، وبدأت تتظاهر بأنها تخطط للمستقبل سياسيا واجتماعيا ودستوريا ، أو بمعنى آخر عندما كانت تقول انها ستشكل هيكلا جديدا لمصر ..

الطالب : واين هو الأستاذ رمزى الآن ؟

الأستاذ : ترك الجامعة .. ومن فيها ، وهاجر بحثا عن مكان آخر ، شأنه فى ذلك شأن الوف الذين هاجروا فيما بعد هربا من سيطرة الفرد ، فقد كان يعلم مصيره ، ولهذا اختار أن يهاجر قبل أن يطرد ، وكانت هذه أولى تناقضات الثورة مع نفسها ، فقد جاءت للقضاء على حكم الفرد . وجاءت لترسى قواعد الحرية ، وجاءت لتغير وتبدل فتضع الأحسن مكان الأسوأ ، وتقضى على الفساد وتحقق الرخاء .. لقد كانت هناك من غير شك تراكمات ضخمة فى مجتمعنا ، وتحرك الجيش ليزيح هذه التراكمات ، ويبنى مكانهـــا البناء الأصلح ، ولهذا نجحت فى بدايتها ، ووقف النـــاس منها موقف التأييد كما قلت من قبل .

والذى يراجع موقف الثورة فى شهورها الأولى وتصرفات الذين فجروها يحس لأول وهلة بأنهم أعدوا وخططوا للقيام بثورة ما ، ولكنهم لم يعدوا أو يخططوا لما بعـــد نجاحها واستقرارها ، ولعلهم لم يكونوا هم الذين خططوا ومن ثم فقد بدأت تتخبط فى أعمالها واتجاهاتها . مما جعل الناس يتوقعون أن يؤدى هذا التخبط الى مزيد من الأخطاء، ومزيد من عدم الاستقرار ، ولو أن العقول المصرية وجدت فرصتها فى تقديم العون والنصيحة والرأى والنقد لما وصلنا الى ما وصلنا اليه .

وقد فرضت الرقابة على الصحف منذ اليوم الأول للثورة وهذا وضع طبيعى ، لأنه كان ضروريا أن تحمى الثـــورة نفسها ، ولكن عندما بدأ بعض الكتاب يمارسون حقهم فى مراقبة أعمال الحكومة ومحاولة تعديل المسار الخطأ وفتح المجال لأصحاب الرأى الصادق المبرأ من الغرض اتضح أن الحرية فى نظر الثائرين على الظلم ليست حرية عامة ، بل حرية خاصة . ومن هنا ازدادت قبضة الرقابة على الصحف ورأى القائمون بالأمر انه لابد من رادع وانذار للصحافة والصحفيين ، فقدمت جريدة المصرى الى المحاكمة العســـكرية وصدر قرار باغلاقها ..

طالب : .. هل نفهم من هذا ان الثورة أرادت باغلاق المصرى أن يكون انذارا للصحفيين بالتزام خط صـــحفى معين والتراجع عن نقد أعمال الحكومة ما لم يكن هذا النقد نوعا من التظاهر بالمعارضة ؟

الأستاذ : هذا أمر لا شك فيه ، بدليل أنه تبع اغلاق المصرى القاء القبض على بعض الصحفيين فترات محدودة ، كأنه عملية تأديبية سريعة تفرض على كافة العاملين فى الصحافة الالتزام بالتأييد .

الطالب : ولمـــاذا قبل الصحفيون هذا الالتزام ؟

الأستاذ : ان الاجابة على هذا السؤال ستأتى فى حينها خـــلال حوارنا .. وسيتضح من واقع هذه الاجابة أن الانهيار الصحفى كان نقطة البداية فى انهيار عام أصاب كل مرافقنا المصرية . ولست أنكر أن الصحفيين يتحملون مسئولية ضخمة فى شأن هذا الانهيار .. ولكن علينا كذلك أن نربط التصرفات من جانب المسئولين ومواقف بعض الصحفيين بالجو العام الذى كانت البلاد تعيش فيه ..

وانى لأكاد اجزم بأن الثـــورة لم تكن لها اهدافهـــا الواضحة ، منذ البداية ، فقد كنت على موعد مع الرئيس جمال عبد الناصر لعمل صحفى ، وفى جلسة هادئة بمنزله

وبحضور الرئيس انور السادات فى صيف عام ١٩٥٤ قال الرئيس فى خلال حديثه « ان اكبر غلطة ارتكبناها هى اغلاق المصرى .. » وتطلعت الى وجهه احاول أن افهم معنى هذا الكلام فلم افهم شيئا ، وكل الذى أذكره أنى قلت « ان اغلاق صحيفة لا يحل اشكالا ، بل يزيد الأوضاع تعقيدا ، ويؤكد أن النظام لا يملك قوة الاقناع » .

وابتسم الرئيس عبد الناصر ابتسامة اعترف انى لم أستطع تفسيرها ، وان كان قد قال بعد فترة قصيرة « آه .. نعم » ولكنه مع هذا كان يرى أن يكون هدفه الأول هو اخضاع الصحافة لارادته ، ولعله كان يبحث عن صيغة لذلك تجعل الصحافة ملكا لشخصه فى الواقع .. وملكا للشعب فى الظاهر ، ولعله كان يقصد بكلامه انه كان الأفضل الاستيلاء على المصرى لا اغلاقه ، أو بمعنى آخر تحويله الى جريدة ثورية ، ولكنه لم يكن قد وجد الصيغة التى تمهد لذلك .

ولم يطل الوقت ، ففى خلال عام ١٩٥٥ كان يتحدث الى تليفونيا فى عمل صحفى ، وفجأة بادرنى بسؤال سريع فقال : « ما رأيك فى تأميم الصحافة » ؟ ولم أتردد فى الرد على السؤال بسؤال آخر فقلت « وما الحاجة الى ذلك ، والصحافة الآن ملتزمة بخط واحد » .. وكانت الصحافة فعلا فى بداية تحقيق هذا الالتزام ، وقد استمر حوارنا حوالى الساعة ، ولما وجد انى لا اوافقه على رايه أجل مواصلة الحديث الى المساء عندما ازوره فى بيته بمنشية البكرى . غير انه لم يعاود الكلام فى هذا الموضوع .. موضوع « تأميم الصحافة » مرة أخرى .. فقد كان من طبيعته أن يفكر وحده . ويقرر القرار وحده . ثم يطرحه بعد ذلك على المقربين اليه . فاذا عارضه أحدهم توقف عن مناقشة الموضوع ، واذا وافقه آخر ظل يبحث معه الأمر على أساس أن هذا الآخر يفهمه جيدا .. وبذلك يضعه فى مرتبة المقربين اليه ، والذين يرتاح الى أفكارهم ، مع أنهم فى الواقع لا يستقلون بفكر وانما الفكر هو فكره

وحده .. تلك كانت طبيعته التى حكم بها مصر . ولهذا بدأ حكمه فى الخمسينات باجراء تجارب على الكثيرين .. حتى انتهى به الأمر الى استبعاد كل من لا يفهمه — أو كل من يناقشه الرأى — والابقاء على كل من يفهم . أو بمعنى أصح الابقاء على كل من لا يناقشه ، بل يمضى فى تأييد رأيه سواء أكان مقتنعا به أو غير مقتنع .. وهكذا تبلور الجهاز الداخلى الذى حكم به عبد الناصر مصر وحولها الى قلعة مملوكة لقلة سميت فيما بعد ، كما قلت لكم وكما سمعتم بها « مراكز القوى » .

الطالب : ولكن أليس من حق الحاكم أن يختار من « يرتاح اليه » ؟

الأستاذ : هذا صحيح ، ولكن ليس من حقه أن يضع مصائر الشعب كلها فى أيدى فئة قليلة لا تقول رأيا معارضا ولا تقدم فكرة تخالف فكرة الزعيم أو الحاكم ، انه حر فى أن يختار رجالا يرتاح اليهم ، ولكنه ليس حرا فى أن يحرم الآخرين من حرية النقد ، ومن هذا الواقع انتهى به الأمر الى أن عثر على بعض الصيغ التى تخدع الناس ، وتحقق له ما يريد ، ومنها صيغة ملكية الشعب للصحف ، وأخرى اسمها تحالف قوى الشعب العاملة ، وعلى أساسها حكم البلاد منفردا ، ومن هذا المنطلق مضت سياسة مصر تقع فى الخطأ وراء الخطأ ، وكلما تبرم الناس ، ازدادت قبضة مراكز القوى على رقابهم .. فتراكمت الأخطاء ، وأصبحت نقطة الانطلاق الثورية فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وما جاء فى بيانات الثورة بعيدة عن الواقع ، وكان على مصر أن تدخل فى أدوار لا تتوقف من المغامرات والتقلبات والتحديات حتى وصلنا الى ما نحن فيه الآن .. وما خفى كان أعظم .

الطالب : هذا كلام عام ، قد نوافق على بعضه لاننا نحس بنتائجه ، وقد لا نوافق على البعض الآخر لأنه ما زال ينقصنا الدليل على صحته ، ولهذا أرى أن ننتقل من الكلام العام الى الكلام المحدد بوقائعه وأدلته .

الأستاذ : اذا كنا قد اتفقنا على أن تكون نقطة بدايتنا هى أن الثورة قامت للقضاء على الفساد والرشوة واعادة الحريات الى الشعب .. وان الحكم على نجاح حاكمها هو دراسة ما تحقق من هذا كله وما لم يتحقق ، أو بمعنى آخر ان الحكم يكون على أساس الدراسة المقارنة .. فأعتقد اننا نستطيع أن نبدأ .. وأن نثير فى جلسات حوارنا بعض الحالات التى تحقق لنا هذه الدراسة المقارنة .

الطالب : نعم .. نحن متفقون على هذا .. وليكن حوارنا المقبل هو بداية هذه الدراسة .

* * *

الحوار الخامس

هل يمكن نقد الثوار ؟

وفى هذا اليوم بدأ الحوار من النقطة التى انتهى اليها ما سبقه وكانت أعداد الطلبة فى ازدياد مستمر بحيث أحس الأستاذ بأنه يوشك على مواجهة حالات ضغط طلابى ومعارضة أقوى ..

الأستاذ (مبتسما) — انى احس بأن الصراع الذى جرى بينى وبينكم كان مرده الى انكم رفضتم أصلا الرجوع الى الماضى ، وقد انتهيت الى اتجاه فى الحوار أكون فيه الطرف الذى يقدم وجهة النظر المعارضة ويكون موقفكم منى موقف المحقق أو المؤيد لكل تصرفات ثورية ، ولهذا أود قبل الوصول الى مناقشة بعض الوقائع أن نحدد خط سيرنا لئلا نضيع فى متاهات الماضى بلا طائل .

ان كيان المجتمع — اى مجتمع — لا يمكن أن يقوم على رأى فرد واحد ، كما أنه لا يمكن أن يقوم على غير قانون . فالرأى الفرد يخطىء وتكون لأخطائه نتائج بالغة الخطر على كيان المجتمع نفسه ، بل تقع هذه الأخطاء على رؤوس الناس كلهم فيه لغيبة الرأى الآخر المخالف أو لسلبية العقول المفكرة المخلصة القادرة على ابداء الرأى والمشورة للحاكم على صفحات الصحف أو فى مناقشات مغلقة وعلنية ، ثم لعدم عرض ذلك كله — وقبل اتخاذ القرار — على الشعب ليعرف كما نقول فى أمثالنا العامة « راسه من رجليه » .

ولا شك أن الرأى الآخر حاول فى البداية أن يثبت وجوده ، فلم يستطع ، وهو لم يحاول تحطيم الثورة بل بذل كل جهده لتدعيمها ولكنه فشل فى ذلك ، فتقلص هذا الرأى الضرورى ، وأصبح سلبيا أو صامتا ، أو مهاجرا ، أو مسجونا .. أو هاربا من السجن والتعذيب والحرمان من الرزق .

واظن أن نقطة البداية فى حوارنا يجب أن تتركز حول بعض الوقائع التى قادت البلاد الى هذا الوضع الخطير والتى فرضت اجراء « عملية تصحيح » فى مايو من عام ١٩٧١ ، وانا هنا أحب أن

اشير الى أن تسمية هذه العملية فيما بعد بثورة التصحيح كانت تعنى ان ما حدث قبل ذلك كان يحتاج فعلا الى ثورة اصلاحية وهى الثورة رقم ٢ أو بمعنى أصح اذا كان أحد اركان ثورة ٢٣ يوليــو هو الذى قاد ثورة التصحيح فلا أظن ان هناك خلافا فى أن هذه الثورة قد أخطأت والا ما كان هناك حاجة الى تصحيح . ولعل الخلاف قد يتركز حول نقطة واحدة وهى « حجم هذه الأخطاء وأثرها فى تكوين المجتمع وفى كيان الفرد وقيمته » .

ومن الطبيعى أن يقوم خلاف بين أى ثورة أو أى نظام وبين طبقة من الناس ولكن وسائل مواجهة هذا الخلاف من جانب الحاكم هى وحدها التى تحكم على مدى احساسه بقوته أو بقدراته أو بأثر انجازاته على جموع الشعب . فاذا كانت هذه الوسائل خاضعة لحكم القانون فمعنى ذلك ان ثقة الحاكم فى نفسه وفى صحة انجازاته قادرة على مواجهة الرأى المعارض بالحجة والبرهان والارتكاز على ثقة الشعب فى دحر خصومه . أما اذا كانت الوسائل بربرية بالغة العنف والقسوة فمعنى ذلك ان الحكم أراد أن يخفى الخطأ — بارتكاب المزيد من الأخطاء — .

ومن هذا الواقع فلابد لنا من أن نطرح بعض الوقائع ، ثم ندرسها ونحكم عليها حكما عادلا خاليا من الغرض والهوى ، ان الثورة جاءت لتصلح ما أسمته فسادا . وما كان الشعب فى الواقع يراه فسادا . وجاءت الثورة لتعطى المزيد من الحريات للشعب ، وكان الشعب يتطلع فعلا الى هذا المزيد .. وجاءت الثورة لتقضى على الاحتلال البريطانى وكان الشعب يكافح فعلا للتخلص من هــذا الاحتلال . وجاءت الثورة لتقضى على استغلال النفوذ . وكان الناس جميعا يتمنون أن يتخلص مجتمعنا المصرى ويبرأ من كل هذه الأمراض .

امانى كثيرة التزمت بها الثورة فى بداية مولدها قبل الشعب .. ومن منطلقها أيد الشعب ثورته .. ولهذا بدأت بيضاء .. ثم تحولت الى ثورة حمــراء .

والصحافة فى كل بلد هى المرآة التى يتطلع اليها الحاكم ليرى فيها صورته .. وينظر اليها الشعب مع بداية النهار ، ليرى فيها مدى تقدمه ، ومدى قدراته على مواجهة الحياة ، ولهذا نبدأ الكلام

عن الصحافة .. ولعلكم فى حملاتكم على صحافة اليوم وضيقكم بها لأنها لا تمارس حرياتها كاملة ، هو فى حد ذاته المقياس الذى نقيم على أساسه صحافة الماضى القريب ، ومن هذا التقييم نستطيع أن نحدد الحـــكم .

فى بداية الثورة وقفت الصحافة كلها مؤيدة لها ، وهى فى هذا لم تكن تناقض نفسها ، لأنها قادت قبل الثورة حملات ضخمة على ما كنا نسميه فســـادا ، وضغطا على الحريات واليكم مثلا واحدا من واقع ما كتب قبل الثورة ، وكان المقال ، أو التحقيق الصحفى يصرخ ويشير بالتلميح الواضح الى رأس الدولة وأعنى به « الملك فاروق ... » وقد نشر هذا المقال بمجلة « آخر ساعة » تحت عنوان « زفت وقطران » وكان كاتبه عائدا من أوربا واستغل رحلته كى ينقل الى الشعب المصرى ما تردده الصحف الأجنبية والأوساط الدبلوماسية عن الوضع الداخلى فى مصر وكيف تطورت الأوضاع فأصبحت أشـــبه بالزفت والقطران بسبب الاتجـاهات الســـائدة فى الحكم ، وعلى رأســـها تصرفات الملك ، ونشر المقال فعلا وقرأه الناس وفهموه ، وقرأه الحكام وفهموه .. ومن هذا الواقع نستنتج ان الشعب فى هذا الضياع الداخلى لم يكن غائبا ، أو مخدوعا بل كان يعرف ان هناك فسادا وان المسئولية فى هـــذا الفساد تقع على الحكام الكبار .

ولا أنكر ان الحكومة القائمة حاولت ارضاء الملك . وحاولت أن تسن تشريعا يحول بين الصحافة وبين التعرض للاسرة المالكة ، ولكن الصحافة وخاصة جريدة المصرى التى كانت تعبر عن الحكومة القائمة تصدت لهذا التشريع بالنقد وقادت حملة قوية أدت الى وقف التشريع والحيلولة دون صدوره . ذلك كان حال الصحافة قبل الثورة . صحافة قادرة على أن تفعل . ومع هذا كان الشعب يريد المزيد من انطلاقتها فى ممارسة حرياتها ، وجاءت الثورة فأكدت انها تسعى لتحقيق هذا المزيد من الحريات،ورغم هذا كانت ضحيتها الأولى جريدة المصرى ، وما ذلك الا لأن محررها أحمد أبو الفتح أراد أن يواصل المسيرة من أجل الحريات ، ومن أجل دعم النظام الدستورى للبلاد ، وانتهى الأمر اليها أن أغلقت جريدة المصرى

بحكم من محكمة ثورية ، ثم هاجر احمد ابو الفتح الى خارج مصر ليظل غائبا عنا ما يقرب من عشرين عاما .

طالب : ولكن الا يمكن ان يكون لدى الثورة من الاسباب والمبررات التى تجعلها تشك فى نوايا واهداف محرر المصرى وغيره من المحررين ؟ او بمعنى أصرح الا يمكن أن تكون هناك قوى خارجية تحرك هؤلاء الصحفيين فينطبق عليهم القول بأن لا حرية لأعداء الشعب .

الأستاذ : ان هذا الشعار خطير للغاية فمن ذا الذى يقرر ويحدد اعداء الشعب من المخلصين له ؟ هل يترك تطبيق ذلك لفرد ؟ أم ان القانون هو الذى يحدد ويقرر ؟ .

طالب : ولكنا فى ثورة ؟

الأستاذ : هذه الثورة هى التى اختارت فى البداية جريدة المصرى لتكون مركزها الاعلامى ، بل ان جمال عبد الناصر كان يقضى سهراته فيها فى مكتب محررها ، لأنه كان يعلم ان محرر هذه الصحيفة احد الذين لعبوا دورا فى التمهيد للثورة . ومع هذا عندما رفض الصحفى أن يكون أداة تنفيذ لما يطلب منه وتمسك بأن يقول رأيه وينتقد الخطأ .. كان القرار اغلاق جريدته وتشريد اصحابها .

ولأن الصحافة لم تكن متناقضة مع نفسها فى بداية الثورة، كانت تتوقع أن يفسح لها جو الحرية وأن يمتد نقدها الى اخطاء الثورة نفسها — ان وجدت — ولكن الحاكم كان قد بدا يغرق نفسه فى بحر متلاطم الأمواج من المشكلات الداخلية ، وبدات الأجهزة الحاكمة ، وضباط الجيش المتطلعون الى النفوذ والسلطان والثراء يتحركون فى كل الاتجاهات لتحطيم الأهداف التى اعلنتها الثورة ، وبدا واضحا ان التفكير « الثورى » قد تناسي ما جاء من اجله .. او بعبارة اصح انه هرب من مواجهة ما جاء من اجله

داخليا واتجه الى توسيع قاعدة عمله السياسى الخارجى دون أن يقيم اعتبارا للجبهة الداخلية بل تركها نهبا للضباط الذين خلعوا ملابسهم الرسمية .. وارتدوا الزى المدنى ليقودوا البلاد الى هاوية الفساد والافلاس وقد كشفت أرقام ديون مصر عن هذا الواقع الاليم .

وقد تحركت بعض العناصر التى أحبت الثورة وبنت على قيامها الآمال الكبار .. لتنبه . وتحذر . ولكن ذلك كان الطامة الكبرى .. كيف يجوز لأحد من عامة الشعب أن يتكلم أو يوجه نقدا الى « الثوار » ؟ كيف يجوز لفرد من الشعب أن يشكك فى نوايا الضباط الأحرار أو « القيادة » كما كانت تسمى فى ذلك الوقت .. انها جريمة . ومرتكب الجريمة يجب ان يلقى الجزاء .. واذا كان القانون لا يجد فى تصرفاته ما يوجب العقاب . فانه يجب أن يمنح « أجازة » وفى نفس الوقت انطلقت المطابع تطبع الشعارات التى تلهب مشاعر الشعب ، وتغطى الأخطاء ، وتسحق الذين يحاولون مواجهة هذه الأخطاء وكان من بين هذه الشعارات « الحرية للشعب . وليست لأعداء الشعب » ومن هذا الشعار انطلق مبدأ جديد هو أن الصحافة يجب أن تكون ملكا للشعب ثم صدر فى مايو من عام ١٩٦٠ قانون ينقل ملكية الصحف الى الشعب ، وينصب الحاكم وصيا عليها باسم الشعب .. واستغل الوصى كل الأجهزة الصحفية لنفسه ، ولو كان الشعب وقت ذاك يحس بأنه المالك الفعلى للصحف ، لحاسبها حسابا عسيرا على اهمالها فى معالجة مشاكله الداخلية معالجة بناءة . ولكنه لم يكن كذلك . ولم يكن الوصى على الشعب يرغب فى أن تثار الموضوعات الداخلية ، لأنه كان مشغولا بمغامرات خارجية ، مغامرات أراد منها اقامة امبراطورية عربية يكون هو امبراطورها . ولا بأس من اقامة هذه الامبراطورية ، ولكن كيف تقام اذا كان مركزها مصر ومبعث قوتها ، ضائعا ، غير مستقر ، تتراكم فوقه المشكلات وتدفعه الى الانحدار والانهيار وهل يمكن لدولة أن تقبل أن تكون جزءا من امبراطورية تحكم بالحديد والنار ؟

وكانت الصحافة ترى هذا كله وتحاول الاقتراب من معالجته فاندلعت نار الخصـــومة بين الوصى والمحجور عليهم ، وكانت النتيجة أن فقد الشعب ثقته فى صحافته وآية ذلك ان جريدة الجمهورية التى صدرت لتعبر عن الثورة لم تجد من يقرأها وانفقت عليها « الدولة » عشرات الملايين من الجنيهات ، بل الأخطر من ذلك أن أرقام توزيع الصحف الاخرى لم تتحرك الى اعلى بل ظلت بلا زيادات رغم التضخم المصرى وكثرة عدد القراء ، بل ان دراسة هذه الأرقام توضح ان الجمهور انصرف عن قراءة صحفه التى تحولت الى ابواق تردد ما يقوله الحاكم وتمجـد اعماله . ولا تتحدث عما يشكو منه الناس .

ودليلى الثانى هو ما أعقب ثورة التصحيح من تغير فى موقف الناس من هذه الصحف ذاتها . اذ ما كادت الرقابة ترفع عنها ، وبدات تمارس جانبا من حرياتها حتى ارتفعت أرقام التوزيع الى الضعف ..فأين كان هؤلاء القراء الذين ظهروا بين يوم وليلة .. وهل كانوا مهاجرين ؟ أم كانوا لا يرون فى صحفهم سوى أدوات جامدة أو مقتولة بكتم الأنفاس وغير صالحة لأن تقرأ ؟

وفى خلال تلك الفترة من تاريخ صحافة مصر ، تقلص نفوذها فى البلاد العربية ، بعد أن كانت لها المكانة الأولى هناك ونقص توزيعها ، وبدأت صحافة لبنان تشق طريقها الى السوق العربية ، وان كانت تمول بمال غير عربى ، وتخدم مصالح غير عربية ، وليس ادل على صحة كلامى من أن هذه الصحافة اللبنانية كانت رائجة فى ســـوقنا المصرية وكنتم تقبلون على قراءتها كراهية فى صحف مصر هل يستطيع أحد منكم ان ينكر هذه الحقيقة ؟ هل يستطيع أحدكم انكار جريمة قتل الصحافة المصرية واحياء صحافة مأجورة مولت تمويلا خارجيا ضخما تساعد على حرمان الشعوب العربية من صحافة مصرية كانت تتمتع فى فترة من تاريخنا بســـمعة كالماس ؟ وكانت أســـماء الصحفيين المصريين تتردد على كل الألسنة العربية بكل احترام وتقدير

لأنهم كانوا يعالجون مشـــاكلنا ومشاكل غــيرنا باخلاص وبأمانة وبعقل وطنى لا تأثير لأجنبى عليه ؟

والآن وقد انتهيت من بعض ما عندى عن الصحافة فلماذا لا تدخلون معى فى نقاش حول هذا الذى قلته ؟

طالب : ان الوضع يحتاج منا الى استكمال بعض ما نحتاج اليه من وقائع .. فلنؤجل الحديث الى حوار آخر ؟

الأستاذ : لــكم هــذا .

* * *

الحوار السادس

الخوف والنفاق

اجتمع شمل الطلبة ، وانضم بعضهم الى بعض حـول مائدة مستديرة فى ركن من اركان كافتريا لهم ، وشاهدوا استاذهم يقترب منهم فنظر بعضهم الى الساعة فاذا بها تشير الى السادسة تماما ، وقال أحدهم ـ كعادته .. فى موعده بالضبط . فقال آخر :

انه يحرص على الدقة بصورة تدعو الى الغيظ . وهو من اجل الحرص على الوقت يثور ويغضب ..

طالبة : (مقاطعة) ، وهل رايته مرة غاضبا ؟

الأستاذ : وقد استمع الى الجزء الأخير من الحديث .. اذا كنتم تقصدوننى ، فانى اغضب فعلا ولكن بعـد استنفاد كل وسائل العلاج .. فان رأيى أن معالجة الناس ـ بالثورة المستمرة خطأ . لأن ذلك يفتح الأبواب لسلسلة أخرى من الأخطاء ، ثم ينتهى الوضع الى حالة من الفوضى .. ولو أن ثورة ٢٣ يوليو حددت لنفسها موعدا تنتهى عنده باجراءاتها الثورية ، ثم تبدأ بعد ذلك حكما غير ثورى ، لتغـيرت اوضاعنا ، ولكن الأمر لم يكن كذلك ، بل كان الشعار الذى يتردد دائما فى كل مناسبة لها هو (الثورة مستمرة) .

ومع هذا لا داعى الآن للدخول فى الموضوع ، ولنبدا حـوارنا ..

طالب : لقد اسقطت من اعتبارك وانت تتكلم عن موقف الثورة من الصحافة ان هناك التزاما ثوريا يحتم على كل من يعمل فى أجهزة الأعلام الارتباط به . والا كان ذلك خروجا على مبادىء الثورة . وما ينشأ عن ذلك من فوضى .

الأستاذ : الالتزام ضرورى ، سواء أكان الوضع ثوريا أو غير ثورى ، وفى كلا الحالين لا يفرض الالتزام على طرف واحد، أى أن الحاكم ملتزم ، ورجل الشارع ملتزم ، فكلاهما عليه التزامات بالنسبة للطرف الآخر . ولكن الالتزام ينبع أصلا من فوق أى من الحاكم ، فهو يرتبط بمبادىء معينة ومحددة فاذا نجح فى تحقيق ما التزم به أصبح حتما على رجل الشارع أن يعطيه كل فرصة لتحقيق المزيد من الالتزامات مقابل تأييد شعبى نابع من التزام مقابل .

ولكن أن يفرض التزام ما على رجل الشارع دون أن ينال من وراء ذلك مقابلا يشعره بانسانيته وكرامته وحريته ودون اطلاعه على كل الحقائق واشعاره بأن الدولة تقدم له الخدمات الممكنة فهنا يختل ميزان الالتزام . ويتطلب حجرا شعبيا أو تدخلا من جانب الشعب ، لأنه أولا وآخرا صاحب الحق فى كل شأن من شئونه . ومراقبة هذا الميزان واجراء عمليات الحساب والخسائر يجب أن يكون بصورة منتظمة ومنظمة ، وهى تتم أما عن طريق الرقابة الشعبية الممثلة فى المجالس النيابية . واما عن طريق صحافة — وان كانت ملتزمة — حرة وقادرة على أن تقوم بدور الملتزم أمام الشعب تدافع عن مصالحه ، وتنبه الى الخطر اذا وجدت ان ميزان المدفوعات يضيف الى الشعب المزيد من الأعباء والتكاليف والتخلف .

هذا هو الالتزام . أما أن يكون الالتزام لحساب فرد واحد وهو الحاكم ، يفرض الالتزام على غيره ويجرد نفسه منه فهذه هى الديكتاتورية بكل ما تحمل كلمة الدكتاتورية من معان .

طالب : ولكن كثيرا ما تكون الديكتاتورية هى العلاج المر الذى تحتاجه بعض الشعوب .

الأستاذ : ما من أحد يأتى الى الحكم ويقبل أن يقول للناس أن علاج مجتمعهم يحتاج الى ديكتاتور .. وان هذا الديكتاتور

هو أنا . بل ان كل من يأتى الى الحكم عن طريق الثورة يفرش الطريق أمام الشعب بالورود ، ويعلن أنه ملتزم بتعهدات معينة كلها لخير المجموع . وقد كان جمال عبد الناصر يثور لمجرد أن يقال عنه فى صحف الخارج انه « ديكتاتور » ولقد كنت معه فى أول رحلة له الى يوغسلافيا عام ١٩٥٦ وكنا نتناول طعام الافطار بالقطار ، والتفت الى الدكتور محمود فوزى وزير خارجيته وقال له « هذه الصحف المجرمة (مشيرا الى صحف الغرب) تصفنى بأنى ديكتاتور .. وهو وصف لا اقبله .. عليك أن تقول لهم ذلك .. » هذه القصة البسيطة توضح لكم أن الديكتاتورية المعلنة ليس لها وجود ، فلم يلتزم حاكم أمام شعب بأن يكون ديكتاتورا مصلحا ، بل يرتبط بارتباطات تتسم بالحرية والانطلاق فى النقد ، ومن ثم يكون حسابه مركزا حول هـذا الالتزام .

طالب : ولكن ربما كان الشعب راضيا بهذا النوع من الحكم ؟

الأستاذ : لن تجد شعبا يرضى بأن يسلم أمره لفكر فرد واحد ، بدليل تحركاتكم الجامعية بعد النكسة فى ٥ يونيو ١٩٦٧ وما تلا ذلك ، وقد اتجهت مظاهراتكم أول ما اتجهت الى جريدة الأهرام على أساس انها الناطقة باسم الحاكم وكانت هتافاتكم تؤكد انكم تحملون الصحافة مسئولية الخداع الذى عشتم فيه ، ولقد تظاهرتم لأن صدمة الهزيمة فى صحراء سيناء كانت أضخم من أن تحتملها أعصابكم وقلوبكم وشعوركم ، اذ كانت صدمة تثير الشعور بالمرارة والألم ، بل كانت آخر الأخطاء التى تعجز عنها طاقة الاحتمال ، ولهذا عرفتم طريقكم الى التظاهر العلنى لتقولوا رأيكم فيما كنتم تعيشون فيه ولا تعرفون كيف تعبرون عنه ، ولو كانت هناك صحافة حرة ولم تكن هناك ديكتاتورية فرد ، لما حدث ذلك . ولابد من الرجوع الى تاريخ الشعب المصرى القديم والحديث لنعرف أنه فى كل الظروف لم يكن ليقبل أن يحكم ديكتاتوريا ، صحيح ان بعض المحاولات فى التاريخ الحديث جاءت عن طريق أحزاب الأقلية ، ولكن

عندما تحول حزب الأغلبية قبيل الثورة نحو ارضاء السراى والانجليز ، بدأ الشعب يقاوم هذا الاتجاه ويحاول أن يعيد النحاس باشا الى حظيرته ، ولو أن الحكم استتب للنحاس لفترة طويلة لكانت نهايته الشعبية محتمة .

ان طبيعة الشعب طبيعة اسلامية تقوم على الشورى، وكل خروج على هذه القاعدة ينتهى الى اتجاه شعبى جارف للبحث عن مخرج الى الوضع الطبيعى الذى يرتضيه .

ولكن يبدو أن جمال عبد الناصر كان يستعد — رغم هذه الظروف — لأن يحكم مصر حكما ديكتاتوريا بعد أن تكشف له أن الحكم الدستورى المستند الى الارادة الشعبية ليس هو السبيل الى تحقيق غاياته وأغراضه ، وهذا الكلام لا أقوله بلا وقائع .. :

وأولى الوقائع : انه كان معجبا بنظام سالازار ديكتاتور البرتغال والذى استمر لفترة طويلة .. ولهذا بعث الأستاذ فهمى السيد الى لشبونة ليدرس النظام المعمول به ويعود به الى مصر لتطبيقه فيها ومع هذا ما أن ذهب سالازار حتى خرج شعب البرتغال ليعلن انه لم يكن راضيا عن النظام . وانما كان يعيش فى حالات رعب من هذا النظام .

وثانية هذه الوقائع انه يوم وقع الانقلاب ضد حكم بيرون الديكتاتورى فى الأرجنتين اهتم بذلك اهتماما كبيرا . وقد كنت اذ ذاك نائبا لرئيس مجلس ادارة دار التحرير التى تصدر الجمهورية فاتصل بى تليفونيا لأطلعه على كل التفاصيل التى أحاطت بهذا الانقلاب . وظل على اتصال مستمر بالجريدة متعطشا الى معرفة المزيد من التفاصيل .. وكان تعليقه الذى ما زال يرن فى أذنى « غريبة .. لقد كنت أظن أن نظام بيرون أقوى من أن يتعرض لانقلاب يؤيده الشعب » .

وثالثة هذه الوقائع انه كان يخشى ان يخوض انتخابات بمعناها المعروف فى الدول الديمقراطية ، اى ان يقف فى معركة ترتكز على التنافس بينه وبين آخر او آخرين . وقد حدث أن رشحت نفسى لمنصب نقيب الصحفيين فى اول تشكيل جديد للنقابة بعد الثورة وكانت معركة حامية . حوربت فيها من بعض العناصر اليسارية والمؤيدة من بعض أعضاء مجلس قيادة الثورة وعلى راسهم الصاغ صلاح سالم .. وقد كان وزيرا للارشاد القومى (الاعلام) وكان يسيطر بحكم منصبه على أرزاق الصحفيين . فلما سقطت فى الانتخابات بفارق ضعيف فى الأصوات ، قال لى جمال عبد الناصر فى تلك الليلة : انه يكره هذه المعارك الانتخابية التى يكون فيها مصير الفرد معلقا على اصوات ناخبين .. اى انه لا يحب أن يخوض معركة فيها مواجهة قد ينجح فيها وقد يفشل . وهذا دون شك من طباع الديكتاتورية المتسلطة .

هذه بعض الوقائع « الأولية » التى كشفت عن اتجاهه فى اختيار النظام الصالح لحكم مصر . وهو يهدم كل قول قيل بأن الثورة جاءت لاقامة حياة ديمقراطية سليمة .

طالب : ولكن لعله كان يحتاج فى البداية الى نوع من الاستقرار الداخلى الذى يمكن ان يكون تمهيدا لاقامة هذه الحياة الديمقراطية السليمة ؟

الأستاذ : عندما يكتمل حوارنا سنرى أن هذا الاتجاه المبدئى فى تفكيره قد تحول الى اساس الحكم ، وان القيادة الجماعية التى بدات بها الثورة تفتتت ، وان السلطات كلها تجمعت فى يد واحدة ، ثم تطور المجتمع ليصبح مستندا الى قاعدتين احداهما قاعدة « النفاق » والأخرى قاعدة « الخوف » ومثل هذا المجتمع هو الذى يساعد على اقامة الحكم الديكتاتورى الرهيب .

ولقد كان جمال عبد الناصر حريصا على البدء بأجهزة الاعلام ليجعلها أداة طيعة له ، تشكل الناس كل صباح

بالشكل الذى يرضيه .. ومن هنا بدأ ما أسماه « تنظيم الصحافة » بينما كان فى الحقيقة ملكية الصحافة له .

طالبه : وكيف انحدرت شخصية الصحفى المصرى الى القاع بسرعة وسهولة ؟

الاستاذ : لا يصح أن نقول أن ذلك تم بسرعة أو سهولة . ان الناس — معظم الناس — لم يكونوا على علم بما كان يجرى فى الخفاء بالنسبة للصحفيين ، فبالرغم من الاجراءات التى اتخذت ضد جريدة المصرى واعتقال بعض الصحفيين لفترات قصيرة بقصد الارهاب والتأديب والانذار للاخرين ، رغم ذلك كله حاول البعض منا أن يلتزم بواجبه نحو الشعب .. فكان ينقد أو يناقش بعض ما كان يراه جديرا بالمناقشة الحرة . وكان الرقيب يحذف ولا يسمح بالنشر .. واذا حدث وغابت بعض الأفكار والاتجاهات عن الرقيب فان اسم الصحفى كان يدرج فى قائمة سوداء ، وتعد العدة لابعاده فى الوقت المناسب .

طالبة : وماذا تعنى بالوقت المناسب . ؟

الأستاذ : لم يكن مسموحا بفصل صحفى لأسباب تتصل بالنقد . والا عد « شهيدا » ، ولم يكن جمال عبد الناصر يسمح بأن يكون هناك « شهداء رأى » ولهذا كان يترقب الفرصة لكى يكون لفصله ما يبرره ، وقد كان الأستاذ فكرى أباظة واحدا من هؤلاء الضحايا ... كان يكتب فى المصور بابا يوقعه باسم « المجنون » ولم يخل الكلام المنشور من « الغمز واللمز » والاشارة بطريقة تبدو مجنونة الى بعض التصرفات الخاطئة .. وتنبه الرقيب — أو نبه — الى ما يكتب فى هذا الباب ، ولكن الاجراء ضد فكرى أباظة لم يتخذ الا بعد أن كتب مقالا عن القضية الفلسطينية وجدت فيه الأداة الحاكمة فرصتها ، ففسرت بعض ما جاء فيه بأنه خروج على الخط العربى .. وبادرت فأصدرت قرارا « بفصله » وهكذا لم يسمح لفكرى أباظة أن يكون

شهيد رايه .. ولم يسمح فكرى اباظة لنفسه بأن يكون هو هذا الشهيد ، فأعلن بعد أيام — وبعد محاولات استرضاء لجمال عبد الناصر — تفسيرا لما جاء فى مقالة ليمهد به الطريق لاعادته الى عمله الصحفى .

وهكذا تحددت خطة معاملة الصحفيين ، أن تكون الرقابة هى خط التأديب الأول ، فاذا تجرأ صحفى وكتب رأيا حذفت هذا الرأى بحيث لا يصل الى القراء . وفى نفس الوقت ترفع الاراء المحذوفة الى جمال عبد الناصر ليقرر بنفسه الوقت المناسب لأبعاد الصحفى عن عمله تأديبا له وتهديدا للآخرين . وهكذا أصبح الصحفى حرا فى أن يختار المصير الذى يريده .. أن يقول رأيه على ورقة ليقرأه الرقيب وجمال عبد الناصر . ويكون بذلك آخر رأى يبديه .. أو أن يسكت ويرضى « بالالتزام » . وكان الصحفيون اما أن يودعوا منازلهم بغير رجعة الى الصحافة أو الى أى عمل آخر . والبعض الآخر ينزل ضيفا على البوليس الحربى فى عملية تأديبية مؤقتة تؤهله للدخول فى زمرة الخاضعين .. وكان البعض الثالث يحول الى العمل فى مؤسسات التغذية أو المحلات التجارية أو فى بيع الاحذية الى أن يستسلم .. أو أن يرضى بالمصير الذى اختير له .

طالب : غير معقول .

طالب آخر : قد يكون لهذه الاجراءات كلها ما يبررها ؟

الأستاذ : الذى وصف كلامى بأنه غير معقول . يجد الأدلة على ذلك فى ملفات الصحف . وفى القرارات التى كانت تبلغ لادارات الصحف لتنفيذها وفى ملفات المؤسسات التى نقل اليها هؤلاء الصحفيون .

اما الذى قال انه قد يكون لهذه الاجراءات ما يبررها ، فأنا أتفق معه فى الرأى ، بشرط أن نتفق أولا على أن يكون

لكل اجراء التبرير المعلن للناس . والذى يسمح فى نفس الوقت بمناقشته ، أمام الرأى العام وهذا ما لم يحدث . ومعناه أن الحاكم لم يكن فى الموقف الذى يسمح له بالدفاع عن تصرفاته أمام الرأى العام .

طالب : ولماذا ظلت هذه الوثائق حبيسة حتى اليوم ؟

الأستاذ : ومن الذى يعلنها لك ؟ أليست الصحافة هى الوسيلة الاعلامية الشرعية الوحيدة القادرة على أن تقول لك ما يحدث ويجرى .

الطالب : كان فى امكان رجال الصحافة أنفسهم ، ونقابة الصحفيين أن تقف موقف الحزم من هذا كله ؟

الأستاذ : هذا هو الاتجاه السليم بطبيعة الحال ، ولكن بعض أقطاب الصحافة كانوا يتسابقون الى مكان قريب من الزعامة .. والبعض الآخر اختار طريق الأمان وضمان لقمة العيش . والشباب الصحفى يقتبس من هؤلاء وهؤلاء ويشهد التسابق الذى يحركه الخوف والنفاق فلا يجد من يأخذ بيده أو يعلمه . وانى لأذكر قصة رواها لى صحفى قديم لمس فى بعض الشبان طاقات صحفية متفتحة فقال انه اقترح أن يشغلوا بعض المناصب القيادية فى مجال العمل الصحفى فأبوا ورفضوا وكانت حجتهم أنهم يفضلون أن يعيشوا فى « الظل » لئلا تقطع رقابهم . وهكذا انتقل الخوف الى الجيل الجديد .. ولا دليل على صحة هذا القول الا سؤال أوجهه اليكم : حددوا اسما صحفيا واحدا لمع فى خلال الفترة التى عاشتها الصحافة المصرية ملكا لفرد واحد ؟

وساد المكان صمت عميق .. وتطلع الطلبة بعضهم الى بعض .. ثم خرج طالب بسؤال آخر تسليما منه ومن اخوانه بأنهم لم يجدوا اجابة على السؤال .

طالب : وهل يعنى هذا ان كل ما سجل فى الصحف خلال هذه الفترة الطويلة لا يصلح ان يكون قاعدة لكتابة التاريخ ؟

الأستاذ : ان المؤرخ لا يقبل الاعتمـــاد على وجهة نظر من جانب واحد . ولو أن مؤرخا اتخذ ما كتب فى الصحف أو ما جاء فى الخطب المنبرية كمرجع له فانه سيخرج بنتائج مذهلة ، تناقض وكذب ونفاق وهى الشعارات الثلاثة التى توجت صحافة مصر فى تاريخها الثورى الحديث .

طالب : وهل تغير الوضع الآن ؟

الأستاذ : لكى تغيره فأنت فى حاجة الى « وقت » والى « فترة نقاهة » والى فترة اعداد جيل جديد لم يلوث .. وأخيرا الى ضمانات تؤكد أن الصحفى لم يعد قطعة من شطرنج يحركه الحاكم وينقله من مكان الى مكان أو من موقع الى موقع غير صــحفى .

وهذه الضمانات نفسها فى يد « رجل الصحافة » وفى شخصية هذا الصحفى ، هو صاحبها . وهو محركها . وهو حاميها .

طالبة : لست افهم ما تعنى ؟

الأستاذ : ان ما أعنيه هو ضرورة اعتزاز الصحفى « بالشخصية الصحفية » وليس لازما أن تكون شخصيته هو بل يتحتم حماية الشخصية الصحفية بوجه عام ، فاذا احست الأسرة بأن صحفيا قد مس فى كرامته أو فى رزقه فانه يتحتم اعتبار ذلك ماسا بالصحافة والاحتجاج عليه ، ويجب ترجمة هذا الاحتجاج الى تصرف عملى كالاضراب الجماعى عن العمل — مثلا — بحيث يتاح للجمهور ان يعرف الحقائق كاملة . او بمعنى آخر يجب الا يسمح صحفى بأن يذهب زميل له ضحية لرايه . او لاعتزازه بشخصيته . أو بمعنى آخر أن الصحفى يجب الا يفكر فى نفسه لانه ان فعل اتاح

للحاكم فرصة السيطرة على مصائر الصحفيين وأصبحت الصحافة ملكا له دون حاجة الى فرض رقابة فعلية .

الطالب : وهل يمكن ـــ فى رأيك ـــ تحقيق ذلك ؟

الأستاذ : ان تغيير النفوس يحتاج الى جهد جبار ، واذا شئنا الدقة قلنا ان مهنتنا تحتاج الى دم جديد . دم يغلى من أجلها ، ولا يراق فى سوق الرياء والنفاق ، اذ لا شيء يتحقق الا بتضحية وراء تضحية .

طالب : وهل اثر هذا النفاق على المجتمع المصرى ؟

الأستاذ : بطبيعة الحال ، لقد أصبح النفاق فى مجتمعنا من العملات المتداولة والمقبولة جدا ، ولقد بدأ تدارك هذه العملية فى نطاق ضيق ، وبصورة صارخة ، وظل البعض أو الكثير يرفض التعامل بها اعتمادا على خلقه وخبراته وقدراته التى تؤهله لشق طريق كفاحه ، ولكنه مع هذا وجد نفسه ضائعا فى سوق أصبح النفاق يسيطر عليها وأحس هذا الفريق من الناس بخطورة المواجهة ، فكان عليه أن يختار بين أمرين ، أن ينافق . أو يضيع .

طالب : ومـــاذا اختار ؟

الأستاذ : هذا السؤال أرده اليك .. وانا اظلم الواقع اذا قلت ان الكثيرين ثبتوا فى مواقعهم وانتصروا فى حرب المواجهة لقد اضطروا أن يخضعوا .. من أجل ..

طالبة : .. من اجل لقمة العيش !

الأستاذ : نعم .. آه من اجل لقمة العيش . فقد كانت السلاح الذى لعب دوره الكبير فى تشكيل المجتمع بصورة ظنها البعض تفاعلا مع النظام . بينما كانت فى الواقع خضوعا لسيطرة لا اخلاقيـــة .. سيطرة وضـــع أرزاق الناس وأولادهم الصغار فى أيدى فئة قليلة .

طالب : وهل تستطيع أن تقدم لنا وقائع من حقل النفاق ؟

الأستاذ : يبدأ تاريخ النفاق الكبير حين قدم الى رئيس الدولة على طبق ذهبى كبير .. وكان ذلك فى حفل فخم اقيم بقصر القبة ودعى الصحفيون الى الاجتمـــاع فيه مع الرئيس جمال عبد الناصر عقب صدور قرار تنظيم الصحافة فى عام ١٩٦٠ . وبدأ الرئيس فى هذا الاجتماع بشرح طويل جدا ، قد يكون المقصود منه أن يخدر الجالسين أمامه فى أدب وانصياع ، وأن يزيد من احتمالات الاستسلام للواقع . ومن واقع ما أعرفه عن الرئيس أرى أنه كان يتوقع أن يواجه مناقشة حول « مبدأ التنظيم أو التأميم » ولكنه ماكاد ينتهى من كلامه الطويل ، حتى ساد الصمت القاعة ، ثم وقف صحفى يطلب من الرئيس أن يحدد الخطوط التى يتحتم على الصحافة أن تلتزم بها ، وأستطيع أن أؤكد أن جمال عبد الناصر شعر بارتياح بالغ لهذا الاستسلام .. فقد اعتدل فى جلسته ، وراح يحاضر فى أشياء كثيرة توضح مدى اطمئنانه الى أن كافة الأقلام العاملة فى الصحافة المصرية أصبحت ملكا له ولهذا تطلب منه توجيهها وتطويعها .. وتلك كانت المأساة الأولى ، أو فاتحة المآسى .

وفى ذلك اليوم ، وعند خروج الصحفيين من قصر القبة عائدين الى مكاتبهم لتنفيذ تعليمات الرئيس ، التفت صحفى كبير الى زميل له وسأله « هل تجد فارقا بين هذا الاجتماع ومذبحة القلعة عندما قضى محمد على على المماليك بضربة واحـــدة » .

ولم يبتسم الصحفى لهذا التشبيه . لأنه كان يحس أن الطعنات التى تلقتها صحافة مصر لم تجد من يردها عنهـــا ؟

وانني لأتساءل الآن .. لو أن اتفاقا تم بين الصحفيين قبل ذهابهم الى الاجتماع على خطة لمناقشة الرئيس فى مبدأ

التنظيم ، هل كان يمكن أن تكون نهاية الاجتماع بهـذه الصورة المزرية ؟

طالبة : لقد كدت أسال هـذا السؤال ؟

الأستاذ : من المؤكد ان جمال عبد الناصر كان يتوقع مواجهة تتمثل فيها الكرامة ، ولكن مجموعة الكبار الذين كانت بيدهم قيادة معركة « الكرامة » كانوا فى شغل شاغل عنهـا بمعركة أخرى ، معركة السعى نحو مكان الصدارة والتمكن من مكان الى جانب الزعامة يفتح لهم أبواب النفوذ أولا ، ثم الخير والرزق لأنفسهم بعد ذلك وكانت هذه المعركة حامية . فذهب ضحيتها الكثيرون ، ولم يبق الا قلة .

لقد تحولت المهنة الى سلعة أخذ كل صحفى كبير يسعى الى احتكارها ، وتحولت اشتراكية الصحافة الى عملية احتكارية كان الصراع فيها حول من يكون المحتكر الأول ، وان شئت الدقة من يكون المنافق الأول .

طالب : (مقاطعا) : ارأيت اننا على حق ، انك تعود مرة أخرى الى تحميل كل الصحفيين أوزار المهنة .

الأستاذ : أنا لم أقل غير ذلك ، فقد اختفت من بلاط صحابة الجلالة الصحافة كل الدوافع لخدمة المهنة . انكمش الصغار ، فى مكاتبهم ، وآثروا اختيار الطريق الأسلم والابتعاد عن طريق القمة ، أو بمعنى آخر سلموا أمرهم لله .

طالبة : هذا عن النفاق الصحفى .. وماذا عن النفاق فى المجتمع بصـفة عامة .. ؟

الأستاذ : ساقص عليكم قصة موظف متواضـع كان يتطلع الى المناصب العليا ويتعجل الوصول اليها . ولظروف خاصـة كان قادرا على أن يصل الى مواقع المسـئولين ، وقد احس ان النفاق يفتح الأبواب المغلقة ويعجل له بالترقى .

فبدأ يطرق الأبواب طرقا خفيفا . وينافق بوسائل مختلفة ، الى أن وصل الى الحد الأكبر الذى لا يتصور ، فكان اذا دخل على جمال عبد الناصر مكتبه خلع نعليه على الباب ووضعهما تحت ابطيه كما لو كان يدخل المسجد متعبدا .

طالب : وهذا التصرف الم يقابل بأى اعتراض ؟

الأستاذ : الحقيقة انى لا اعرف .. كل الذى أعرفه أن الرجل كان يفعل ذلك فى كل مرة .. وانه تسلق سلم النفاق الى المنصب الذى كان يتمناه .. وهو منصب بدرجة وزير .

طالبة : ولكن النفاق موجود فى كل مجتمع عربى أو غير عربى ؟

الأستاذ : لا خلاف فى ذلك .. ولكن أن يصل الى هذا المستوى . أو أن تكون الأجهزة العاملة فى مركز القيادة بهذه الصورة، فذلك دليل على نوعية « أهل الثقة » الذين فضلوا على أهل الخبرة . هل تستطيع أن تنكر ان الدولة حكمت بهذا المبـــــدأ ؟

طالب : لا اعارض فى ذلك ، ولا انكر أن اهل الثقة فضلوا على غيرهم ، ولكن هل كان اهل الثقة كلهم من هذا النوع ؟

الأستاذ : لقد كان من بين اهل الثقة من وصل الى مركزه بحـــكم قدراته ، ولكنهم لم يلبثوا أن اصطدموا بمن هم أقوى منهم .. فأبعدوا وانتهى الصراع الى ان ظلت دائرة أهل الثقة محصورة فيمن سموا فيما بعد باسم « مراكز القوى » وحملوا مسئولية كل الأخطاء التى قادت الى ثورة التصحيح فى ١٥ مايو ١٩٧١ .

طالبة : وهل نفهم من ذلك ان المجتمع المصرى قد انحدر الى الانصياع التـــام ؟

الأستاذ : بلا شك . وان كان لابد من ان نتســـاءل : هل تعتبر السلبية التى التزمت بها الأغلبية نوعا من الاستسلام أم لا؟

طالب : بلا شك ..

الأستاذ : والا يمكن ان ندخل فى اعتبارنا الدور الذى تلعبه لقمة العيش ؟

طالبة : كيف ؟

الأستاذ : الذى لا شك فيه ان الدولة تحولت الى قطاع خاص يملكه فرد واحد ، فأنت يوم تفصل من وظيفتك بسبب رأى ، ولم يكن أحد يفصل من وظيفته لغير هذا السبب . فان الأبواب كلها تغلق فى وجهك ، ذلك لأن المالك لكل شىء واحد ، وهذا الواحد هو الذى فصلك لغرض تأديبى .. فكيف يمنحك وظيفة أخرى أو سبيلا آخر تصل منه الى لقمة العيش ؟ .

طالب : أى ان الدولة الاشتراكية .. تحولت الى دولة احتكارية ، وبدلا من أن يكون الاحتكار فى يد قلة .. أصبح الاحتكار فى يد « واحد » .

الأستاذ : بالضبط .. اى ان مبدأ من مبادىء الثورة فى فترتها الأولى وهو « القضاء على الاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم » تطور ليصبح احتكارا لرأس المـــال .. بل ولأى فرد واحـــد .

طالب : ولكن هل تغير الوضـــع الآن ؟

الأستاذ : هذا سؤال وجيه .. واذا قلت لكم ان الوضع قد تغير تماما أكون غير صادق . وان كنا لا ننكر ان هناك محاولات لوقف تيار النفاق .. ولكن يجب الا ننسى أن الرواسب العميقة الثقيلة لا تزال بسرعة ، لقد كانت حياتنا كلهـــا فى الماضى . فى الصحافة . وفى المؤسسات قائمة على مبدأ النفاق . وكان النفاق هو العملة المتداولة ومن ثم فان التغيير يتطلب بعض الوقت .

طالبة : انى احس انك تحاول ان تحملنا مســـئولية كبرى .. مسئولية لم يكن لنا يد فيها .

الأستاذ : هذا هو قدركم . والانسان لا يستطيع ان يهرب من حـــكم القـــدر .

وانتهى الحوار فى هذا اليوم فى جو ساده الصمت الغريب .. كانت وجوه الشبان تنطق بالألم وتنطق بتساؤل كبير يحمل فى طياته حاجتهم الملحة الى المزيد من المعرفة والمزيد من الوقائع التى تفسر لمـــاذا حدث هـــذا كله .



الحوار السابع

قصص من الماضي

أصر الطلبة على أن يجرى الحوار السابع بعيـــدا عن أسوار الجامعة ، وفضلوا تغيير جو الجلسة لأنهم أحسوا بانتقال حوارهم الى معالجة أمور محددة ذات قيمة فى تقدير موقفهم ، ولهذا أيضا رحبوا بأن يكون معهم فى هـــذا الحوار الجديد مجموعة من غير الجامعيين ، وأن يشتركوا معهم فى تقـــديم ما عندهم من وقائع عاشوها وتأثروا بها .

وكان الاستاذ قد لمس فى الطلبة رغبة ملحة فى أن يسمعوا وجهات نظر مختلفة ، وأن تتسع حلقة الحوار ، وأن يمتزج الشباب بالذين عاشوا أحداث الماضى ويعيشون تطورات الحاضر ويتبادلون وجهات النظر والصراع حول هذه الأحداث كلها .

وبدأ الأستاذ الحوار بطرح مجموعة من الأسئلة التى تحـــدد معالمه ، وتقود الى نتائج ، يتقرر على أساسها ما يجب أن يكون عليه « الفرد » فى مجتمع جديد نبحث عنه .

وقال الأستاذ قد يكون من الصعب الدخول فى موضوع حوارنا اليوم من غير أن نتفق على مبادىء معينة تحددها الأسئلة التالية :

هل يجوز فى أية حالة من الحالات أن يتعرض الفرد لأى نوع من التعذيب البدنى أو النفسانى ؟

وهل يجوز أن يفقد الفرد حقه القانونى فى الدفاع عن نفسه بالغة ما بلغت ضخامة التهمة الموجهة اليه ؟

وهل يجوز السماح باختطاف الفرد من بين أولاده وأهله فلا يعرف له مصير فترة طويلة أو قصيرة من الزمن وما الحكم على الحالات التى يختفى فيها الانسان فلا يعرف مصيره ؟

وهل يجوز ان يسمح لأفراد قلائل يديرون جهازا للمخابرات بأن يتولوا ارغام الفرد بكل وسيلة من وسائل الارهاب والتعذيب على تسجيل اعترافات لا تمت الى الواقع بصلة ، وانما هى تنفيذ لخطة اجرامية ؟

وهل يجوز ان يتجمع زبانية فى زى رسمى للاعتداء على عرض سيدة تأبى أن تعترف بشىء ضد آخرين ؟

وهل يجوز ان تفرض حراسة بقرار من فرد على أموال فرد آخر فيصبح بين يوم وليلة لا يملك شيئا وأن على هذا الفرد ان يتحول الى متسول يمد يده بالسؤال ويستجدى ما يسد به الرمق ، رمقه ورمق أولاده الصغار والذين هم فى سن الرضاعة ؟

هذه بعض الأسئلة وليست كلها ، ومن المؤكد أن وقائع السؤال الواحد كافية لأن تحدد الى أى حد عاش الفرد المصرى فى ذل وخوف من أن تمتد اليه يد العدوان على كرامته وعرضه وشرفه .

ومن المبدأ لابد ان نسأل سؤالا هاما وهو : هل يمكن أن تشكل هذه الأجهزة الارهابية فى الدولة وأن تباشر عملها من غير علم رئيس الدولة ؟. واذا فرض ذلك فهل يمكن تجريد الرئيس من مسئوليته وتعليق الأخطاء على شماعة اسمها مراكز القوى .. ؟ ثم من هو الذى سمح بتكوين مثل هذه المراكز ؟ وهكذا ترون أن حوارنا الممتد يجب أن يستعرض بعض الوقائع التى تجيب على أسئلة الشق الأول .. ثم ننتقل للاجابة على أسئلة الشق الثانى .

طالبة : وعليك ان تقول بعد ذلك ماذا يكون موقفنا مستقبلا ؟

الاستاذ : فلنبدأ بالقصة الأولى ، انها قصة استاذ جامعى كبير بكلية حقوق القاهرة اسمه الدكتور عبد المنعم الشرقاوى ، رجل قانون ورجل علم من أسرة اختلفت مع النظام ، ففصل من الجامعة . ثم استقر كغيره من العلماء المهاجرين فى الكويت يحاول ان يكسب رزقه ونجح الرجل واستقر ، وان كانت مرارة الغربة او الغيبة عن الوطن ظلت متمكنة منه ..

وارادت قوى الشر ان تدخله فى مؤامرة .. او ان يشهد على آخرين لفقت ضدهم اشتراكهم فى عملية انقلاب وهمية .. وقبض على الدكتور الشرقاوى وهو فى زيارة لأسرته بالقاهرة .. وبدات عملية الاغراء للاعتراف على الآخرين. ولم يكن الرجل يعرف واحدا من هؤلاء الاخرين ، ولم يكن يعلم شيئا عن المؤامرة فتحول الاغراء — تدريجا — الى تعذيب بطىء ، ولكن الرجل احتمل فوق ما يستطيع أن يحتمل ، لأن تكوينه الشخصى والقانونى لم يكن يسمح له بأن يشهد ظلما ضد آخرين .

وجربت كل وسيلة من وسائل التعذيب والضغط النفسى فلم تفلح ، ولم يبق أمام الزبانية الا أن يخطوا الخطوة الأخيرة .. أن يهددوه بالاعتداء على أقرب الناس اليه .. ولم يكن التهديد كلاما يقال بل كادت الجريمة أن ترتكب أمام عينيه ، ولم يحتمل الرجل — ولم يكن ممكنا لأحد أن يحتمل — فصرخ صرخة مدوية أعلن فيها أنه على استعداد لأن يوقع لهم على بياض ..

وتنهد الزبانية كما لو كانوا قد حققوا انتصارا على العدو الرابض فى سيناء .. ونجحت الخطة .

طالبة : لست أصدق ذلك .. ولا يمكن لا نسان أن يصدقه ؟

الاستاذ : ان هذه القصة ثابتة ومنشورة فى « الأهرام » لأن روائحها فاحت وانتشرت لا فى مصر وحدها ، بل فى خارج مصر .. ومن هنا كان على المسئولين أن يتحركوا وأن يوضحوا أن الأمر موضع تحقيق وأنه قد تم بغير علم كبار المسئولين .. وكتب رئيس تحرير الأهرام محمد حسنين هيكل كلاما فى صحيفته يحاول به أن يدفع التهمة عن الذى أو الذين يجب أن تظل صورتهم فى التاريخ بريئة براءة الطفل الوديع . وهدات العاصفة بعض الشىء ...

طالبة : هذا فظيع .. ولكن الا يمكن أن يكون كل هذا قد تم بغير علم المسئولين الكبار مثلا .. ؟

الأستاذ : هكذا نعود الى طرح السؤال الكبير .. ولكن .. لو ان هذا كان يتم بغير علم كبار المسئولين .. لمــــاذا استمر ..؟ ثم الا يمكن أن يكون الجزاء الذى وقع على الزبانيـــة المسئولين انما كان لأنهم لم يتقنوا العملية بحيث تظل آثارها مخفية ؟

لقد كان المتبع عند اطلاق سراح المخطوفين أن ينبه عليهم بألا يتكلموا عن « فترة الضيافة » والا أعيدوا مرة أخرى . وكان مجرد تصور العودة الى تكرار هذه المغامرة كافيا لأن يجعل البعض منهم يقول : ان المعاملة كانت بالغة الانسانية . وهذا ما حدث بالنسبة للاستاذ عبد الله عبد البارى نائب المدير العام للاهرام ، فقد استضافته المخابرات بضعة أيام فى القبة ، ثم فى سجن القناطر الخيرية لأنه اجتمع مع بعض اخوانه بأحد أقرباء محمود أبو الفتح صاحب المصرى فى جنيف . وكانت الضيافة كريمة لأنهـــا اكتفت بنزع بعض أظافر القدمين كنوع من الشفقة .. ومع هذا وعندما أفرج عنه كان يقول دائما أن معاملته بلغت حدا كريما وأن طعامه كان يقدم له من جروبى ..

أما الآخرون من زملاء عبد الله ومنهم الأستاذ حمدى فؤاد المحرر الدبلوماسى للاهرام .. فقد خرجوا من السجن ولكن أى أحد منهم كان لا ينطق حرفا . ولايسمع كلاما . ولا يشهد أحدا ، اذ كانت الضيافة بالنسبة لهم أكرم من أن يجحدوها ، وبطبيعة الحال تحدثوا بهذا كله للاستاذ محمد حسنين هيكل رئيس تحرير الأهرام والذى تدخل للافراج عنهم ـــ ولكنه أحجم عن تقديم الشكر لجهاز المخابرات على صفحات الأهرام ..

والقصص من هذا النوع كثيرة . ولعل أشدها بشاعة هو الاعتداء الذى وقع على السيدة . . . . . واعذرنى اذا أحجمت عن ذكر اسم السيدة الكريمة . فان قصتها ، وان كان يجب أن تروى وقائعها الا ان الامر لا يحتاج الى ذكر اسمهـــا ، ويكفى أن يقال انهـــا كانت من الاخوات

المسلمات ، وكان لابد من أن يستخرج منها اعتراف بشأن وقائع معينة ، ولم يكن لدى السيدة ما تقوله ولكن لكى ترغم على الـــكلام فقد سلمت للزبانية يتصرفون كيفما يشاؤون ولعل فيلم الكرنك للكاتب الكبير نجيب محفوظ قد تحدث عن هذه الواقعة .

طالبة : انى أعترض على الاستمرار فى سرد كل هذه الوقائع .

الأستاذ : بل لابد من أن تفتح ملفاتها وأن تعرفوا جيدا أن الصمت الذى ساد البلاد ازاء كل ما كان يجرى لم يكن صمت الرضاء وانما كان صمت الخوف . اذ أن مرحلة الحكم كانت قد دخلت فى دور بشع ، وكان الهدف أن ينتهى الفرد الى الخنوع والخضوع . وأن تسير الطوابير فى الشوارع نردد الشعارات بلا وعى أو ادراك أو رضاء أو ايمان .. وانما بدافع الخوف والرعب والارهاب .

ومع هذا لا بأس من أن نروى قصصا فيها طرافة .. وان كانت فى نفس الوقت تكشف عن الوضع الذى وصل اليه المجتمع من تخبط وارتباك وعدم تمييز .. وأترك لأحد ضيوفنا أن يقص عليكم ما عاشه من وقائع .

احد الضيوف : لا بأس من الاستجابة لهذه الرغبة . وان كنا نحب أن نسأل « أى نوع من الحكايات تريدون الاستماع اليها »؟

الطالبة : (مترددة) ان حوارنا يدور دائما حول الماضى ، ما خفى منه وما كان السبب فى تحميل جيلنا مسئوليات كبرى نتيجة للأخطاء العظيمة التى ارتكبت فيه .. وفكرتنا فى هذا أن (نتعلم) وأن نتعظ وأن نكون على استعداد لمقاومة كل محاولة لتكرار تلك الأخطاء .

احد الضيوف : هذا كلام سليم جدا .. ولعل اهم بادرة تحققون بها هذا الهدف ، هو أن تتمسكوا بأن تظل حرية الرأى وحرية الصحافة فى منأى عن أى تدخل أو قيود .. هذا هو السبيل الوحيد لكى تظل نوافذ الحقيقة مفتوحة اذ

بدونها يبقى الستار الكثيف الذى رفع فى ١٥ مايو والذى حجب عنكم ما كان يرتكب فى الماضى .. وهذا الستار يجب أن تعطل امكانيات استعماله فى اى وقت .. ولو انه لم يكن ما وقعت بعض الأحداث المؤسفة . والتى راح ضحيتها المديد من الأبرياء .

طالب : مثل ماذا ؟

الضـيف : وهكذا نفتحباب القصص ، فاسمعوا القصـة التـالية ثم عليكم ان تحكموا وأن تدركوا أهمية انطلاق كلمة الحق على صفحات الصحف ، بلا توقف أو حدود .. فاسمعوا .

فى فترة من الفـترات ، انتقلت مهمـة الاشراف على مؤسـسة النقل فى القـاهرة الى شخصية عسكرية ذات نفوذ جبـار ، وحدث ذات يوم أن ركب مواطنان سـيارة أتوبيس ووقفا فى الدرجة الأولى ، وعندما جاء الكمسارى لتحصيل قيمة التذاكر رفض الراكبان ان يدفعا أجر الدرجة الأولى على أساس أنهما واقفـان .

قال الكمسارى : مستحيل . النظام العسكرى الجديد يحتم دفع الأجر بالكامل ..

ورد الراكبان : ونحن لن ندفع ..

وقال الكمسارى : ان التعليمات الآن غير تعليمات الأمس .. ونحن فى عهـد جديد .

واستمر الكمسارى : انه عهد الرئاسـة الجديدة .. ثم انك بهذا الاعتراض تضيع وقتى ، فاما أن تدفع التذكرة بالكامل والا .

الراكب : والا ماذا ..

الكمسارى : والا فلنذهب الى قسم الشرطة ..

وتحمس الراكبان واتجها مع الكمسارى الى قسم الشرطة .. ومن سوء حظهما ان السلطات المسئولة كانت تجرى عملية قبض واعتقال على أعضاء هيئة دينية ــ قيل وقتها انها خطر على الأمن ــ وتاه الراكبان فى زحمة ذلك اليوم . ثم ازداد حظهما سوءا عندما صدرت التعليمات بترحيل أعضاء الجماعة الدينية الى معتقل الوادى الجديد .. فاذا بهما يساقان مع الجميع ولم تنفع صرخاتهما من انهما « بتوع الأتوبيس » .. وانهالت الضربات عليهما لانهما يصران على أنهما ليسا من الجماعة الدينية وانهما « بتوع الأتوبيس » .

وشحن الراكبان .. مع المجموعات الهائلة من أعضاء الجماعة الدينية .. حيث عاشا فى المعتقل الجديد لا يعرفان مصيرهما ولا يعرف أولادهما « أين ذهبا » أو ما هو مصيرهما .

ومر عام ..

ومر عام آخر .. وآخر وصرخاتهما لا تجد من يستمع اليها .. وكلما قالا « احنا بتوع الأتوبيس » انهال الحرس عليهما ضربا، وكان الرد الوحيد «بتوع الأتوبيس ياولاد...» واستسلم الراكبان لقدرهما رغم مرور العام بعد الآخر بلا أمل فى الخروج من المعتقل ، لم تكن هناك ــ وسيلة ما ــ للاتصال بمن يدافع عنهما أو يخرجهما من المعتقل .

طالب يقاطع : واين كانت الصحافة .. ؟

الضيف : « **ناظرا لأستاذه** » الا يعرف أين كانت الصحافة .. ؟ كانت فى أجازة اجبارية ــ تماما مثل القانون ــ كان الصحفيون يستمعون الى هذه الصرخات فيتظاهر البعض

بأنه لا يسمعها .. ويسد البعض الاخر أذنيه وينصرف الى تحصيل لقمة العيش . وآخرون نبغوا فى الدعاية فحولوا مثل هذه المـآسى الى قصص يتسلون بها فى مجالسهم ، مجالس « مراكز القوى » لقد كان البعض من اعضـاء هذه المجالس يعقد جلسـات ليليـلة للاستمتاع (واكرر للاستمتاع) بسماع هذه القصص ، كما لو كانت من قصص الف ليلة وليلة .. بدأت .. واستمرت ولم تنته .. حتى اسدل عليها الستار فى ١٥ مايو .

طالبة : ولكن السؤال الهام الذى نطرحه دائما .. وهل انتهى ذلك كله ؟

الضيف : ربما .. وان كنت فعلا اود أن أقول ان هناك بوادر كثيرة تدل على ذلك ، وليس أدل على صحة كلامى مما نشر اخيرا فى « اخبار اليوم » فى صورة رسالة من سجين هو الوزير السابق شمس الدين بدران يدافع فيها عن نفسه بسبب نشر وقائع منسوبة اليه ، وهذه دلالة صحية على أننا على الطريق السليم .

الطالب : هل نعـود الى قصـة « بتـوع الاتوبيس » ماذا كان مصيرهما ؟

الضيف : **(ضاحكا)** صحيح .. كدنا ننسى . ان الذى حدث بعد ذلك اى بعد سنوات — أن السلطات الحاكمة بدأت تفرج عن أعضاء الجماعة الدينية .. وكان الافراج يتم على دفعات ، وبناء على اشارات تليفونية ترد من القاهرة ، واستغرقت عملية الافراج فترة طويلة الى أن « صفصف » المعتقـل على الاثنين بطلى قصتنا .

ونظر قائد المعتقل اليهما وتساءل « من أنتما » ؟

وصمت المعتقلان ، لانهما خافا من تكرار ما كان سـببا فى ضربهما .. واتصل قائد المعتقل بالقاهرة وتسـاءل لماذا لم يصدر قرار الافراج عنهما .. وأجابت القـاهرة بأن الكشف الذى لديها قد انتهى . وانها لا تعرف عنهمـا شـيئا .

ولم يجد قائد المعتقل الا ان ياخذهما معه ويذهب الى القاهرة .. وامام الضابط المختص سالهما : ايه حكايتكم مين أنتم ؟ ونظر احدهما للاخر .. وتشجع احدهما وقال « ما قلنا لكم .. دا احنا بتوع الأتوبيس » .

وعاد الرجلان الى منزليهما بعد سنوات طويلة من الغياب .. ولكنهما فى هذه المرة لم يركبا الاتوبيس ..

طالبة : هذا لا يصدق ؟

الضيف : ان هذه واقعة من عدة وقائع .. ولو شئتم أن تسمعوا الى « حكايات » أخرى تقطع القلوب فأنا على استعداد لأن نمضى معكم الى مطلع الفجر .

طالبة : وما الفائدة من الاستماع الى ذلك كله . ما دامت تروى على الألسنة ، ولا تسجل فى محاضر ..

الاستاذ : اى محضر تقصدين ؟

طالبة : محاضر المحاكم .. انه لا سبيل الى تحقيق عدالة كاملة ما لم يتحقق انزال العقاب بكل من ارتكب اثما فى حق مواطن .. مهما كان هذا المواطن .. اننا نطالب بمحاكمات علنية يقال فيها كل شىء .. ويكشف فيها الستار عن كل شىء .. اننا لا نقبل أقل من ذلك .. ردا لكرامة الذين اسىء اليهم .. لمجرد انهم « بشر » .

الأستاذ : هذا كلام سليم . واسلم منه ان نفكر كيف نسعى الى تحقيق هذه المحاكمات .. كيف نحقق تحركا شـــعبيا يفتح الباب لتقول العدالة كلمتها .. وتعيد للانسان الذى عذب واهين .. بعض حقه .. وبعض طمانينته واذا كان الوقت لا يسمح الان بأن نطرح أفكارا معينة فلننتقل الى قصـــة اخـــرى .

طالب : لست أوافق على الانتقال الى قصة أخرى .. بل انى أود التدخل مدافعا عن كل هذه التصرفات .

الأستاذ : هذا من حقك الكامل ، والا كنا فى وضع تناقض مفضوح .

الطالب : ان كل ثورة تحتاج دائما الى دفاع عن نفسها وعن مبادئها . وفى سبيل ذلك يجب الا تتوقف عن متابعة أعداء الثورة ، وهؤلاء يمكن أن يكونوا من الاقطاعيين القدامى الذين قامت الثورة للقضاء عليهم ، أو يمكن أن يكونوا من أدوات الاستعمار الذين يحاولون اثارة المتاعب فى وجه النظام ، وقد يكونون من أعداء الاشتراكية التى اتجهت اليها الدولة كنظام أساسى لا بديل عنه .. ان التاريخ عندما يتطـــلع الى دولة ما من أعلى لا يركز كثيرا على وقائع التعـــذيب والحريات بقدر ما يركز أولا على ما تحقق من نواحى الاصلاح العام .

الأستاذ : هذا كلام سليم ومنطقى ، ونحن فى حوارنا انما نتجــه هذا الاتجاه ، ولابد أن نصل فى النهاية الى تقسيم عام ونقارن مقارنة عادلة ، واذا كنا قد بدانا بكرامة الفـــرد وحرية الراى فما ذلك الا لأنهما عاملان من اهم عـــوامل تقييم المجتمع ككل ، وكل ثورة فى بدايتها ــ وما دامت مؤيدة من الشعب ــ انما تندفع فى اتجاهاتها وبكل الوسائل بشرط أن يكون ذلك لفترة محدودة .. تبدأ بعدها فى تعديل مسارها والعودة الى الحياة الطبيعيـــة خطوة خطـــوة وقد حددت الثورة أهدافها فى ست نقاط اساسية رتبتهـــا بالترتيب التالى : القضاء على الاستعمار واعوانه . القضاء

على الاقطاع . القضاء على الاحتكار وسيطرة راس المال على الحكم . اقامة عدالة اجتماعية . اقامة جيش وطنى. اقامة حياة ديمقراطية سليمة .

وواقع المجتمع المصرى ، قبل الثورة ، يقول انه كان مليئا بالأخطاء ولكن تاريخ هذه الفترة يؤكد ايضا ان محاربة الاستعمار كانت قائمة ومستمرة وتحتاج الى مزيد من الجهد . ومع هذا فان تحركات الثورة ، غير المدروسة ، قد ادخلها فى مغامرات ، أبدلت الاستعمار البريطانى باستعمار اسرائيلى .

كذلك كان الاقطاع شرسا فى ثرائه ، وسيطرته ، ولكنه بالقطع كان يقاوم بصورة مستمرة ، وكانت الصحف لا تتوقف عن متابعة وفضح تأثيره على الفرد ، بل ان محاضر مجلس الشيوخ زاخرة بالحديث عن الاشتراكية وتحديد الملكية الزراعية .. قد يقال ان الصوت الذى نادى بهذا كله كان خافتا ، ولكن البذرة كانت موجودة وكان نموها بطيئا ولم يكن مطلوبا من الثورة الا أن تمضى فى تحقيقها على أسس مدروسة بلا تخبط أدى فى النهاية الى أن تكونت طبقة اقطاعية جديدة تملك الثروات الطائلة، مما أعاد المجتمع الى صورته القديمة وجعل الناس يتساءلون من أين لهم هذا ؟ .. ولهذا كان لابد من تحرك جديد للقضاء على الاقطاع الجديد .

ثم ان عمليات التأميم التى بدأت فى صيف عام ١٩٦١ كانت الخطوة الأولى للقضاء على الاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم ، ولكن مرة أخرى نرى أن هذه الخطوة كانت أيضا غير مدروسة ولم يخطط لها التخطيط العلمى السليم . وفى نفس الوقت اتجهت الدولة بكلياتها الى مغامرات خارجية ــ قد تكون فى بعضها مدفوعة بدوافع قومية عربية ــ ولكنها ابتلعت كل ما استولت عليه من أموال التأميم وحولتنا الى دولة غارقة فى الديون الخارجية بحيث اضطرت الحكومات المتتالية الى اهمال كل المرافق

العامة وغيرها من المشروعات الأساسية ، صحيح أن هذه الخطوات ادت الى القضاء على الاحتكار ، الذى كان قائما قبل الثورة .. ولكنها حولته الى احتكار من نوع آخر . احتكار فرد فى أموال الدولة كلها يوجهها ـ بلا رقيب ـ لتنفيذ مغامرات لم تنجح .

أما عن اقامة عدالة اجتماعية . فلست أظن أنه كان مقصود منها العدالة التى تحقق المساواة فى الفقر والحاجة بل كان هدفها الأساسى أن توقف الانطلاق فى الثراء المقصور على قلة ، وأن تحدد الدخول مقابل أن ترفع من مستوى الطبقات المحتاجة بحيث يحس كل فرد أن هناك تغيرا فى حياته ومستواه . ولست أنكر أن محاولات ما بذلت لتوفير الدواء وتوسيع مجانية التعليم وتوزيع الأراضى الزراعية وكل هذه المحاولات امتزجت بعوامل معينة أثرت على فاعليتها ، أولها وأهمها عامل الارتجال وعدم التخطيط . وثانيها عامل العنف فى التطبيق ومفاجأة الناس باجراءات غير مدروسة مما أغرقه فى تشريعات سمحت لذوى النفوس الضعيفة من استغلال الدواء والعلاج والتعليم . والجمعيات التعاونية لفتح أبواب الرشوة والفساد على مصاريعها بحيث أصبح الفرد يتساءل : أهذا هو نعيم الاشتراكية التى وعدنا بها ؟ بينما الاشتراكية الأصيلة بريئة من هذا كله . لقد كانت الاشتراكية ـ وما زالت ـ هى العلاج الوحيد للمجتمع المصرى .. ولكن بشرط أن تطبق بلا هدم للعدالة الاجتماعية . وبلا انطلاق لطبقة محددة كى تثرى ويطلق عليها اسم طبقة الاشتراكيين الأثرياء .

ولا أريد أن أتكلم كثيرا عن الهدف الخامس للثورة وهو اقامة جيش وطنى قومى ، فان الحروب التى خاضها جيش ما قبل أكتوبر ١٩٧٣ ، توضح ـ بلا حاجة الى تقديم دليل ـ ان هذا الجيش الذى وعدت به الثورة لم يكن هو الجيش الوطنى القوى .

ويبقى بعد ذلك الهدف الأخير . اقامة حياة ديمقراطية سليمة . والرد على هذا موجود بينكم . وفى صحف الحائط .

وفى هتافاتكم . وفى مظاهراتكم . وفى التجارب الديمقراطية التى أثبتت ان الفرد الحاكم كان قد وصل الى مرتبة الايمان بأن هذه الحياة الديمقراطية لا تصلح له . ولا تحقق اهدافه .

الطالب : ولكنك تنسى فى هذا كله أمورا هامة . أولها اليقظة العربية فى المنطقة . السد العالى . القطاع العام وأثره على مقاومة التحديات .

الأستاذ : انا لا انسى ذلك ابدا . بل اعترف بها وان كان اعتراف متحفظا ، فكل ذلك كان يمكن تشكيله والاتجاه به الى أهدافه ولكن من قاعدة قومية . فلم يكن فى استطاعتى على الاطلاق تغيير الكيان العام كله فى يوم وليلة . ولم يكن بمقدورى ــ كدولة نامية ــ تريد أن تبنى نفسها من جديد، أن أحارب فى أكثر من جبهة ، وأن أقاوم العالم كله . ان أخاصم النظم العربية كلها متخلفة وغير متخلفة ، ان أدخل الحرب تلو الحرب وأن أوزع جيشى شرقا وغربا .. وان..

الطالب : (مقاطعا) ــ معنى هذا انك كنت تريد أن تتوقف الثورة ..

الأستاذ : لا . بل كنت أريد ان أقيم أولا قاعدة داخلية قوية غير متخلفة قادرة على الصمود فى وجه التحديات ، كان لابد من أن تكون جبهتى الداخلية نموذجا يحتذى فى اشتراكيتها . فى عدالتها الاجتماعية . فى متانة اقتصادها القومى . فى كرامة فردها . فى قوة صحافتها . فى قوة نظامها الديمقراطى فى خلو أراضيها من المستعمر الكبير فما بالك بالمستعمر الصغير « اسرائيل » .

ثم الم تكن مصر فى وقت ما أغنى دول المنطقة واكثرها احتراما .. فما الذى أدى الى أن تصير أفقر دول المنطقة ، كما قال رجل الثورة أنور السادات فى صيف ١٩٧٥ :

من هذه الزوايا .. يحكم التاريخ على فاعلية النظام . ومكانة صانعه وانجازاته الايجابية . ولسنا ننكر انه كانت هناك محاولات ، وكانت هناك نوايا . ولكن هل كانت المحاولات مدروسة أم بدائية لا تستند الى تفكير علمى سليم ؟ واذا كان التخطيط لهذه المحاولات الاصلاحية قد انطلق من نقطة لا علمية فما هو السبب ، واين كانت العقول المفكرة ؟ ثم اى النوايا كانت الصادقة .. نوايا الاصلاح الداخلى .. أم نوايا اقامة امبراطورية دون أن تتوافر عناصر اقامتها .. ؟ وهل نحن الان فى عصر تكوين الامبراطوريات أم التخلص منها ؟ ثم .. لو أن الانجازات التى حققها النظام كانت ملموسة وناطقة وقائمة مثلا ، هل كان الأمر يحتاج من رجل الثورة أنور السادات الى أن يقترح تكوين لجنة تقوم باجراء عملية تقييم لكل هذه الانجازات .. اليس وجود هذه اللجنة وقيامها يعنى أن الأمر موضع خلاف مستحكم ويحتاج الى تحقيق ودراسة .

طالب : ان الأمر ما زال فى حاجة الى مزيد من الكلام ومزيد من الشرح .. واذا كنا قد خرجنا عن مسار حوارنا .. فانى أقترح العودة الى وصل ما انقطع . على أن نتناول كل النقاط التى أثيرت فى خلال رحلتنا الى الحقيقة ..

أحد الضيوف : انا أوافق على هذا الرأى .. لأنى لاحظت أن كلام الأستاذ قد تعرض لأمر أساسى وهو التخطيط . ولو ان كل محاولة كانت مدروسة . أو كل النوايا الصادقة قد اتقن التخطيط لها . وطرحت أمورها على بساط البحث العلمى بحيث تتاح الفرص لكل العقول المفكرة المساهمة فى تقديم الفكرة أو الرأى ، لما انتهت هذه المحاولات الى ما انتهت اليه . وهذا بالقطع يرجع الى فساد فى اتجاه النظام .. وفى رأيى انه يرجع بالدرجة الأولى الى انعدام وجود الفرد فى المجتمع .

طالبة : ولكن هل كان التعذيب والارهاب الذى كانت تقوم به أجهزة المخابرات هو السبب الوحيد وراء اختفاء الفرد ؟

الضيف : لا . . بل كان هناك سلاح آخر كان أشد ايلاما وقسوة على المواطنين وهو سلاح الحراسة . فقد كانت تقضى بأن يوضع الشخص وكل ما يملك تحت سيطرتها . فتجمد أمواله . وتصادر كل ما يملك ثم يصرف له مرتب بسيط يعيش منه هو واولاده . .

طالب : ولكن هذه الحراسة كانت ضرورية لحماية الثروة من سيطرة راس المال على الحكم . فلم يكن معقولا أن يترك قلة من أصحاب الثروات يستعملونها لاثارة الفتن فى طريق النظام القـــائم .

الضيف : ولو انى ضد كل اجراء يمس حرية الفرد . الا انى لن أناقش حق الثورة فى أن تستولى على الفائض من الأموال وأن تفرض نفسها حارسة على الأثرياء ، فتحرم الكثيرين من الأبرياء من حقهم فى مال جمعوه بنزاهتهم وبعرقهم والأمثلة على ذلك كثيرة ، ولا يرجع ترددى فى مناقشة هذا الحق الى الموافقة عليه فربما كانت هناك سبل اخـــرى لتأمين الثورة من سوء استعمال هذه الثروات ضدها ، ولكن لأنى لا أريد أن أخرج بالمناقشة أو أدخل بالحـــوار الى متاهات وخلافات فى الرأى . .

ولكن اذا كان المبدأ فى الحراسة تأمين الثورة . فلماذا استعمل هذا السلاح ضد من لا ثروة لهم أو نفوذ ؟ لمـــاذا استخدم للقتل البطىء ، أو كما نقول للقتل على البارد ؛ ولماذا تطور جهاز الحراسة ليصبح جهاز لاذلال أصـــحاب الرأى ؟

طالبة : وهل من دليل على ذلك ؟

الضيف : من حسن الحظ ان لدينا مثلا مستكملا . بدأ بفـــرض الحراسة . ثم انتهى برأى قضائي عندما أعيد القـــانون من أجازته . واسمعوا القصة التالية :

قالت محكمة القضاء الادارى بالأسكندرية فى حيثيات حكمها بتعويض الدكتور رشوان فهمى نقيب الأطباء الأسبق والاستاذ بكلية طب الاسكندرية « ان كلمة النقد التى تصدر من موقع المسئولية وبدافع الغيرة على صالح الوطن وتقدمه لا تكفى لأن تكون سببا قانونيا لفصل الأستاذ الجامعى من الخدمة بغير الطريق التأديبى » .

وكان الدكتور رشوان فهمى استاذ الرمد السابق ونقيب الأطباء قد فصل من منصبه الجامعى ، وفرضت عليه الحراسة دون أن تذاع الأسباب وقتذاك .. ثم صدر قرار فى يونيو ١٩٧١ أى بعد ثورة التصحيح فى ١٥ مايو من العام ذاته بتعيينه أستاذا غير متفرغ بقسم الرمد ـ لأنه كان قد بلغ سن الاحالة الى المعاش ـ وبادر الدكتور رشوان فرفع قضية يطالب فيها بتعويض عن فصله .. وقد أصدرت محكمة القضاء الادارى برئاسة المستشار عادل البندارى وعضوية المستشارين عزيز بشاى وعصام علام وبحضور مفوض الدولة المستشار فوزى المنيلاوى حكما يقضى بالغاء القرار الجمهورى الصادر بفصل الدكتور رشوان فهمى من خدمة الجامعة والزام الحكومة بأن تدفع له تعويضا قدره ثمانية آلاف جنيه عن الأضرار التى لحقت به من جراء فصله بغير الطريق التأديبى على خلاف حكم القانون وفرض الحراسة عليه . وقد حضر النطق بالحكم حوالى ٣٠ من أعضاء هيئة التدريس بجامعة الأسكندرية ومجلس ادارة نادى الأساتذة .. وظهر أن وراء القرار الجمهورى بفصل الدكتور رشوان فهمى قصة :

ففى الأعوام السابقة لحركة التصحيح وقف الرئيس عبد الناصر يتكلم فى مؤتمر من المؤتمرات القومية فقال : لو ان شئون القصر العينى أديرت كما تدار شئون هيئة قناة السويس لأصبح لهذا المستشفى شأن كبير . وبلغ الأطباء هذا الكلام ، فلم يتكلموا ، ولو كانت هناك حرية رأى لنوقش مناقشة علنية . وفى مناسبة حفل عشاء أقيم بنادى الجزيرة الرياضى بالقاهرة ـ عقب هذا المؤتمر ـ

تكلم الدكتور رشوان فهمى بصفته نقيبا للاطباء فقال فى كلمته : لو أنه توافر لمستشفى القصر العينى الامكانيات التى توافرت لهيئة قناة السويس ، لأصبح لهذا المستشفى شأن كبـــير ..

واعتبر الرئيس عبد الناصر هذا الكلام الصادر من نقيب الأطباء تعريضا بما جاء فى خطابه أمام المؤتمر القـــومى ، فبادر فورا وبلا ابطاء واصدر قرارا جمهوريا بفصل الدكتور رشوان فهمى من منصبه كأستاذ للرمد بكلية طب جامعة الأسكندرية ، كما أصدر قرارا آخـــر بفرض الحراســـة عليـــه .

وسكتت الجامعات ولم تحرك ساكنا أمام هذا الرأى ، وعندما ذهب مندوب الحراسة الى سكن الدكتور رشوان فهمى بالأسكندرية ، ألقى نظرة على محتويات الشـــقة ، ثم سأله : هل هذا كل شيء « واجاب الدكتور رشـــوان ان بعضه لا أملكه ، أما عن حسابى بالبنك .. » فقاطعه مندوب الحراسة وقال « لقد كشفت عن هذا الحســـاب ووجدته مدينا » .. ثم سأله المندوب لمـــاذا فرضوا عليك الحراسة اذن ؟ »

وضحك الدكتور رشوان وقال « اسأل الذى اصـــدر القرار ولا تسألنى أنا » . ومما يجدر ذكره أنه حدث خلال الحفل الذى اقيم بنادى الجزيرة الرياضى ، وعقب ما قاله الدكتور رشوان — مما كان سببا فى فصله — ان بادر عدد كبير من المسئولين فتسللوا من الحفل هاربين ، حتى لا يقال انهم شركاء فى التصفيق الذى قوبلت به كلمة الدكتـــور رشــــوان .

وقد كان المسئولون الهاربون على حق فى تخوفهم ، لأن احد أساتذة كلية طب القاهرة وهو الدكتور عثمان وهبى تحمس لكلمة الدكتور رشوان أكثر من غيره ، فكان نصيبه كذلك الفصل والوضع تحت الحراسة مع أسرته المؤلفـــة

من زوجته واولاده الصغار .. ومرت الأيام وواجه الدكتور رشوان وضعه الجديد بشجاعة ثم حاول بعض الأطباء من زملائه أن يتوسطوا له — دون علمه — فقيل لهم انه لا مانع من أن يصرف مرتب الدكتور رشوان فهمى ، لكن على الا يعود الى تولى وظيفته كأستاذ بكلية الطب .

وظن زملاء الدكتور رشوان أنهم حققوا نصرا كبيرا .. فأسرعوا لابلاغه الخبر ، واستمع منهم الى القصة وهو صامت ولما انتهوا سألهم « هل طلبت منكم أن تتوسطوا » واجابوا : لا .. لم تفعل .

وقال د. رشوان : اذن كيف سمحتم لأنفسكم بذلك وانتم تعلمون انى لن أغير موقفى ، انى أرفض المرتب وأرفض الوساطة .

ولم ينفع الالحاح ولم ينفع الرجاء وظل الدكتور رشوان متمسكا بموقفه ، حتى قامت حركة التصحيح وفتحت أمامه أبواب القضاء فقال كلمته وسجل حق كل فرد فى أن ينتقد ، ما دام هذا النقد بدافع الغيرة على صالح الوطن . رحم الله الدكتور رشوان . فقد مات بعد أن واجه كل المواقف بشجاعة .

هذه وقائع كاملة تسمعونها لأول مرة عن قصة أستاذ شجاع . أستاذ لم يتهرب من مواجهة المسئولية وتحمل تبعاتها .. بل ان شجاعته ترجع الى أول أيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ عندما رأى أنه لابد من تأييد هذه الحركة فبادر الى ارسال برقية تأييد باسم اساتذة الجامعة قبل تكشف النتائج . لم يكن يعنيه أن يؤيد (الحاكم) بقدر ما كان يعنيه أن يؤيد (الفكرة والهدف) . ولهذا الموقف الشجاع اختارت الثورة جامعة الأسكندرية مكانا لاحتفالات المدينة بأعياد الثورة .. ومع هذا كان مصير الرجل الذى قاد هذه الحركة الجامعية أن شرد وفرضت عليه الحراسة لمجرد انه أبدى بعض ملاحظات .

وهذه القصة هى واحدة من القصص الشجاعة النادرة

التى سجلت فى تاريخ جامعاتنا ، ولعلها تكون — وبهذه النتائج التى حققتها حكم محكمة القضاء الادارى — فاتحة الطريق الى تجمع القوى الجامعية ، وادراكها ان كرامة الأستاذ الجامعى هى فى ان يقول الحق ، وأن يلزم نفسه بالدفاع عن كل ما يؤمن به .

لقد قدم رشوان فهمى المثل واصبح حتما على الجامعيين ان يقتدوا بالمثل .

الأستاذ : (متدخلا فى الأمر) ان هذه الواقعة ليست الوحيدة فى دنيا الحراسات الظالمة ، ولكن الباقى منها وهو كثير يكاد يتشابه . والذى احب ان أركز عليه هو أن المرحوم رشوان فهمى لم يكن عدوا للثورة ،بل كان منطلقا مع الثورة من بدايتها . ولم يكن غنيا ليقال انه عادى الثورة لأنها أخذت ثروته ، ولم يكن من أصحاب الاقطاع حتى يقال انه غاضب لأن أرضه قد ضاعت منه .. كل ذنب رشوان فهمى أنه كان يأمل الكثير من الثورة ، فأيدها من اللحظة الأولى ، ولما ضاع أمله بدأ يستخدم حقه للمساهمة فى تصحيح مسار الثورة .. واختار طريق المكاشفة والنقد . والمواجهة .. فكان جزاؤه العقاب ..

طالب : انت ترى أن نتوقف عند هذا الحد . وكما تعودت فانى أصارحك القول بأنى « متردد » فى التسليم بما تقول .. وأحب أن أستجمع طاقتى للعودة الى المناقشة فهل نترك ذلك الى حوار آخر .. وليكن غدا ؟

* * *

الحوار الثامن

حوار حول الحراسات

كان الاستاذ يتوقع ان يركز الطلبة حوارهم حول الحكم فى القضية التى رفعها الدكتور رشوان فهمى نقيب الأطباء الاسبق واستاذ الرمد بكلية طب الاسكندرية سابقا ــ والتى طالب فيها بتعويض عن الأضرار التى اصابته نتيجة لفصله من منصبه .

وكان توقع الأستاذ فى محله ، فقد كان الطلبة حيارى أمام هذه الأوضاع الشاذة التى كشف عنها القضاء بحكمة العادل ، وسجل فيه أن حق الأستاذ الجامعى فى ممارسة حق النقد ما دام ينبع من موقع المسئولية ــ يجب الا يمس ، وفى نفس الوقت كان الطلبة لا يفهمون ما هى هذه الحراسات التى كانت تفرض على «خلق الله» الذين لا يملكون ما تفرض عليه الحراسة .

الطالب : **(المتردد الذى عاش فى جو الأنغام والشعارات والأناشيد التى تتغنى بالانتصارات والحريات والأمانى الكبيرة) .** ان قصة الدكتور رشوان فهمى تثير تساؤلات كثيرة ، وانا لا اريد ان اطرح مبدأ النقد وحرية النقد الى آخر ما تعرضت له فى أكثر من حوار ولكنى اريد أن اسأل سؤالا عاما : ماهى هذه « الحراسات » .. صحيح أنك أشرت اليها اشارة عابرة ولكنى اطلب المزيد من الشرح .

الأستاذ : هذه الحراسات سمعت بها أول مرة خلال الحرب العالمية الثانية . فعندما قطعت مصر علاقاتهــا مع دولتى المحور ــ المانيا وايطاليا ــ وضعت اموال رعايا الدولتين تحت الحراسة . وكان معناها انه لا يجوز لهؤلاء الرعايا التصرف فى اموالهم ، وذلك على اساس اتخاذ الاحتياطات الضرورية لحماية امن الدولة الداخلى . ومع هذا وعندما انتهت الحرب

العالمية الثانية أعاد الحراس الأموال الى أصحابها . فقد انتهت مهمتهم . وانتهت فترة الطوارىء .

الطالب : ولكن ما هى الحكمة فى تطبيقها على « المصريين » ؟ وهل اعيدت لهم أموالهم أخيرا ؟

الأستاذ : هذا هو السؤال الذى قد نختلف فى الاجابة عليه . فقد ارادت السلطات الحاكمة أن تفرض هذا المبدأ وتطبقه على افراد من الشعب المصرى على أساس انهم ــ بأموالهم ــ خطر على أمن الدولة الداخلى .

طالبــة : وكيف يكون ذلك ؟

الأستاذ : لقد ظنت السلطات الحاكمة أن هذه الأموال التى يملكها الناس يمكن استخدامها فى تدبير مؤامرات ضد الدولة ولهذا كان يجب ــ فى رأيها ــ أن تؤخذ منهم . ومع هذا فقد سلبت هذه الأموال سلبا حتى أنه منذ رفعت الحراسات . ظهرت المآسى ، واتضح أن الكثيرين من المحروسين تحولوا الى مدينين . . كيف لست أدرى .

الطالب : (متسائلا) وهل فرضت الحراسات من غير أن يثبت أن هؤلاء يستخدمون أموالهم ضد الدولة ؟

الأستاذ : اجــل ، والدليــل على ذلك أن بين الذين فرضت عليهم الحراسات ــ وهذا ثابت فى الأوراق الرسمية ــ بعض الصغار حديثى الولادة .

الطالب : هذا غير معقول ؟

الأستاذ : بل هو ثابت كما قلت لك ، والسبب فى ذلك الخوف من أن يكون رب الأسرة ــ التى فرضت عليها الحراسة ــ قد كتب مالا بأسماء هؤلاء الصغار .

طالبـــة : اذن .. كانت الفكرة فى فرض الحراسة هى « التشفى » لا حماية امن الدولة .

الأستاذ : هذا صحيح فى حالات كثيرة . ومنها حالة الكتور رشوان فهمى . فهو لم يكن يملك شيئا ، بل هناك افراد فرضت عليهم الحراسة لأنهم « يكسبون » مالا حلالا ، ويؤدون لأمتهم خدمات كبرى ، ومنهم على سبيل المثال رجل عصامى اسمه « أحمد الطويل » من دمياط . فان هذا الرجل بنى نفسه بنفسه . وكان كريما اذا أعطاه الله قرشين . وهب نصفهما للفقراء المحتاجين من أهله وغير أهله . وفتح الله عليه أبواب الرزق ، وكان اذا وضع فكره وجهده فى مشروع صناعى ما ــ ولو كان فاشلا ــ عادت اليه الحياة .. وتدفق عليه الرزق من جديد .. وكان يباشر عمله لخدمة بلده . ولم يكن يهمه من يحكم مصر أو ما هى سياسة مصر ، كان يريد أن يخدم بلاده بصرف النظر عن أى اعتبار .

وجاءت الحراسات :

ووجد الرجل نفسه ، واسرته واولاده ، وكل من لهم صلة به تحت الحراسة .. ثم وجد نفسه يذهب اول كل شهر الى الحراسة « ليقبض مرتبا » لا يكفى لطعامه .. وكانت نظرات الرجل الحائرة تكشف عن مأساة . لم تنتــه الا عندما مات .. ولا أريد ان ازيد من آلامكم بأن اقص عليكم كيف كانت حالة هذا العصامى فى ايامه الأخيرة .. تلك مأســـاة .

طالبة : ولماذا لم يتقدم بشكوى الى جهة ما ؟

الأستاذ : اذا حددت لى « جهة ما » كان فى مقدوره ان يشكو اليهـــا فلك منى جائزة كبرى : لقد كانت كل الأبواب مغلقـــة ، حتى القضاء اقفلوا عليه الابواب ، على اساس ان كل قرار من فوق ، لا يجب ان يطعن فيه .. ولهذا شرد الناس .. وخربت بيوتهم .

الطالب : وهل من حالات أخرى ؟

الأستاذ : ان القائمة طويلة . والحكايات متشابهة . وان كانت هناك حالات خاصة ، هى أن شقيقا لأحد المسئولين تقدم لخطبة فتاة من أسرة فى الاسكندرية ، فرفضت الفتاة هذا العرض . وكان من السلطات المسئولة ان فرضت الحراسة على الأسرة بأكملها .

طالبة : مش ممكن .. هذا محال ؟ .

الأستاذ : لم يكن هناك محال .. لقد كان الهدف من كل هذه الاجراءات حماية النظام القائم ..

طالبة : (مقاطعة) ولكن النظام الذى يلجأ الى هذه الاجراءات لا يمكن أن يكون نظاما قويا . ؟

الأستاذ : انه الخوف .. أو لعلة الحقد . الحقد على الذين يملكون مالا حلالا . أو لعله الرغبة فى السيطرة على « لقمة العيش » وأن يصبح حق الحصول على هذه اللقمة محصورا فى ايد قليلة .. ان « لثمتها » فى الصباح أغدقت عليك النعم . وأن رفضت فمصيرك هو « الحارس » الذى تلثم يده أول كل شهر .

طالبة : ولكن من هو صاحب « الفكرة » المرعبة . ؟

الأستاذ : ليس من الضرورى — فى هذا المجال — ان نحدد من هو المسئول ، فان المسئولية كبيرة ومتشعبة .. وليس من الضرورى التسرع فى تجميع هذه المسئوليات كلها بغير اعداد « لعملية حساب كبرى » المهم أن هذه الحراسات قد رفعت أخيرا ، وعادت الطمأنينة الى القلوب . ولعل من أهم ما يجب ان ندخله فى اعتبارنا الآن هو أن نفكر فى الحيلولة دون الوقوع فى هذه النكبات مستقبلا وهذا

يتطلب دراسات اخرى ، وجلسات اخرى .. افلا نؤجل ذلك الى حوار آخر ؟ .

طالبة : بل ارى ان نمضى فى هذا الحوار ، فان الامر يحتـــاج الى مزيد من الشرح ، ومزيد من التحليل ، ولست اعنى شرح حالات الحراسة أو الاستماع الى مزيد من القصص ، بل اننا نريد التركيز فى تحليلنا على العقليات التى فكرت ، ودبرت ، ونفذت هذه التدبيرات القاسية المؤلمة ، فليس من المعقول ان يسند الحكم الى اصحاب قلوب خلت من الرحمة قلوب متحجرة . لاهم لها الا ان تقول لناس ان لقمة عيشكم فى يدى فأما ان تقبلوا أمرى او أن تجوعوا . ان اللهلايرضى بذلك ؟ .

الأستاذ : وهو لم يرض فعلا .. ولو انك تطلعت الى ما حولك لأدركت أن غضب الله كان واضحا .. ولقد أصبح أصحاب القلوب المتحجرة فى خبر كان .. ولعلك بعد ذلك توافقين على أن الكلام عن أصحاب هذه القلوب يحتاج الى معالجة موضوع آخر .

❋ ★ ❋

الحوار التاسع

الكرامة المصرية .. العائدة .. !

وكان الأستاذ ينوى فى هذا اليوم ان يحول زاوية الحوار ١٨٠ درجة . وأن يتجه به عكس اتجاهه القديم ، وأن يدعو طلبته الى أن يعيشوا معه ذكريات السنوات الأولى للثورة .

وكما كان رشوان فهمى متحمسا لفكرة الثورة من بدايتها ، كذلك كان الأستاذ أحد الصحفيين الذين لعبوا دورا فى تأييد الثورة بلا حساب .. وأحيانا بلا تفكير واع . فقد كان مؤمنا بأنه لابد من ثورة تغير الأوضاع الداخلية الى أحسن . وهو يؤمن أيضا بأنه لا قيمة للفرد اذا تناقض مع نفسه أو ظهر أمام الناس بأكثر من صورة . صحيح ان الجمود فى التفكير لا يفيد ، بل لابد للانسان من أن يطور نفسه مع الأحداث ، ولكن الأصح من هذا هو أن هناك مبادىء معينة لا يقبل فيها التغيير او التبديل مهما تكن الظروف ، وأهمها جميعا الالتزام بالنزاهة والكرامة والشرف ، لا بالنسبة لنفسه بل بالنسبة للناس الذين يتعامل معهم . والصحفى يتعامل مع جموع الجماهير فهو اذن مرتبط أمامهم بهذا الجانب من المبادىء وكل تناقض أو تصرف مخالف لها يعنى الكثير بالنسبة له ولمركزه .

وهو لهذه الأسباب ، وللرغبة فى أن يشرح لطلبته موقفه بالنسبة للثورة وبالنسبة لجمال عبد الناصر بالذات فقد حرض أحد طلبته أن ينبش هذا الجزء الأخير من الماضى ، وأن يفتح به هذا الحوار .

وبدأ الطالب سؤاله بقوله :

لقد تكلمت معنا كثيرا عن أخطاء عبد الناصر ونظامه .. أفلا تعتبر نفسك جزءا من هذا النظام خاصة أننا قرأنا لك كلاما كثيرا فى السنوات الأولى من الثورة .

الأستاذ : (مبتسما) ان الفترة التى تشير اليها هى فترة بالغة الاثر فى مصير هذا النظام . ولا انكر انى كنت من اشد المؤيدين لجمال عبد الناصر والمعجبين به . فلم يبدأ اتصالى المباشر به الا فى نهاية عام ١٩٥٤ ولعلكم تذكرون انه فى أوائل عام ١٩٥٤ كان الصراع على اشده بين فريقين من ضباط الجيش بسبب الخلاف على علاقة النظام بالأحزاب السياسية القديمة ، وبخاصة الاخوان المسلمين ، وقامت دعوة للمطالبة بعودة الجيش الى الثكنات، وانهاء الحكم العسكرى فورا . ولم تكن الثورة قد حققت شيئا من اهدافها بل كانت ضائعة فى تيارات قوية أغلبها عسكرى . ولست أنكر انى كنت أرى اعطاء الثورة فرصتها أو على الأقل ـ وهذا مسجل فيما كتبته بالأخبار ، فى مارس عام ١٩٥٤ ـ اعطاء الجيش فرصته كى يعود الى ثكناته معززا مكرما ، والا كنا ناكرين لجميل صنعه فى انه خلصنا من حكم الملك فاروق بل كنت أعارض بشدة فى طعن الذين خرجوا فى صباح ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وهم لا يعرفون أيعودون الى ذويهم أم لا يعودون . وقد تعرضت من أجل هذا الرأى الى هجوم شخصى شديد من جريدة المصرى التى كانت تتزعم الرأى المعارض .. وكانت الصحافة فى تلك الفترة تتمتع بجانب من حريتها أو لعل أحداث هذه الفترة أو الفوضى التى سادت البلاد قد سمحت بهذه المناقشات والمحاولات المفيدة .

وانى لا اذكر جيدا ان صديقى الأستاذ محمد زكى عبد القادر ـ أحد رؤساء تحرير الأخبار ـ قد مر فى تلك الليلة فى صالة التحرير وعاتبنى على موقفى ، وقال كلمة لا أنساها « ان النظام العسكرى واحد فى كل الأزمنة . وهو يوم يمسك بزمام الحكم فلن يتركه ابدا » .

فى تلك الفترة كان هناك خوف على حياة عبد الناصر حتى نصحه اخوانه بالاختفاء بعض الوقت فسافر الى الاسكندرية وظل فى شقة ضابط زميل هو القائمقام عبد الرؤوف نافع الى ان استقرت الأوضاع لفريقه . وانا

هنا لا اريد الدخول فى تفصيلات تاريخية هذا ليس مكانها. ولكن الذى اذكره ان جريدة الثورة الشابة — ولم يكن عمرها قد تجاوز عاما — كانت تعانى من سوء فى التحرير وهبوط فظيع فى التوزيع الى الحد الذى حمل جمال عبد الناصر على أن يدعمها من أموال خاصة بالقوات المسلحة . وجرى اتصال بينى وبين أنور السادات المشرف على الصحيفة وبين عدد من الصحفيين القدماء ، ومنهم محمد حسنين هيكل لانقاذها بتولى المشاركة فى الاشراف التحريرى عليها ، ولكنهم جميعا رفضوا .. وقد بذلت آخر المحاولات معى فلم أتردد فى القبول لأنى اعتبرت الطلب تكليفا يتحتم قبوله .. وما زلت أذكر أن كافة زملائى اعتبروا هذا العمل من جانبى انتحارا . بل جاءنى محمد حسنين هيكل بمكتبى بالاخبار وسألنى عما اذا كان ما قيل صحيحا، فقلت له بلا تردد « ان رفضكم جميعا المشاركة فى انقاذ جريدة الثورة يعد تهربا من المشاركة فى المسئولية وهذا الى جانب أن ذلك يولد فى نفوس قادة الثورة خاصة جمال عبد الناصر حقدا علينا جميعا .. » وابتسم هيكل ولم يرد . وتركنى وانصرف .

وفى صيف ١٩٥٤ كان أول لقاء طويل بين جمال عبد الناصر وبينى امتد الى ساعة متأخرة من الليل وكان ثالثنا هو الرئيس أنور السادات . وفى تلك الليلة تكلمنا فى كل شيء . وكان همى الأكبر ان أتعمق فى دراسة شخصية عبد الناصر . واشهد أنه شدنى الى جانبه بكلامه وآرائه واتجاهاته . ذلك لأنى توقعت الكثير . كان متواضعا . وكان منزله يبدو بسيطا . وكان يجلس مرتديا بنطلون « البيجامة » فقط . يتحدث فى الصحافة ، وفى الاستعداد لافتتاح الجامعات ، واحتمالات تحركات للطلبة ، وفى مشروعاته الداخلية .. وخرجت فى تلك الليلة مقتنعا ، بأنى لم أخطىء فى الاختيار . وانى استطيع ان افعل الكثير مع هذا الرجل . وكثيرا ما كان يثور لخطأ يقع فيه أحد المحررين ، ويصل غضبه الى حد الأمر بفصله فورا من عمله . ثم لا يلبث أن يعود بعد ساعة فيطلب فى هدوء

الاكتفاء بلفت نظر المحرر الى عدم الرجوع الى هـــذا الخطأ .

ووقع حادث محاولة الاعتداء عليه فى ميــدان المنشية بالاسكندرية فى يوليو ١٩٥٤ فاهتز الشعب لهذا الحدث ، واهـــتزت كذلك شخصية جمـــال عبد الناصر لانه لم يكن متوقعا ان يقابل صنيعه للشعب بهذا الجحود ، وهو الذى علم « الشعب العـــزة والكرامة » كما قال فى كلمـــاته القليلة الثائرة التى أطلقها من شرفة الاتحاد القومى بميدان المنشية . والواقع أن الشعب لم يكن فى حاجة الى من يعلمه العزة والكرامة ولكنه كان فى حاجة الى قيادة عاقلة تؤكد له عوامل العزة والكرامة .

طالب : وهل يمكن ان تنكر أن عبد الناصر هو أول من اعطى الشعب المصرى الاحساس بالكرامة ؟ .

الأستاذ : ان هذا التعبير الذى يتكرر على السنة الكثيرين على انـــه من ايجابيات النظام يحتاج الى وقفة طويلة لأنه يعنى ان شعب مصر قد عاش بلا احساس بالكرامة . وانا شخصيا بصفتى مصريا عاش فترة من التاريخ السابق للثورة يدرك أن شعب مصر قد عاش بالكرامة وللكرامة والذين يقولون أن عبـــد الناصر قد أعطى الشعب الاحساس بالكرامة معذورون لأنهم ولدوا على اصوات تؤكد هذا وتمسح التاريخ المصرى كله ، وتحرم تعليمه فى الكتب الا بالقـــدر الذى يسمح بتأكيد هذه الواقعة . كما أن بعض المخضرمـــين الذين ما زالوا يكررون هذا الكلام الآن ، يخافون أن يقولوا الحقيقة لأنهم يعتبرون أن الفترة الحالية امتداد لفـــترة عبد الناصر .

ومع هذا لا اريد ان افرض هذا الذى افرضه عليكم . بل ان دراسة التاريخ غير المزور هى التى تبين لكم الحقيقة هل كان الشعب المصرى على مدى تاريخه الطويل يحس بكرامته ام انها « منحت » له بقيام ثورة ٢٣ يوليو .

انه لا يمكن ان احاسب زعيما على كلام صدر منه بعد ان تعرض لمحاولة اغتيال مدبرة . ومع هذا عندما تحدثت مع عبد الناصر فى اليوم التالى سألت عما اذا كان صحيحا ان السفير المصرى فى واشنطن الدكتور أحمد حسين سبق أن أخطره بما عرفه ــ عن طريق الحكومة الأمريكية ــ من تدبير مؤامرة لاغتياله ؟ ولا أذكر ان عبد الناصر رد على هذا السؤال مباشرة ، فقد كانت له طريقة خاصة فى التهرب من الرد اذا لم يكن راغبا فى ذلك ، ومن المؤكد أن الحكومة الأمريكية كانت تعتبر جماعة الاخوان المسلمين من الهيئات غير المرغوب فيها ، بدليل أن محكمة الثورة حينما حكمت على رئيس الوزراء الأسبق ابراهيم عبد الهادى آخر رئيس للحزب السعدى بالاعدام أبلغت الحكومة الأمريكية سفارتنا فى واشنطن أنها ترى أنه لابد من تخفيف الحكم ، لأنه ليس من المعقول أن يحكم بالاعدام على الرجل الذى واجه الاخوان المسلمين بشجاعة ، وقد قام الدكتور أحمد حسين بابلاغ جمال عبد الناصر نص هذا الاحتجاج تليفونيا وفى اليوم التالى خفف مجلس الثورة الحكم ، وأبدله بالأشغال الشاقة المؤبدة .

واذا كانت شخصية جمال عبد الناصر الوديعة قد تطورت بعد هذا الحادث . فأصبحت الخصومة بينه وبين الاخوان المسلمين بالغة القسوة .. فان أحدا لا يستطيع أن يوجه اليه لوما ، اذ كان يرى آماله فى تحقيق أهداف ثورته ــ وهى لم تكن قد تحددت بعد ــ تكاد تنهار .

وقد تفرغ جمال عبد الناصر لمتابعة التحقيق مع مدبرى محاولة الاغتيال ، ولعلى لا أكون مخطئا اذا اعتبرت هذا الحادث بداية تكوين أجهزة مخابرات مختلفة تتولى عمليات استخلاص الاعترافات من المتهمين . فأنى أذكر انه طلب منى أن أبقى بمكتبى بجريدة الجمهورية فترات أطول من الليل ، لأنه كان حريصا على أن يملى على ما يبلغ اليه أولا بأول عن هذه الاعترافات لنشرها بالجمهورية ، وكثيرا ما كان يعطى سماعة التليفون لبعض الشخصيات البوليسية

التى كانت ترفع اليه تقارير كل يوم ، لاملائى بيانات اخرى وعندما بدأت المحاكمات كشف المتهمون عما تعرضوا له من وسائل التعذيب على يد هؤلاء الذين كانوا يبلغون عبد الناصر بتفاصيل الاعترافات أولا بأول .

طالب : ولكن هل كان عبد الناصر يعلم الوسائل التى استخدمت مع المتهمين لاستخلاص هذه الاعترافات ؟

الأستاذ : لا استطيع ان اجزم بذلك . بل سأفترض هنا أنه لم يكن يعلم ، أو أنه كان يعلم وفضل أن يسكت ، ولكى يكون حوارنا منصفا اقول ان عبد الناصر تكلم عن هذه التساؤلات كلها فى نوفمبر ١٩٦٨ أى بعد هزيمة ٥ يونيو بأكثر من سنة ونصف السنة . فقال فيما قال : « الانحرافات فى جهاز المخابرات التى تكشفت .. حصل انه اكتشفت انحرافات فى جهاز المخابرات ، وحينما اكتشفت ما سبنهاش ، اللى اشتركوا فى هذه الانحرافات اعتقلوا وتعرضوا للتحقيق وحيروحوا للمحاكمة وحيروحوا لمحكمة الثورة فيه ناس طبعا بيلقوا لوم هذه الانحرافات على النظام .. انا بدى أقول ان الانحرافات بتحصل فى كثير من اجزاء العالم .. المهم ان احنا نلحق نفسنا ونبتر هذه الانحرافات .. الانحرافات اللى حصلت فى هذا الجهاز وعرفتوها أو يمكن سمعتم عليها .. أكثرها انحرافات رخيصة .. ومش ده المجال اللى انا اتكلم فيه . حصلت فى كثير من اجزاء العالم امثلة متشابهة .. برضة جاءت لى جوابات .. ازاى انت ما كنتش وازاى الريس ماكانش يعرف باللى جارى وبهذه الانحرافات .. انا باقول النهاردة فرصة انى انا ارد على هذه التساؤلات يمكن أنتم بينكم وبين بعض اثرتم هذه التساؤلات .. اذا كانت الانحرافات حصلت فى المخابرات .. اذا كانت المخابرات هى المفروض انها تقول على الانحرافات اللى بتحصل فى البلد .. ما كانش ناقص الا انى انا اعمل مخابرات على المخابرات .. واعمل مخابرات على جهاز المخابرات وهكذا .. لا تنتهى .. يمكن انا باقول اللى حصل برضه كان نتيجة الاتجاه نحو مراكز القوة ، والاتجاه

نحـــو خلق مجموعة تستطيع انهـــا فى المستقبل تحكم ، ونسيت نفسها . فانحرفت وما وصلتش الى أهدافها اللى هو الحكم ، وجدت انه سهل الانحراف فانحرفت .

انا بأقول لكم بصراحة انى انا كنت ارى بعض مظاهر الانحراف قبل ٥ يونيو ولكنى لم اتصور مداه حاولت بكل ما استطيع ، نجحت أحيانا ، وانا فعلا كنت اشفق على البلد من تكتلات القوى ومراكز القوى .. وكان حـــديثى دائما أيام انتخابات الرئاسة وبعد كده وعندكم هنا ومرة جيت قلت لكم .. هل نعمل حزب او حزبين اولا ، ووضعت لكم مجموعة من الأســـئلة وكان حديثى عن الديمقراطية والمزيد من الديمقراطية ، الا ان ده كان السبيل الوحيـــد ان احنا نغطى على الانحرافات .

هو انا من تجربتى الماضية الناس بتخاف من اثارة اى شىء اما فى مجلس الأمة واما فى الصحف ، ولكن بعد كده ما بيهمهاش ان الشخص ينحرف والناس تتهـــامس مبيهمش .. طالمـــا الموضوع ما نتشرشى ما انفتحشى فى مجلس الأمة او ما انتشرشى فى الجرايد خلاص ، ولهـــذا انا أيضا مرة اتكلمت معاكم هنا على أساس احنا بحاجـــة الى مجتمع مفتوح ، لكن طبعا بتوع المخابرات كانتوسائل الاخفاء كانت مباحة بالنسبة لدولة المخابرات اللى وجدت، واللى تغلبت واللى انحرفت ، انا باعتبر ان هـــذه الدولة سقطت .. وان هذا السقوط مسألة فى منتهى الأهمية ، وانا اعتبرها من أهم الجوانب السلبية اللى تخلصنا منها فى سبيل تطهير الحياة العامة فى مصر » .

هذا هو كلام عبد الناصر ، واول ما يعنينى منه قوله ان: « الانحرافات بتحصل فى كثير من اجزاء العالم » اذ هذا كلام لا يقبل من ثائر جاء الى السلطة لأن الحكم الذى سبقه ارتكب انحرافات ، وقطع على نفسه عهدا بالقضاء على هذه الانحرافات ، هذا الى انه يعطى الحكم الملكى الحق فى الدفاع عن نفسه بهذا المنطق فيقول : ان الانحرافات

تحصل فى كثير من اجزاء العالم ، ومن ثم يجب أن ندرس هذه النقطة جيدا ونحللها تحليلا علميا سليما ، ولكم أتمنى أن يقرأ كلام عبد الناصر كله مرة ، وأخرى ، وأن يوضع مع ما كان يقوله قبل هذا فى الخطب والبيانات من أنــه « يعرف كل شىء » ولا يفوته شىء مما يجرى فى الدولة ، فقد قال ذلك فى خطابه الذى ألقاه بقاعة الاحتفالات بالجامعة فى ٢٣ يوليو ١٩٦٧ ، وقاله فى مناسبات كثيرة وهذا يدل على انه هو الذى يحكم ، ويستهزىء بكل ما كان يتردد عن مراكز القوى .

كل الذى استطيع استنتاجه ـــ ولا أقول تأييده ـــ هو أن عبد الناصر كان راضيا بما يجرى ، لأنه كان يشـــعر أنه يجرى منذ وقعت محاولة الاعتداء عليه فى ميدان المنشية بالاسكندرية الى أن تمت النكبة فى ٥ يونيو ١٩٦٧ بنجاح .. ومما يزيد الشك حول ما اذا كان عبد الناصر يعلم أو لايعلم انه عقب النـــكبة الكبرى بعام كامل اجتمعت الجمعيـــة العمومية لقضاة مصر وأصدرت بيانا فى٢٨ مارس ١٩٦٨ هز مصر كلها .

وأود قبل ان انقل اليكم تلخيص « مجلة القضاة » لهذا البيان ـــ الذى منع نشره فى الصحف ـــ أن انبهكم الى أن الناس كانوا قد فهموا أن أوضاعنا الداخلية ستأخذ طريقها الى التحسن ، فتزول المعوقات ، وينتظم الصف الداخلى تحت ظل الحريات .. وقد توقعوا وقوع ذلك . ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ، مما دفع الطلبة الى التظاهر بعنف ، ودفع بالقضاة الى ان يجتمعوا ويحذروا ، ودفع مصر كلهـــا الى أن تتحفز .. وهنا ولد بيان ٣٠ مارس الملىء بالعظات والوعود والامانى والحريات والمبادىء .. وكانت كلها من نوع المخدرات .. ولكن جسم الأمة كان قد امتلأ بالمناعة ضد هذه المخدرات ..

فماذا قال القضاة ؟؟ ..

قالوا : « ان القضاة هم ابناء هذا الشعب فلاحيه وعماله وجنوده ومثقفيه ومختلف فئاته يعيشون واقعه ويتمثلون احلامه » .

ولعل القضاة أحسوا بأنه لابد من تحديد هذه الصورة كى لا يقال أنهم من الاقطاعيين أو أعوان الاستعمار .. ثم مضى القضاة يقولون :

« ان صلاحية الجبهة الداخلية تقتضى أول ما تقتضى ازالة جميع المعوقات التى اصطنعتها أوضاع ما قبل النكسة أمام حرية المواطنين ، ليأمن الكل على حرياتهم ، وحرماتهم فلا تسلب أو تنتقص الا طبقا لأحكام القانون العام وحده . وبحكم من القضاء العام وحده وباجراءاته المتبعة أمامه وحدها » .

هكذا أعلن القضاة جميعا بما فيهم أولاد الفلاحين ، والعمال ، رأيهم فيما كان يجرى . ولأنهم كانوا يعلمون أن رجال النيابة لا يباشرون سلطاتهم كما يجب خوفا من العقاب أصدروا قرارا ثالثا جاء فيه :

« النيابة العامة جزء لا يتجزأ من السلطة القضائية المستقلة ، ويتعين أن يسرى على رجالها ما يسرى على القضاة من ضمانات ويتوافر لهم ما لهؤلاء من حصانات » .
وفى يوم وليلة ، وبدلا من أن يعطى لرجال النيابة الحصانات والضمانات المعطاة للقضاة ، امتدت الأيدى لتذبح القضاة وتفصلهم بالجملة .

فهل يمكن أن يتم ذلك الا بقرارات جمهورية ؟

وهل وقع جمال عبد الناصر على هذه القرارات دون أن يسأل عن السبب ؟ واذا كان السبب الحقيقى قد قيل له .. افلم يفكر كرئيس للدولة ــ أن يسأل عما جرى

ويجرى وعن سبب غضبة رجال القضاة .. ؟ هذه اسئلة اتركها لكم وللذين سيكتبون التاريخ .

ونرجع الى موضوعنا الأصلى فأقول : انه من ذلك الوقت بدأت الدولة تعد عدتها كى تتحول الى دولة بوليسية تتعدد فيها اجهزة المخابرات . وتتنوع وسائل التعذيب . ويتقدم الصفوف فيها هؤلاء الذين رأوا فرصتهم فى كسب مكان الصدارة ببلاط الرئاسة واقناع عبد الناصر بأنه لا سبيل لحماية الثورة الا باجراءات بوليسية بالغة العنف ضد من دعوا باسم « أعداء الثورة » .

وهذه الكلمة كانت مطاطة تسمح بعمل الكثير .. وبتأديب الكثيرين وباخضاع الكثيرين ..

طالب : لكن .. هل كان يمكن تلافى الالتجاء الى هذه الاجراءات ؟.

الأستاذ : من الصعب الاجابة على هذا السؤال بمنطق معقول لأن جبهة الخصومة للثورة كانت قد بدأت فى الاتساع . خصومة من داخل الثوريين أنفسهم . وخصومة من خارج الجهاز الثورى ، ولكن كان واضحا أن جمال عبد الناصر بدأ يتجه نحو تركيز السلطة فى يديه ، ويؤثر الشك فى الكثيرين من حوله ، وكان اول من تخلص منهم الرئيس السابق محمد نجيب .. ولو انه لجأ مع بداية رئاسته للجمهورية الى تكوين جبهة مدنية من حوله تخطط له وترسم خطا ثوريا معتدلا يقود البلاد الى التطور الذى كان الشعب يتطلع اليه .. لو انه فعل ذلك ما اضطر الى الانطلاق بالدولة فى الاتجاه البوليسى حتى انتهى الأمر بالثورة الى انها أكلت اولا .. اولادها جميعا .. ثم لم تلبث مع تطور الأحداث أن أكلت مبادئها أيضا .

طالبة : قد يعذر بانه لم يجد من المدنيين من يشاركه الراى الثورى .

الأستاذ : اهذا منطق يقبله العقل ؟ لقد كان الشعب كله يقف وراء

عبد الناصر ـ حتى مع قيام هذه الخصومات المتفرقة هنا وهناك ـ بل كانت كل العقول المصرية ـ التى لم يتأثر اصحابها بأى اجـراء ثورى من اجراءات تحـديد الملكية الزراعية وغيرها ـ على استعداد كامل للمشـاركة فى التخطيط وفى ارساء قواعد الانطلاقة الثورية الاصلاحية . ولا انكر أن عبد الناصر تظاهر بأنه حاول ولم يجد .. فأنى اذكر حديثا دار بينى وبينه فى تلك الفترة شكا فيه من أنـه لا يجد أحدا يعاونه فى العمـل أو يشاركه فى تحمـل عبء المسئولية الضخمة ، وقد تأكدت من سير المناقشة أنه لم يكن جادا فى محاولته . لأن الذين اتصل بهم أو اجتمع معهم لم يكونوا من النـوع الذى يصلح ، ولا شـك أن الذين اختارو له « نوع الرجال » هم من الذين أرادوا له أن يدخل دائرة العـزلة عن المجتمع ، وأن يبقى تحت سـيطرتهم البوليسية أو الفكرية .

طالب : وهذا ما كان يحدث فى كل الثورات ؟ .

الأستاذ : اذن فقد كانت هناك سوابق تاريخية كافية لأن تنبـه عبد الناصر ، الى أن الالتزام بهذا الاتجاه البوليسى سيؤدى حتما الى أوخم العواقب ، ويقود ثورة مصر الى ما انتهت اليه الثورات الأخرى . وهنا يجب أن نسأل : هـل كان عبد الناصر على مستوى المعرفة بهذا كله ؟ هل قـرأ التاريخ جيدا وحاول أن يأخذ منه العبر ؟ أم أن اتجاهه الى دراسة ثورة بيرون فى الأرجنتين ، وتمسكه بنقل مبادىء ديكتاتور البرتغال سالازار الذى عاش نظامه فترة طويلة يعنى أنه قد اختار النظام البوليسى قاعدة لانطـلاقه الى تحقيق أهـدافه الثورية ، ولو أدى الى اتساع قاعـدة الخصومة فى الجبهة الداخلية .

طالب : لقد كان بالقطع رجلا شعبيا ، لا يعنيه أن تخاصمه قلة ، ما دامت الارادة الشعبية ، تسنده بقوتها ؟

الأستاذ : هذا الكلام لا اعترض عليه الا فى أن هذا التأييد الشعبى

لا يصلح وحده لتدعيم نظام حاكم واحد ، لأن هذا التأييد له حدوده وله مقابله وهو : أن يحس الشعب بالتطور الى الأحسن . وهذا التطور لا يمكن أن يتحقق بتفكير فرد . بل بتفكير مجموعة ضخمة من العقول .. فهل كانت هذه العقول متوافرة فى بلاط الرئاسة ؟

طالب : بلا شك .. والا ما عاش النظام هذه الفترة وتحقق ماتحقق من انجازات ؟

الأستاذ : لقد سبق لنا أن تعرضنا لنوعية هذه الانجازات .. ولكن لا بأس أن نسأل سؤالا آخر : لو أن هذه الانجازات جاءت وليدة التفكير العلمى السليم . أفلم يكن ممكنا أن تكون أقل أخطاء وأكثر ايجابية فى خدمة المجتمع ؟ وكيف نفسر تأرجح هذه الانجازات بين الخطأ والصواب حتى هذه اللحظة التى نتكلم فيها . أى بعد ما يقرب من عشرين عاما ؟ .

ان هذا التصرف يذكرنى بقصة قديمة تتعلق بأحد أثرياء مصر ، فقد أراد فى بداية القرن العشرين أن يبنى لنفسه قصرا ، فاختار قطعة الأرض . ثم رسم بعصاه على الأرض الفضاء مسقط القصر . ثم أشار على العمال بالبدء فى البناء . وكان هذا الثرى يجد متعته فى متابعة البناء والاستمتاع بقصره ، وهو يرتفع شاهقا مدللا على عبقريته الهندسية التى لم يتعلمها من أحد .

وانتهى القصر .. واستعد الأهل والأصدقاء للاحتفال بافتتاحه ، واذا بهم يواجهون بالحقيقة المؤلمة وهى أن الثرى العبقرى نسى أن يشيد السلم الذى يسهل له ولأهله سكنى القصر والاستمتاع به ..

وهكذا فعلنا فى أواخر القرن العشرين .. بدأنا نبنى ونشيد ونفخر بما أقمناه .. ثم اتضح لنا أن العقول التى حققت كل هذه الانجازات كانت عقولا قاصرة عن فهم قيمة التخطيط العلمى الذى يوفر لكل مشروع أن يقدم للشعب العائد الذى يفخر به ..

فالعملية اذن لم تكن عملية انجازات تتم ، بل كان لابد ان تكون وراء هذه الانجازات من بدء قيامها العقول التى توفر لها كل امكانيات النجاح والبقاء .. وتقديم العائد الجيد الذى لا يسمح بأن يتسابق الناس لشراء البضائع المهربة . بعد أن ارتفع ضيق الجميع برداءة الانتاج المحلى .

طالب : وهل يصح ان ننسى أن العوامل والتحديات الخارجية قد لعبت دورها فى هذا كله ؟ .

الأستاذ : انا لا اريد ان أظلم جمال عبد الناصر فأقول انه المسئول عن هذا كله ، ولكنى أعود مرة أخرى الى التخطيط الخارجى الذى يحتاج الى عقل سياسى . قبل أن يحتاج الى عقل ثورى ، صحيح أنه كانت هناك تحديات وصحيح ان قضية فلسطين كانت قائمة بلا حل ، وصحيح ان قوتنا العربية الشعبية قد تضاعفت .. وصحيح أن مركزنا الخارجى قد أصبح يلفت الأنظار . ولكن علينا أن نسأل أنفسنا بعد ذلك كله .. هل كان يمكن أن يتم ذلك كله « طفرة واحدة » وجبهتنا الداخلية ما زالت فى حاجة الى عمل كبير ؟ أم انه بسبب عدم تحقيق نجاح داخلى اتجهنا الى المغامرات الخارجية التى تبهر وتثير ، ولكنها لا تدفع عائدا ؟ .

كل شعوب البلاد العربية استفادت .. الا الشعب المصرى ...

وبعد ان بدأ كفاحنا العربى الثورى لاستعادة حقوق شعب فلسطين ، انكمش هذا الكفاح وتركز فى استعادة حدود ما قبل نكسة ٥ يونيو ١٩٦٧ بينما الدول العربية مضت فى طريقها تبنى نفسها ، حتى أصبحنا بالنسبة اليها كالذى يمد يده ولسان حاله يقول « حسنة لله » .

لقد كان فى امكاننا أن نحقق كل أهداف الثورة . لو كان وراء خطواتنا عقول تفكر ، وترسم ، وتحدد الوقت المناسب ، واو لم يكن الجهاز الذى أحاط بعبد الناصر

وحاصره وارغمه على ان يعيش فى عزلة عن الحقائق ثم اتجه الى تكوين « طبقة جديدة » تثرى باسم الاشتراكية وتنعم بما كان يجب أن ينعم به الشعب أولا . ولست من الذين يقبلون القول بأن الأخطاء من صنع المحيطين بالزعيم ، وأنه غير مسئول عنها ، فقد قيل مثل هذا عن أخطاء زعيم الشعب مصطفى النحاس باشا يوم اسلم القيادة لزوجته والمحيطين به حتى جعلوا منه فى نهاية حياته السياسية رجلا من رجال الملك فاروق ضمانا لبقائه فى الحكم وتلافيا لتكرار الاقالات من الحكم . ان الزعيم الناجح هو الذى يعرف كل ما يدور حوله ويحاربه ويقاومه اما أن يسمع ويسكت فذلك مشاركة فى الخطأ . بل هو المسئولية الكاملة عن كل الخطأ .

طالب : اى انك تريد أن تحمل عبد الناصر كل المسئولية ؟

الأستاذ : اننا هنا نتعامل مع « الزعامة » فهى الواجهة . وهى المرآة التى تعكس افكار الذين يحيطون به ، فان كانت هذه الأفكار سليمة والاتجاهات بريئة فان الزعامة تظل سليمة وبريئة وقادرة على مواجهة اى خطأ واصلاحه .

ان « نوع الرجال » الذين يحكمون الشعب هم سند الدولة وقواتها ، وعظمة الرجال تنبع من تصرفاتهم بالنسبة لأنفسهم وبالنسبة للمحيطين بهم فى حالات ارتكابهم للاخطاء وقد كان السر الكامن وراء فشل الحكم المصرى فى «تلميع» انجازاته هو انه رفض التعامل مع عقول أهل الخبرة ، للشك فى نواياهم وتمسك بأهل الثقة . هؤلاء هم الذين قادوا البلاد الى ما هى فيه الآن . ونحن بهذا لا ننكر وجود محاولة انجاز أشياء كثيرة .. ولكنا نرفض ان يقال انه انجاز يستحق ما أنفق عليه .. وقد قاد البلاد الى هذا الخراب الذى تواجهه الآن وتحاول أن تعالجه ..

ان المشكلة التى تواجه مصر الآن .. هى مشكلة « رجال » .

*** ★ ***

الحوار العاشر

مشكلة الرجل

كان الطلبة وقد انتهوا من آخرمحاضرات فى مادة العلوم السياسية بدا عليهم الاجهاد ، ولكنهم يحاولون اخفاءه عن أستاذهم ، وكان بدوره يشفق عليهم من « رهبة الامتحان » ويشعر بأنهم مقبلون على فترة صعبة شاقة .. ومع هذا أحس بأن وراء هذا الاجهاد تحفزا واصرارا على أن يعقدوا جلستهم الأسبوعية .

وبدأ الأستاذ حديثه ..

الأستاذ : يخيل الي أنكم مجهدون غاية الاجهاد .. فان الصفرة تعلو وجوهكم .. والصمت يخيم على مجلسكم .. هل نؤجل حوارنا الى وقت آخر ..

طالب : بالعكس .. أننا نريد أن نستريح ، والحوار يريحنا ، ولو أننا وجدنا من أستاذنا فرصة ــ داخــل المحاضرات ــ لاجراء مثل هذا النوع من الأخذ والعطــاء وتبادل الآرا ما أحسسنا بثقل الدراسة فى المدرجات .

الأستاذ : ولكن ما يدور فى أذهانكم هو الامتحان والمذاكرة ، وقــد لا تكونون على استعداد لفتح موضوع .

طالبة : (**مقاطعة**) ــ اننا انتهينا الآن من مقرر العلوم السياسية . والموضوع الذى نريد أن نطرحه للحوار هو هذه الاستقالة التى هزت العالم الخارجى .

الأستاذ : تقصدين استقالة المستشار الالمانى فيلى برانت ؟

الطالبة : نعم . ان الرجل ، وسياسة الرجل ، واخلاصه ، كل هذا كان يملأ العالم برنينه ، وفجأة وبدون مقدمات ، تطلع علينا الصحف المحلية بأنه قدم استقالته .

الأستاذ : هذا أمر طبيعى .. اذ يبدو انه أخطأ ، والخطأ يجب أن يذهب ..

طالب : بهذه السهولة ؟ ثم ما هو نوع الخطأ الذى يجعل شخصية عالمية حققت انتصارات ضخمة يذهب هكذا بسهولة ودون مقدمات . ثم انه الرجل الذى فاز بجائزة نوبل للسلام . واجمع العالم كله على أن هـذه الجائزة قد اختير لها الرجل الذى يستحقها فعلا .. حتى خصومه اعترفوا له بهذا الحق ..

الأستاذ : هذا صحيح . ولكنه أخطأ . ولم يكن الخطأ بسيطا . فقد كان يعلم أن شخصا من المقربين اليه — أو ما نسميهم هنا « أهل الثقة » — لم يكن أمينا اذ كان يعمل — جاسوسا — لقطاع ألمانيا الآخر .

طالب : الا يكفى ان يطرد هذا الجاسوس ويبقى الرجل العظيم ؟

الأستاذ : ولكن الرجل العظيم أخطأ فى حق « الوظيفة » الكبرى التى يشغلها .. لقد تردد فى البداية فى اتخاذ القرار الحاسم بالنسبة لمن أخطأ .. فلما اتسع الموضوع وتفجرت الفضيحة قرر أن يذهب هو أيضا ..

طالبة : ولكن أليس لتاريخه العظيم شفيع فى هذا ؟

الأستاذ : قد يرى بعض افراد الشعب ذلك .. ولكن لأنه رجل عظيم . .قال فى استقالته : « اننى أتحمل المسئولية السياسية الكاملة للاهمال الذى أدى الى أن يصل الجاسوس جوبلوم (وهو اسم نائبه)الى منصب مساعد للمستشار .

وهذا الاعتراف نابع من عظمة الرجل ، بل انه دليل آخر يضاف الى الأدلة على أن عظمة الرجل لا تكون «مجرد كلام » بل تتضح فى التصرفات التى تصدر عنه ولو كانت ضده ..

طالب : ولكن الم يكن ممكنا أن تحل هذه المشكلة عن طريق احاطة هذه القضية بسياج من الكتمان ، فلا يقال للشعب عنها شيء أو تعرض الصحف على الشعب الوقائع التى لا تمس « الرجل العظيم » ؟ .

الأستاذ : هذا غير ممكن على الاطلاق « هناك » فى بلد تحس صحافته أنها هى أيضا مسئولية مسئولية كاملة أمام الشعب وأن عليها أن تقول كل الحقائق ، حتى ولو كانت مؤلمة ، قاسية ، وماسة « برجل عظيم » منحه العالم جائزة نوبل للسلام ..

طالبة : ولكن الصحف نشرت أن مظاهرات شعبية قامت تطالب بعدم ذهاب « فيلى برانت » ؟ .

الأستاذ : ليكن .. فان المظاهرات قد تكون « عاطفية » وقد تكون تمثيلا لفكرة أو اتجاه معين ، ولكن هذا لا يصرف الرجل العظيم عن مواجهة الواقع والتوارى عن الأنظار .

طالب : هكذا بكل بساطة .. أليس هناك « ميزان » يوزن به « ماله وما عليه » ؟ .

الأستاذ : ربما .. ولكن يجب الا ننظر الى الأمور بهذه البساطة ، ان « الرجل العظيم » يعلم أن فريقا — مهما صغر أو كبر — سينظر الى تصرفاته — لو بقى فى الوظيفة — نظرة غير كريمة ، وسيكون باستمرار عرضة لأن تكون تصرفاته موضع شك .. لقد جرحت كرامته .. وجرحت وظيفته .. واصبح يحس انه لم يعد الرجل الذى يستحق أن يبقى فى

وظيفته ، فقرر أن يخرج بنفسه قبل أن يضطر الى ذلك .. وهذه هى عظمة الرجال ، حتى مع الخطأ ..

الطالب : ولكن .. ومرة اخرى .. اليس للشعب كلمة فى هذا ؟

الأستاذ : ان الشعب يجب أن يتعلم من تصرفات الرجال العظام ، يجب أن يتعلم ان المخطىء لا يبقى ، بل يجب أن يذهب ، مهما بلغت قوته .. وبلغت منجزاته التى أعطته الحق فى أن يحكم المانيا ، وأن ينال جائزة نوبل للسلام وسط تصفيق العالم كله ..

الطالب : ولكن اليست خسارة لالمانيا ــ وخسارة للعالم « أن يذهب رجل عظيم » ؟ .

الأستاذ : ربما ، ولكن هذا الكلام قد يصدق فى بعض البلاد ولكنه لا يصدق فى بلد عظيم مثل المانيا ، ان الرجال كثيرون هناك ، فاذا ذهب واحد أو اكثر ، فلابد أن يظهر آخرون وبكثرة ، فالبلد العظيم هو الذى يمتلىء بالرجال القادرين على تحمل المسئوليات .

أننا قد نكون تحت تأثير الفكرة التى سيطرت علينا وهى أن الرجال هم البضاعة النادرة أو البضاعة التى يصعب الحصول عليها . ولكن هذه الفكرة لا تأثير لها فى بلاد لا تعتمد على الفرد .. بل تعتمد على الكيان الشعبى كله.

طالب : هذا صحيح .. ولكننا ما زلنا نرى أن المانيا بهذا القرار الذى اتخذه « برانت » ستواجه مشكلة حادة ؟

الأستاذ : مشكلة نعم .. ولكن فى اى ناحية ؟

طالب : أن تعثر على رجل فى قوة وكفاءة فيلى برانت .

الأستاذ : يبدو انى لم اكن واضحا فى شرحى .. ان المانيا .. وغير المانيا من الدول التى بلغت سن الرشد من زمان طويل

عامرة بالرجال . وهؤلاء الرجال على مستوى من الكفاءة قد يفوق كفاءة برانت ، ذلك لأن كيانها الداخلى لا يسمح بأن يكون مصيرها وقدرها فى يد فرد واحد ، اذا ذهب غرقت فى الفوضى وضاعت فى التيه .

ان مثل هذه البلاد لا تسمح بأن تكون تحت رحمة هذا الفرد .. بل ان الشعب نفسه — وهو الذى تظاهر بعضه من اجل برانت — لا يسمح بأن يذيب شخصيته فى « فرد واحد » لأنه يعلم أن هذا الفرد « بشر » ولا خلود للبشر .. ومن المؤكد أن برانت نفسه — وهو الرجل العظيم الذى يحب بلده — كان يكرس بعض وقته وجهده لكى يكون وراءه فى نطاق حزبه — وغير حزبه — الرجال القادرون على تحمل المسئولية من بعده فلم يوصد الأبواب أمام الآخرين لكى يظل هو الرجل الذى لا غنى عنه .. ولو فعل ذلك لحكمت عليه بلاده بأنه « الأنانى الذى لا يخدم الصالح العام » بل يخدع الرأى العام .. ثم ان هناك المبدأ الأهم وهو أن الرجل الحاكم لا يحقق أى انتصار الا بمن حوله ومن معه ..

فاذا كان جيشه السياسى من الرجال العظام استمد منهم الجزء الأكبر من عظمته . أما اذا كان من حوله ، من الضعاف الذين لا شخصية لهم فانه لا يستفيد منهم مايعظم به شأنه ، ولا يبدو فى منزلة : الرجل العظيم .

طالبة : هذه فلسفة أدخلتنا فى أوضاع لم نكن نعرفها ، ولم نكن نحس بها ، ثم هى فى الواقع أقرب الى المنطق .

الأستاذ : انه المنطق الذى يجب أن نتحرك صوبه . وأن ندرك أن الوصول اليه وصول الى بر الوفاق والسلام فلا تنزعج لأن فردا ذهب ، أو أن فردا أخطأ ، ومع هذا نرى أنه يجب أن يبقى لأنه لا غنى عنه ، بل يتحتم أن يكون لدينا احتياطى من الرجال المدربين على تحمل المسئولية .. فالدولة تقاس عظمتها بكثرة رجالها .. ولا تقاس عظمتها بأفراد .

طالب : ولكن لماذا تبدو مصر كأنها فقيرة فى الرجال ؟ هل كان ذلك هو السبب فى تظاهرنا من أجل فرد يوم ٩ يونيو ١٩٦٧ وبعد النكبة الكبرى ؟ لماذا كلما تعرضنا لأزمة أو مشكلة أو كارثة ، وجدنا أنفسنا نواجه نفس العقول . ونفس الوجوه ونفس الأشكال ؟

الأستاذ : لأننا حكمنا فى هذه الفترة بمن امتلأت قلوبهم بالشك فى كل الناس ، الاقلية اتقنت النفاق واتقنت التظاهر بأنهم أهل ثقة .. ونتيجة لهذا هربت العقول التى تعرف ، وبقيت الوجوه التى تعرف كيف تغير من جلدها .. بين وقت وآخر ، وسميت « أهل الثقة » .

وأنا هنا احب أن اضع امامكم واقعة يرويها وزير سابق ومسئول . وهى توضح لماذا حرمنا من الرجال .. ولماذا هرب الرجال من مصر .. أو من ميدان العمل والتزموا جانب السلبية .

فى مقال نشر بالاهرام فى ١٩٧٥/٩/١٩ للدكتور محمد حلمى مراد وزير التربية والتعليم الاسبق تحت عنوان « التغير المنشود ــ فى المناخ والاسلوب ام فى الاشخاص والعقول » ــ جاء فيه واقعة توضح أن الرئيس جمال عبد الناصر كان اذا تعرض لمواجهة أو لأزمة حاول مسايرة التيار وتظاهر بالتعامل مع افكار الناس ومقترحاتهم ، فاذا هدأت العواصف يرجع عن كل شىء يعد به أو يتظاهر بالتفكير فيه كخطوة للاصلاح .. يقول الدكتور محمد حلمى مراد :
« وهنا يقفز الى ذهنى جانب من الحديث الذى دار بين الرئيس الراحل جمال عبد الناصر وبينى عندما كنت مديرا لجامعة عين شمس ــ وقبيل الاشتراك فى الوزارة ــ فى لقائه مع مديرى الجامعات فى ٧ مارس ١٩٦٨ بمكتبه فى قصر القبة فى اعقاب مظاهرات الطلاب المنادية بالتغيير ــ اثر صدور الاحكام فى قضية مسئولية قادة سلاح الطيران سنة ١٩٦٧ عن الهزيمة .

قلت للرئيس الراحل ــ ضمن ماقلت : سمعت من السيد / سامى شرف ان برقيات وصلت باسمكم يقول

مرسل احداها ـ تعليقا على الاحكام الصادرة والتى اعتبرها من وجهة نظره خفيفة ـ « الى متى تظل رحيما ياريس .. » فأوحى الى هذا المعنى أن ارسل لكم برقية اقول فيها « الى متى تظل وفيا لمن يعملون معكم مهما اساءوا أو انحرفوا » .. فاعترض الرئيس عبد الناصر منكرا ذلك وطلب ذكر بعض الأمثلة ، .. وعندما ذكرت له بعض الاسماء ، اعطى رحمة الله سببا لديه للابقاء على كل منهم فى منصبه مما لا محل لتفصيله فى هذا المقال ، وعلقت على ذلك بأن هناك وسائل أخرى للاستجابة لهذه الاسباب دون أن يعهد اليهم بمناصب لا يحسنون الاضطلاع بهـا .

وهنا سألنى الرئيس عبد الناصر ـ وهذا هو بيت القصيد من موضوعنا ـ « هل التغيير المطلوب هو تغيير فى المناخ والاسلوب أو تغيير فى الاشخاص » ؟ فأجبته بأن المطلوب هو التغيير فى الامرين معا .. فان تغيير الاشخاص مع استمرار المناخ غير الصالح ، والاسلوب المعوق ، يجعل الاشخاص الجدد عاجزين عن التجديد والتطور شأنهم فى ذلك شأن قطع الغيار الجديدة التى تركب فى آلة فاسدة فانها لن تصلح من حالها ، بل قد تنكسر قطع الغيار كما أن تغيير المناخ والاسلوب مع بقاء نفس الاشخاص بما عرف عنهم من اتجاهات غير مقبولة شعبيا ، وما اعتادوا عليه من مفاهيم وقيم يراد تغييرها ، لن يجدى فى كسب ثقة الناس أو احداث التغيير المطلوب فى اسلوب العمل .

ويبدو ان الرئيس الراحل اقتنع وقتئذ بهذا الرأى ، فضمن بيان ٣٠ مارس برنامج التغيير مشـيرا الى ان التغييرات سـتتخذ فى المناصب القيادية ، ومقررا « ان الكثيرين ممن يشغلون هـذه المناصب أدوا مسئولياتهم بجدارة واستحقاق ، ولكن بعضهم لم يكن على مستوى المسئولية سياسيا وتنفيذيا ، ومن الضرورى عليهم وعلينا افساح المجال للاقدر والاجدر .. ولكن التغيير يبقى بعد ذلك أكبر من أن يكون مسألة اشخاص .. ان التغيير

المطلوب لابد له ان يكون تغييرا فى الظروف وفى المنـــاخ والا فان اى اشخاص جدد فى نفس الظروف ، وفى نفس المناخ سوف يسيرون فى نفس الطريق الذى سبق اليه غيرهم .

واذا كان الاصلاح المأمول بعد بيان ٣٠ مارس لم يتحقق ، فانما يرجع ذلك الى عدم تنفيذ ما جاء بالبيان تنفيذا كاملا وبالسرعة الواجبة لتغيير المناخ والاسلوب من ناحية ، والى عدم اجراء التغيير الذى كان ينبغى ان يتم فى الاشخاص الذين تطبعوا بالاساليب والمفاهيم التى ثبت فشلها من ناحية اخـــرى واستمروا يحتلون الكثير من المـــراكز القيادية والحساسة فى البلاد » .

انتهى كلام الدكتور حلمى مراد .

طالب : ان حوارنا اليوم قد اعادنا الى ختام حـــوارنا السابق ، ويدعونا الى أن نسأل : هل جف حقل الرجال عندنا فى مصر .

الأستاذ : ان الحقل قائم وغنى بالتربة ولكنه يحتـــاج الى عملية رى مستمرة ودائمة ، فهو يحتاج الى حرية راى بلا حدود والى توافر الثقة بين الحاكم وأصحاب الراى ، والى ارساء قواعد نظام سياسى جديد يكون وليد مناقشات مفتوحة تختار أحسن النظم لتحقيق الارادة الشعبية والتخلص من حكم الفرد ، وفوق هذا كله يحتاج الى ثورية فى النزاهة والتعفف عن الكسب الحرام . فما من نجاح لنظام يسوده الفساد وتهرب اموال الشعب الى خارج البلاد لتودع فى حسابات سرية . وهو ما سنتكلم عنه تفصيلا فى حوار آخر .

طالبة : لقد تكلمنا عن كل شىء .. الا عن هذا الذى يقود كل نظام الى الانهيار وهو الفساد والرشوة . وان كل ثورة جديدة تضع على راس برامجها ان تقضى على هذا الفساد وعلى هذه الرشوة .. ثم لا تلبث ان نرى النظام الجديد يغرق فى نفس الخطأ فما هو السر فى هذا كله ؟

الأستاذ : السر يكمن ايضا وراء النوع من الرجال الذين يتسلقون الى بلاط السلطة .. الحاكم أو الزعيم . فكلما كان معدن

هؤلاء الرجال ثمينا قلت فرص الفساد والرشوة ، واصبح الحكم متفرغا للخدمة العامة .

طالبة : ولكن لا يحدث هذا ابدا ؟

الاستاذ : لاننا لا نفهم — ولا نحب أن نفهم — ان الحكم تكليف من الشعب ، والرشوة والفساد موجودان فى كل بلد . ولكنهما فى بلد غيرهما فى آخر . ففى البلاد الديمقراطية التى تتوافر فيها كل وسائل الحساب شعبيا وصحفيا وبرلمانيا يلقى كل مفسد جزاءه مهما يكن قدره أو مكانته السياسية وغير السياسية . والجزاء يريح الناس ويطمئنهم الى أن الجميع امام القانون سواء .

وفى البلاد الشيوعية التى يدين فيهـا زعماؤها بقيم ومبادىء معينة وتقوم فيها قيادة جماعية من الصعب أن يقع الفساد والرشوة . صحيح أن بعض الجالسين فى المقاعد الامامية قد ينعمون ببعض المزايا ولكنها ليست المزايا التى تثير فى الشـعب عوامل الحقـد والكراهية والضيق .

أما فى البلاد التى يحكمها فرد والتى تأتى فيها الحكومة وليدة ثورة أو انقلاب وتختفى فيها حرية الصحافة ، والرقابة الشعبية وتنعدم قيمة الفرد .. فى هذه البلاد يتسابق أصحاب السلطان نحو تحقيق الثراء العاجل .. وهو قد يسمى اذا انكشف الضمان لاستمرار الثورة أو الاستعداد لمناهضة أى ثورة مضادة . ولكن كل الثورات والثورة على الثورات .. اثبتت ان هذا كلام لا اصل له . وان هذا المال يسلب من الشعب ويصبح من حق اليتامى اذا ذهب صاحب الثراء الاشتراكى للقاء ربه .

طالبة : قبل ان ندخل فى موضوع الثراء والكسب غير المشروع وغير ذلك من المسميات التى تتفرع من هذه النظم الحاكمة فانى احب أن نرجع خطوة الى الوراء ذلك لانى — مرة أخرى —

لا افهم لماذا يحيط الزعيم نفسه بمن لا يفيده بالرأى والفكرة والتخطيط ؟

الاستاذ : ان القول بأن الزعيم يحيط نفسه بمن لا يقدم له المشورة السليمة قول غير صحيح . فهو يحيط نفسه بمن يرتاح الى موافقتهم على رايه . وهؤلاء فى نظر الزعيم الذين يرتاح اليهم . اما الذين لا يوافقون على رأيه فى بعض الحالات او يناقشونه الرأى فهؤلاء يعتبرون غير متفاعلين أو متجاوبين ، ويكون المصير طلاقا بين الطرفين .

طالب : وهل من هنا خرجت كلمة « مراكز القوى » ؟

الاستاذ : ربما نعم . وربما لا . ان هذه المراكز التى حاول الكثيرون تعليق كل الاخطاء عليها تحتاج الى كلام كثير وبحث عميق ، وهى ليست كلمة جديدة علينا أو على الآخرين بل هى موجودة فى كل مكان ، ولكن قوتها أو سيطرتها ترتفع أو تهبط وفقا لاوضاع معينة ، لعل منها أو لعل اهمها قدرة الرئيس وشخصيته ومن ثم اقترح ان نؤجل الكلام عن هذه المراكز الى ما بعد .. بعد ان نستعرض احوالنا .. ثم نطرق هذا الباب الخطير .

ان من رايى أن نفتح حوارا حول الكسب غير المشروع. حول هذا الثراء الاشتراكى الذى أدى الى تكوين طبقة جديدة من اصحاب رأس المال الحرام وجعل الشعب يصاب بصدمة شديدة لم تتكشف كل جوانبها الا بعد ٥ يونيو .

فلنؤجل ذلك الى جلسة أخرى .

* * *

الحوار الحادى عشر
الثراء الاشتراكى

وكان الأستاذ يغادر حجرة « الكونترول » بالكلية عندما أسرع اليه بعض طلبته يسـألون عن موعد ظهور نتائج الامتحانات ، وقد أجاب بأنه كان يسلم أوراق الاجابة الخاصة بمادته بعد تصحيحها ، وانه لا يملك معرفة موعد اعلان النتائج بصفة عامة .. وان كانت بالتأكيد لن تتأخر عن الأسبوع الأول من اغسطس .

وبادر طالب بسؤاله ، اذن فلدينا الوقت الكافى لمواصلة حوارنا حتى ننتهى منه قبل اجازة نهاية العام الدراسى ؟

الأستاذ : بالقطع لدينا الوقت الكافى .. ونحن على موعد للكلام عن الثراء الاشتراكى أو الثراء غير المشروع .

طالبة : لقد لاحظنا .. مع بدء ظهور النتائج فى الكليات الأخرى ان الحديث بدأ يتكرر عن النبوغ المفاجىء الذى يهبط على أولاد الأساتذة ؟

الأستاذ : ان الاسترسال فى هذه الحالات اتجاه غير سليم ، وهو تجريح بطلبة يستحقون ما يحصلون عليه من تقديرات .

الطالبة : وهل تعنى بذلك انه لا مجاملات فى نتائج الامتحانات ؟

الأستاذ : لابد ان نفترض ذلك .

طالب : (مقاطعا) لقد قرأنا اخيرا عن تجدد الكلام لمحاولة بعث الحياة فى قانون اسمه « الكسب غير المشروع » فهل شرع هذا القانون لملاحقة الذين يحققون كسبا حراما ؟

والا يعد ذلك التشريع دليلا على أن الدولة مظلومة اذا هى اتهمت بتشجيع الثراء الاشتراكى وتكوين طبقة جديدة من الاقطاعيين الاشتراكيين كما تسميهم ؟

الأستاذ : ان هذا القانون — أو التفكير فى هذا القانون — قديم ، اقترحه بعض الذين كانوا يحاربون الفساد قبل الثورة فلما قامت الثورة واصلت اعداده ثم أخرجته الى الحياة .

طالبة : ولكن يبدو انه لم يكن له اى تأثير .. فما زالت حالات اثراء تعلو .. وتعلو ..

طالب : (**مقاطعا زميلته**) : ولماذا لا تقولين انه ليس هناك هذا الذى تسمونه ثراء اشتراكيا .. وان الثورة نظيفة ناصعة البياض ؟

الأستاذ : (**مبتسما**) اذا كنت تقول ذلك عن اقتناع فأنت لم تتعمق البحث . وقد كنت أفضل ان نقول ان الثورة نظيفة وان ما يصفه الناس بأنه ثراء اشتراكى ما هو الا اخطاء الصغار .

الطالب : هذا ما اردت ان اقوله فعلا .. ذلك لأن اطلاق الاتهام بغير حدود ينطوى على الظلم وتزداد به الاساءة الى الثورة فى هدف من اعمق أهدافها ، ثم ان هذه الأخطاء تقع فى كل ثورة .. والمهم الا يلوث الكبار انفسهم بها لأن تأديب الصغار وبترهم لن يضر الثورة فى شىء . وهى تضار اشد الضرر اذا مست الأخطاء أقطابها وزعماءها .

الأستاذ : هذا كلام عميق قوى المنطق يقودنا الى طرح عدة تساؤلات بحثا عن الحقيقة ، فأنا اتفق معك فى انه ما دامت الرؤوس نظيفة ، فان امر الصغار يهون .. وبخاصة اذا كان هؤلاء الصغار يلقون جزاءهم الحق بعد ان يثبت قضائيا انهم استغلوا مراكزهم لتحقيق دخول غير مشروعة.

واول هذه التساؤلات التى نطرحها للمناقشة هو : لماذا كانت الحاجة ملحة الى تشريع يمكن من الامساك بأصحاب الدخول غير المشروعة .وتوقيع الجزاء على كل من يستغل مركزه لتحقيق ثراء مشكوك فيه ؟

الطالب : لأن الثورة جاءت للقضاء على الفساد والرشوة ، ومن هنا كان يجب أن تبدأ بتشريع يمكنها من ذلك .

الأستاذ : عظيم . ولكن اذا كانت الثورة ذاتها قد وجدت نفسها بعد فترة طويلة من حياتها ، وبعد أن قضت على الاقطاع القديم ، ووضعت كل مؤسسات الدولة تحت سيطرتها المباشرة ، وحددت المرتبات السنوية بحيث لا تزيد على خمسة آلاف جنيه ، واذا كانت قد ميزت رئيس الجمهورية فجعلت مرتبه ستة آلاف جنيه .. اذا كانت الدولة قد وجدت نفسها تواجه حالات من القلق الشعبى والتذمر العام والأقاويل الكثيرة عن ثراء يحققه هذا أو ذاك من المحظوظين فاضطرت أن تعيد الحياة الى تشريع الكسب غير المشروع .. فهل كان هذا يعنى أن تحقيق الثراء ما زال مقصورا على الصغار ام أن الجشع قد اتسعت حلقته وأدخلت فى نطاقها الكثيرين من الكبار ؟

الطالب : ولماذا لا تقول ان امتداد الفساد واتساعه ظل مقصورا على الصغار فقط .. وان قسوة الحياة وارتفاع الأسعار وقلة الدخول هى التى جعلت الكبار يغمضون أعينهم لفترة ؟

الأستاذ : (**مقاطعا**) حذار من أن تقع فى الخطأ . فان كلامك هذا يعنى ان الاشتراكية لم تحقق للشعب ما يتمناه ، ولهذا ارادت الدولة أن تعوضه من ذلك بطريق الاكراميات غير المشروعة .. أو انك لم تسمع بعد عن الاتاوات غير الرسمية المفروضة بغير قانون والتى لا تستطيع بدونها أن تقضى حاجة أنت صاحبها الشرعى ـ سواء اكان ذلك

فى الجمعيات التعاونية أو فى المصالح الحكومية أو فى مؤسسات القطاع العام أو فى جهة رسمية تتعامل معها ؟

الطالب : بل سمعت ولمست ، وقد تعرض والدى فى قريتى لحالات من هذا النوع ، وكان يرفض أن يساير التيار .

الأستاذ : وهل ظل متمسكا بموقفه ؟

الطالب : بل خضع فى النهاية ، لأنه أحس انه لا ينال حقه الا عن هذا الطريق ..

الأستاذ : وهل تظن أن هذا الفساد بدأ من تحت . أم انه أصلا كان قد بدأ من فوق ؟

الطالب : ولكنا لا نحس بأن الكبار سايروا هذا التيار ؟

الأستاذ : لو ان خطأهم الوحيد كان هو اطلاق تيار الفساد بلا جزاء او حساب لكانت الجريمة كافية ، اذ لا قيمة لأى نظام ينخر فيه سوس الرشوة ، ولكن الخطأ هو أنهم وهم الذين يجمعون لانفسهم ثروات ضمانا لتقلبات السياسية وصيانة لمستقبلهم اذا ما اضطرتهم هذه التقلبات أن يبعدوا عن السلطة .. وقد دافع الرئيس جمال عبد الناصر عن تهريب المشير عبد الحكيم عامر لكميات من الذهب — وهو الاتهام الذى كشفته محاكمة شمس الدين بدران واخوانه فى قضية محاولة انقلاب — بأن ذلك كان تصرفا قصد به حماية الثورة . ولكن دعونا نواصل طرح التساؤلات التى تهدينا الاجابات عليها الى الحقائق .. فالكلام فى هذا الأمر سيأتى فى وقته من حوارنا ..

ما رايك فى رجل دولة فقير . وهو رب اسرة . تتحول اسرته من وضعها الى وضع آخر فيصبح كل فرد فيها صاحب فيلا — أو قصر صغير — شيدت له او شيد خصيصا له فمن أين جاء المال لبناء هذه القصور كلها واصل الثروة معروف . والمرتب الذى تدفعه الدولة له معروف ، وهل يحتاج تطبيق قانون الكسب غير المشروع

الى محرك اكبر قوة من هذا الواقع الملموس القائم على ارض صلبة ؟ أم أن الجزاء انما شرع للصغير .. وليس للكبير ؟

واذا كنت لا تصدق هذا ، فلماذا لا تقوم بجولة فى مصر الجديدة ، وفى مدينة المهندسين ، وفى كل ركن من اركان العاصمة وغير العاصمة ؟

الطالب : الا يمكن أن يقال ان كل فرد من افراد هذه الأسرة ساهم فى مشروعات اغدقت عليه هذا الثراء ؟

الاستاذ : وهل يمكن أن يتم ذلك فى دولة اشتراكية ؟ ثم أى نوع من المشروعات الاشتراكية يسمح للشباب الصغير بأن يكون ثروات طائلة ؟ ؟

ومع هــذا فما رأيك أيضا فى الرجل الفقير رب الاسرة الكبيرة والذى كان الى وقت قصير من قيام الثورة بسيطا فى مستوى معيشة شأنه فى ذلك شأن الغالبية العظمى من شعبنا الكبير ، قد أصبح فجـأة صاحب مجمـوعة من المدارس الخاصة هو يسافر الى الخارج بحقيبة واحدة . ويعود الى مصر بحقائب لا تعد ولا تحصى ، ثم تغمـر الاسواق بالبضـائع المنافسـة لانتـاج القطاع العـام الاشتراكى . ويتحول الاتجار غير المشروع الى اتجـار مشروع وتتراكم الثروة لتصبح تلا .. ان لم تكن تلالا . ؟

الطالب : الا يعد هذا نوعا من المساهمة فى التفريج عن الشعب الذى يريد أن يجد كل حاجاته متوافرة ؟؟

الاستاذ : ولمـاذا لا يسمح به الا لقلة .. ولا يفتح الباب للجميع ؟ ثم اليست الدولة هى التى أوصدت الابواب فى وجـه الاستيراد حماية للعملة الصعبة . وحماية للقطاع العـام من أن يضار انتاجه .. او بمعنى آخـر ارادت حماية المجتمع من سيطرة قلة وايجاد مساواة بين الجميع ..

القادر منهم وغير القادر ؟ ثم نود أن نسأل سؤالا آخر : من أين حصلت هذه القلة على العملة الصعبة لشراء كل هذه السلع ؟ وكيف حولت الى الخارج ؟ أم انها من أموال الدولة المهربة والمودعة فى البنوك فى الخارج « أم انها من عمولات شراء الاسلحة والمصانع وغيرها » ؟ اسئلة محيرة كان يمكن أن تكون الاجابة عليها جاهزة لو أن هناك رقابة شعبية على أموال الشعب ولو أنه كان هناك من يحرص على أن تكون اشتراكيتنا « طاهرة » غير ملوثة ؟ .

ثم انهناك واقعة لمست وقائعها بنفسى خلالزيارةأخيرة للندن ، فقد حدث أن حضرت سيدة مصرية من سيدات عهد ما قبل الثورة مزادا أقيم فى العاصمة البريطانية ، وفوجئت وهى تقلب فى كتالوج المعروضـــات بأطباق من الفضة معروضة للبيع . وهى أطباق نادرة . وتعتبر من القطع القليلة الذى لا ينتج منها الا مجموعة واحــدة ، ويحمل صاحبها شهادة بذلك .. وقامت السيدة لتفحص هذه الاطباق فاذا بها صـــاحبتها الاصلية ، وأن هـــذه الأطباق ممـــا صادرته الثورة من أموالها بعد وضعها تحت الحراسة . وتدخلت السيدة فى الأمر وطالبت بوقف بيع هذه الاطباق على أساس انها صاحبتها وقدمت الدليل على ذلك . الشهادة . والقانون الانجليزى يســـمح بذلك . ولست أدرى حتى اللحظة ما تم من اجراءات ، وانما الذى اعرفه ان التحقيق الاولى اثبت أن هذه الاطباق بيعت فى تركيا ، وان الذى اشتراها جاء بها الى لندن لبيعهـــا بسعر اعلى .

فمن هذا الذى هرب الأطباق خارج القـــاهرة ؟ ومن الذى استولى عليها لنفسه وسلب من الشعب ثمنها ؟ واذا كان هـــذا عن أطباق افلا يمـــكن قبول ما تردد على اكثر من لسان ، ونشر فى أكثر من صحيفة أن مجوهرات الاسرة المالــكة .. ومجوهرات الاثرياء التى صـــادرتها الدولة ، انما كانت تعرض فى اسواق اوربا ؟

هذه واقعة توضح أن الذين جاءوا للقضاء على الفساد غرقوا واغرقوا الشعب فى فساد لا شبيه له فى تاريخ مصر ، وهو الأمر الذى يجعلنا نفهم لماذا كان تشريع الكسب غير المشروع قانونا بلا حياة ؟ .

طالبة : لقد تكلمت عن الارصدة المصرية فى بنوك سويسرا وغيرها ، ولكنك لم تقل لنا ، كيف هربت هذه الاموال ؟ وهل اكتشف أمرها . ؟

الأستاذ : أنا لا أعرف كيف هربت . وان كنت ادرك أن التهريب الرسمى لا يحتاج الى تفكير او وضع خطة خاصة فى نظام حكم لا يناقش فيه كبار المسئولين عن تصرفاتهم أو سفرهم، ولا تفتح حقائبهم ولا يعاملون كما يعامل البشر العادى . على أنه من المعلومات المؤكدة أن عمليات التهريب بدأت تأخذ حجمها الكبير عندما كلف أحد الرسميين بأن يبيع ذهبا تملكه الدولة فى سوق خارجية ، لأن مصر كانت فى حاجة قصوى الى العملة الصعبة وهذا الذهب كان مقيما اصلا بسعر معين ، ولكن السعر فى الاسواق الخارجية كان قد بدأ يرتفع ومن هذا الارتفاع تحقق ربح كبير من عملية البيع كان من المفروض أن يعود للدولة ولكن العقل المفكر وراء هذه العملية اعاد للدولة حقها بالسعر القديم ، واودع الربح فى البنك ـ فى حساب سرى ـ باسمه ، وهذه كانت نقطة البداية التى انطلق منها الرصيد ليصبح أرصدة مودعة فى بنوك متفرقة بسويسرا .

واقعة أخرى .. كان الأستاذ سعد فخرى عبد النور المحامى ، وهو من رجال الاعمال ، يتناول طعام العشاء مع مجموعة من اصحاب الاعمال ورؤساء البنوك السويسرية ، وفى خلال ذلك قال له واحد منهم : هل تدرى كم بلغ حساب عبد الناصر فى بنوك سويسرا ؟ وقال الاستاذ سعد أنه سمع ارقاما عالية قيل انها بلغت عشرات الملايين . فرد عليه رئيس البنك قائلا : بل انها بلغت أكثر من ذلك ، وعندما تشجع الأستاذ سعد وسأل الرجل :

الا يعتبر ذلك سرا .. ؟ فضحك محدثه وقال : انا افهم ما تعنى ولعلك دهشت لانى بحكم مركزى لا يصح ان اتكلم عن هذه الاسرار . ولكن الامر لم يعد سرا . فان حكومتكم الحالية هى التى تحاول استرداد هذه الاموال بطــريقة او بأخرى .. وقد اتضح لنا انها موزعة على بنوك متعددة صغيرها وكبيرها واصبح أمرها غير سرى ؟

وفى خلال الاسبوع نفسه نشرت صحيفة بريطانية كافة التعامل فى هذه الاموال وكيف قام خلاف حولها .. وكيف سوى هذا الخلاف .

وبعد هذا النشر بأيام ولعل ذلك كان فى مارس ١٩٧٤ نشرت أخبار اليوم نبأ جاء فيه أن مصر قد استردت بعض أموال مصر من الارصدة السرية ، التى سبق ايداعهــا بالبنوك السويسرية .

هذا هو جانب واحد من جوانب الارصــدة السرية التى أصيبت بالتخمة من كثرة ما اودع بهــا من مال الشعب المصرى . بينما كانت بعض مصانع القطاع العام معطلة لان خزائن الدولة لم يكن بها من النقد الصعب ما يسمح بشراء قطع غيار بسيطة ..

ثم أليس هذا هو استبدال الاقطاع .. بأقطاع آخر . ؟

طالب : ولكن الا يمكن أن يكون ذلك الثراء نتيجة لعمولات حلال .؟

الاستاذ : العمولات تكون حلالا .. اذا كانت الصفقات تتم بين قطاعات خاصة ، ويتم التعامل معها عن طريق وســيط مهمته أن يعبد الطريق لعقد صفقات وينــال مقابل عمله العمولات .. أما أن يكون التعامل لحساب قطــاع عام او قطاع شعبى ، فلا وساطة فى الامور ، بل يقــوم بالصفقة من اختاره الشعب كى يدير شــئونه لحســابه ومن هنا تــكون العمولات حراما . وسرقة . وابتزازا لأموال الشعب وهــل يجوز لرئيس كبير أن يتعــامل فى سوق العمولات ؟

وقد بدأت هذه العمولات مع انطلاق الدولة نحو التصنيع الموسع ، واقامة مصانع للطائرات والسلاح . وتحويل الصحراء الى أرض مزروعة — مثل مشروع مديرية التحرير — .. بدا مع ذلك التسابق لتكوين الثروات ، وانتهزت المصانع الخارجية هذه الفرصة فى استغلال الجشع المصرى الحديث ، فعملت على تسهيل بيع انتاجها أو مصانعها القديمة مقابل عمولات ضخمة تدفع لممثلى الاشتراكية المصرية .

وقد كنت يوما مع فريق من زملائنا الصحفيين نزور معرض هانوفر الألمانى خلال الفترة التى خرجت فيها فكرة مديرية التحرير الى حيز الوجود ، وكنا نسمع ونحن ننتقل فى ارجاء المعرض عن « مصرى كبير » يشترى كل ما يعجبه . ويعتبره صالحا لانشاء هذه المديرية دون بحث أو مناقشة أو عرض على خبراء يفهمون .. كان المهم أن يشترى ، وكان المهم أن تدفع له العمولات .. وهذه المديرية مازالت قائمة .. يتحدث الناس عن الملايين التى انفقت عليها ، ولكنهم لا يتحدثون عما استفادت منها مصر .. ولا عن ماذا استفاد منها الذين أشرفوا على تنفيذ مشروعها .. ؟

هذه العمولات كانت هى الباب الذى تسبب فتحه فى افساد فكرة القطاع العام ، وجعله حتى اليوم موضع شكوى كل الناس . حتى الذين يعملون فيه .

عندما قامت الثورة كانت شكوى الناس من مظاهر البذخ الذى كان يظهر على قلة من المصريين يسافرون الى الخارج ، وكانت الشكوى ، ترتفع على صفحات الصحف ، من انغماس الملك فاروق فى لعب القمار ، وكان الشعب يعانى الضيق .. والذى حدث بعد الثورة ومع مطلع تطبيق الاشتراكية ان كانت أوربا وامريكا والعالم كله يتحدث عن المصريين الذين يعيشون فى افخم الفنادق . ويلعبون القمار فى البلاى بوى (لندن) وفى غيره . ويخسرون مئات الالاف من الجنيهات الاسترلينية ، وسيارات

الرولزرويس التى يستعملونها فى تنقلاتهم .. وذلك ما كان يردده الشعب هنا ولا يقرأ فى صحفنا كما كان الحال قبل الثورة ..

طالب : وما ادرانا أن ذلك صحيح ؟ ولماذا لا يكون الكلام فى هذا مجرد اشاعات يطلقها المستعمر واذناب الاستعمار بغرض تشويه سمعه مصر الاشتراكية ؟

الاستاذ : ان تقارير بعض السفارات المصرية تؤكد هذه الوقائع ، ومع هذا فلست أملك هذه التقارير حتى اضعها امامك ، ولكن لعلك لا تختلف معى فى أن هذا الثراء المفاجىء قد بدأ يطفو فوق سطح المجتمع المصرى الفقير .. وبدأت مظاهره تتحدث عن نفسها فى امتلاك العقار . أو امتلاك الأرض أو فى المجوهرات التى كانت تتحلى بها سيدات مجتمع الطبقة الجديدة أو .. او ..

طالب : لست انكر أن مجتمعنا قد تحول الى مجتمع تناقضات صارخة .. ولا اظن أن قانون الكسب غير المشروع قادر على وقف التيار الجارف ؟

الأستاذ : ان قدرة القانون وقوته وفاعليته تنبع كلها من الايمان بالقيم ، وما دامت هناك رغبة ملحة فى اقامة مجتمع العدالة والكفاية فلابد من عمل قانونى حاسم . وكما قيل اخيرا لم يعد تطبيق القانون فى حاجة الى اقرارات يقدمها المواطنون لان الأدلة ملموسة والوقائع قائمة . بل لعلى لا اتردد فى القول بأنه كان وراء التأخير فى تطبيق القانون بعض الخير .. اذ خيل للطبقة الجديدة أنه غير جدى ، ومن هذا الفهم انطلقوا يستمتعون بما حققوه من ثراء علنا بغير تردد أو خوف أو خجل .

ان الدولة تدخل فى هذه الفترة امتحانا خطيرا .. فاما أن تقضى على الفساد .. واما ان يقضى الفساد عليها .

طالب : ولكن هل كان الفساد مقصورا فقط على الثراء والكسب غير المشروع ، ام انه اخذ اشكالا اخرى مختلفة ؟

الاستاذ : لست افهم ما تعنيه ..

طالب : اعنى اننا نسمع كثيرا ان اجهزة المخابرات قد تغلغلت فى كل مكان ، حتى اصبح الطالب جاسوسا على زملائه ، وأصبح الموظف جاسوسا على رئيسه واخوانه وأصبح الشغالون فى المنازل جواسيس على من يشتركون معهم فى لقمة العيش ..

الأستاذ : (مقاطعا) لا احب أن تستطرد فى هذه الناحية ، لأنها اليمة ومريرة ، والذى لا شك فيه أن المخابرات استغلت كل وسيلة للوصول الى أسرار الناس ليستمر ويقوى شكل الدولة البوليسى ، ولعلك تذكر القصة التى نشرت أخيرا عن المحاولات التى بذلها رجال المخابرات مع الفنانة فاتن حمامة لحملها على العمل معهم .. وكيف انها عاشت اياما فى رعب قاتل حتى وجدت نفسها مضطرة الى الهجرة من مصر فتركت الفن الذى احبته .. وانى لأذكر حديثا دار بينى وبين الرئيس جمال عبد الناصر فى الفترة التى أسميها فترة الاختبار لاختيار رجاله المقربين ، فقد بدأ يسألنى : ألست تتصل بحكم مهنتك وعلاقاتك الشخصية بكثير من المصريين ؟

قلت : نعـــم .

قال : الا تدور بينك وبينهم احاديث عن الاوضاع الداخلية ؟

قلت : بطبيعة الحـــال .

قال : ولمـــاذا لا توسع علاقاتك بالمراسلين الاجانب ؟

قلت : انى اقابلهم فى مناسبات قليلة .

قال : ولماذا لا تتوسع فى مقابلاتهم فتدعوهم عندك فى المكتب او فى البيت ؟

وفهمت ماذا يقصد جمال عبد الناصر من هذا الحديث ، ولم اشأ أن أوضح له انى فهمت .. او انى على استعداد لأن أفهم .. وبطبيعة الحال سقطت فى جانب من جوانب الامتحان فى تلك الايام . فقد كان الرئيس عبد الناصر يحب أن يقرأ كل ليلة وقبل أن ينام التقارير التى يرفعهـــا اليه المقربون ، بالاضافة الى تقارير المخابرات ، وكان هدفه أن يختزن عنده من المعلومات ما يمكنه من السيطرة على كل من يعمل فى المناصب القيادية ...

وقد ذهب فضيلة الشيخ أحمـــد الباقورى وزير الاوقاف ضحية لهذا النوع من المخابرات . اذ قيل انه قد سجل له شريط وهو فى خلوة مع سيدة ، وعندما سمع عبد الناصر ما سجل على هذا الشريط اقال الشـــيخ الباقورى من منصـــبه .

وأصيب الشيخ الباقورى بشلل جزئى .. واعتكف فى منزله لا يخرج ولا يزور أحدا . ومع هذا عاد الى وظيفة أخرى هى مدير جامعة الازهر ... الجامعة الدينية الكبيرة .

طالبة : وهل قبل المنصب ؟

الاستاذ : نعم قبله ، وقد كان ذلك من الاخطاء التى يقع فيهـــا الرجال ، اذ لا يعرفون متى يكون الرفض الذى يتفق مع الـــكرامة ..

طالب : وهل صحيح أن بعض المسئولين كانوا على صلة بمخابرات اجنبيـــة ؟

الاستاذ : لا استطيع أن اجزم بهـــذا ، ولعلك قرات اخيرا عن الجاسوس السوفيتى الذى هرب الى الغرب واصدر كتابا تضمن ما يؤكد أن سامى شرف سكرتير جمال عبد الناصر للمعلومات ووزير الدولة فيما بعد كان عميلا للمخابرات السوفيتية ، وسامى شرف كان من اقوى رجال النظـــام

الناصرى واخرهم واشـدهم تعلقـا وتفانيا فى خـدمة عبد الناصر .. وقد وصفه محمد حسنين هيكل فى كتـاب الطريق الى رمضان انه كان يبدو متغاليا فى هذا الاخلاص.

ولقد عرفت سامى شرف فى بداية الثورة ، ورأيته كغيره يتسلق السلم الى أعلى درجات ثقة عبد الناصر به ، وفى نفس الوقت كـان يفرض سـيطرته على الوزراء وغـير الوزراء .. بل رأيت صـحفيا كبيرا يربط زراير جاكتته عندما دعى لحديث تليفونى مع سامى شرف .. وقيل فى فترة ما تدليلا على قوة سامى شرف أنه كان يحمل خاتما باسم جمال عبد الناصر يوقع به على المراسيم الجمهورية والقرارات التى تبلغ للوزراء .

وكانت كافة تقارير الدولة تصب فى مكتب سامى شرف .. وكان هو الذى يتولى عرضـها على رئيس الجمهـورية بالطريقة التى تحلو له أو تريح عبد الناصر . ولهذا قال كثيرون ممن دافعوا عن بعض تصرفات الرئاسة أن الرئيس لم يكن على علم بتصرفاته وانها تصرفات شخصية من سامى شرف ، مثل فرض الحراسات ، والقاء القبض على الكثيرين من المصريين .

طالب : وانا اميل الى تأييد هذا الرأى ، اذ ليس من المعقول أن تكون كل هـذه الاخطاء التى تكلمنـا عنها من صـنع عبـد الناصر ؟

الاستاذ : لا بأس من الاخذ بهذا الرأى مؤقتا ، ولكن دعنى اسألك : اليس مما يدعو الى العجب ، وقد كان عبد الناصر يفخر دائما فى خطبة واحاديثه بأنه يعرف كل شىء — ان يظل سامى شرف موضع ثقة رئيس الجمهورية حتى سـاعة وفاته ؟ ثم اليس عجيبا أن يكون واحدا من أربعة أو خمسة كلفوا فى فترات مرض عبد الناصر بأن يتخذوا القرارات الخطـيرة ؟ اليس هذا دليـلا على أن عبد النـاصر كان راضيا عن سامى شرف وعن تصرفاته ؟ ورغم ما نشر فى

الاخبار واخبار اليوم فى خلال الاسبوع الاول من اكتوبر ١٩٧٥ من أن الرئيس عبد الناصر قال للرئيس السادات ان مصر تحكمها عصابة .؟ فلماذا ترك العصابة تحكم مصر ؟؟

طالب : ولكن ما الدور الذى قيل أن سامى شرف قد لعبـــه كعميل للاتحاد السوفيتى ؟

الأستاذ : ما ذكر فى كتاب رجل المخابرات ، هو أن سامى شرف كان يطلع السوفييت على خطط عبـــد الناصر الخارجية وتفكيره فى طريقة معالجتها . وكانت موسكو حريصة على أن تدفع علاقته بالغرب وخاصة الولايات المتحدة الامريكية الى أسفل ، وكانت تعلم أن تصرفات عبد الناصر تكون دائما « رد فعل » لاتجاهات الغرب ولهذا جندت عملاءها فى بعض عواصم العـــالم لتغذية أجهـــزة المخابرات المصرية بمعلومات « مفبركة » عن اتجـــاهات الغرب المتوقعـــة بالنسبة لمصر بصفة عامة وعبد الناصر بصفة خاصة ، وكانت هذه التقارير تصل الى مكتب عبد الناصر من رجال المخابرات فى بلاد مختلفة ، وذلك يجعله على ثقة تامة من صحة هذه المعلومات .. ونتيجة لهذا كان عبـــد الناصر يبادر باتخاذ قرارات واجراءات كفعل (مسبق) أو « كرد فعل » على أساس تفكير وهمى رسمته ريشة المخابرات السوفيتية ، وبهذا كان السوفيت يرسمون لعبد الناصر سياسته واتجاهه فى مخاصمة كل دول العالم غير الدول الاشتراكية ومن هنا كان يقال دائما كدفاع عن ســياسة عبد الناصر وما فيها من اخطاء انها كانت (رد فعل) وليست فعلا .. ومقالات محمد حسنين هيكل فى الاهرام مليئة بهذا الاتجاه فى الدفاع عن عبد الناصر .

طالب : ولكنك تبنى استنتاجك هنـــا على ما جاء فى كتاب رجـــل مخابرات سوفيتى ؟

الاستاذ : لا انكر ذلك ، بل اضيف اليه ايضا انى اربط بين الذى جاء فى هذا الكتاب وبين الكثير من التصرفات الخارجية

التى كانت تتخذها مصر وتفاجىء بها العالم ، دون أن يكون لها ما يبررها ، وكثيرا ما كان الملقون المحايدون يرون ان عبد الناصر كان متسرعا فى قراراته وتصرفاته ضد الغرب لم يكن أمام أو وراء هذه القرارات ما يبررها .

طالب : انى اخشى أن يكون قصــدك بكلامك هــذا الدفاع عن الغـــرب ؟

الاستاذ : انا لا ادافع عن الغرب ولا ادافع عن الشرق ، بل اقول ان كليهما لم يكن يحب خيرا لمصر ، وكانا يتسابقان للسيطرة عليها ، ولكن الذى أود ان اقوله ان مصر لم تلعب دورها السياسى الخارجى وفقا لمـــا تمليه عليها مصلحتها ، وكانت فى ذلك أداة لقوة عظمى وجدت فرصتها الكبيرة فى أن تضع قدمها على أرض مصر ثم أرادت أن تتسع الرقعة التى تسيطر عليها فى منطقة من أكثر مناطق العالم حساسية ، ولو أن سياسة مصر كانت تنبعث من داخلها ومن تفكير مصرى خالص ، لمـــا جاز لنا أن نحاسب على أخطاء وقعت ومن المقبول أن تقع .

طالب : ولكن الم يكن لاجهزة المخابرات الغربية وخاصة الامريكية عملاء كذلك ؟

الأستاذ : لقد قيل كلام كثير عن شخصية أخرى كانت فى مستوى سامى شرف من حيث الاهمية والقوة والنفوذ فى بلاط الرئاسة ، وهو الأستاذ محمد حسنين هيكل وكان آخر ما قيل عنه فى كتاب The Real Spy World miles Copeland لمايلز كوبلنـــد ، ص ٥٣ انه كان يتبادل المعـــلومات مع الامريكيين ، وكان مسموحا له أن يهاجم ، ولكن الى الحد الذى لا يسىء اليهم اساءة بالغة ، وقد قيل فى هذا الكتاب أن مقالاته التى هاجم فيها أمريكا بمنتهى القسوة والحدة والعنف كانت معلوماتها كلها معطاة له من السفير الامريكى لوشيوس باتل ، وذلك فى مقابل اعطاء السفير معلومات أخرى هامة تكون قد توافرت لهيـــكل وبشرط أن يطلع السفير على السبيل الذى قاده الى هذه المعلومات .

طالبة : ولكن ما الذى يدعو « الأقوياء » الذين وصـــلوا الى اعلى مناصب الدولة الى مسايرة الاعيب رجال المخابرات ؟

الاستاذ : ان الوصول الى قمة السلطة يتطلب جهدا جبارا ، كما يتطلب الالتجاء الى المجازفات الخطيرة لصيانة ما تحقق لهم ، وقد كانت مصر غارقة فى السياسة الخارجية ، وكان عبد الناصر يراها سبيله الى زعامة عربية عالمية ، وقد كان يرتاح الى الذين يمدونه بالمعلومات التى تحقق له تفاعلا ونجاحا فى هذه السياسة ، ومن ثم كان لابد للمحيطين به من أن يتجهوا الى اقامة علاقات قد تكون مريبة مع الاجهزة الخارجية ، وكانت مهارة العاملين فى قمة بلاط الرئاسة هى ايهام جمال عبد الناصر أن هذه الصـــلات من أجله وحده .

طالب : اى انه لم يكن لها مقابل مادى ؟

الاستاذ : ان الجزم بأنه كان هناك مقابل مادى للخدمات المقدمة لاجهزة المخابرات الخارجية يعتبر من جانبى تسرعا ، ولكن لا يصح أن نسقط من اعتبارنا الجشع الذى كان مسيطرا على الجميع ، والتسابق نحو تحقيق الثروات التى تضمن لاصحابها مستقبلا مضمونا اذا ما تغـيرت الاوضاع فى مصر .

طالبة : وهكذا لم يترك الانحراف سلطة الا مسها وتعمق فيها ؟

طالب آخر : ولكن من يضمن لنا ألا يتكرر ذلك ، أو أن تكون طبقات الاجيال المقبلة من هذا النوع ؟

الاستاذ : الضمان صعب وان لم يكن مستحيلا ، اذ لابد من أن تكون قمم الاجهزة العاملة فى الدولة من أصل أخلاقى متين ، وان نحسن اختيارها لا على أساس انها « أهل ثقة » فان توافر هذا النوع من الرجال عملية رخيصة سهلة لا تتطلب الا هبوطا فى الاخلاق واتقانا للنفاق والكذب

والرياء . أما النوع الاخر الخالص فانه يتطلب خلفية تاريخية وخلقا وعلما ومعرفة واخلاصا .. الى آخر الصفات التى تقاوم كل اغراءات الانحراف أو بيع الضمائر فى سوق المال والثراء .. او بمعنى أوضح واعم لابد من القضاء على الرقيق السياسى ومحاربته ، لانه هو الذى يقود الدولة — اى دولة — الى قبول الواقع المفروض عليها ، فتتحول الى دولة خاضعة مستسلمة تتبادلها ايدى الأقوياء ، ولا تقوى على مواجهتهم ، وهل نسينا ٥ يونيو ١٩٦٧ ؟ أى بعد ١٥ عاما من قيام ثورة ذكرت للناس فى أول بيان لها أنها جاءت لتقضى على الفساد والرشوة والفوضى فى جيش مصر والتى ادت الى هزيمة ١٩٤٨ ؟

طالبة : ان الأحداث التى سبقت ٥ يونيو والاحداث التى تلتها تحتاج الى حوار آخر .. بحثا عن الحقيقة وراء هذا اليوم الخطير فى تاريخنا ؟

الاستاذ : اذا كان هذا اليوم من أيام مصر السوداء فان له حسنة واحدة هى انه كشف القناع . وايقظ الشعب والشباب خاصة — من عقد كثيرة — أولها عقدة الاستسلام للواقع على انه ليس فى الامكان ابدع مما هو قائم . وعقدة الخوف التى جعلت الشباب لا يقول كلمة ولا يبدى رأيا .. فان هذا اليوم دفعه الى الشوارع لاول مرة هاتفا ساخطا متبرما مطالبا بعقاب المسئولين ..

لقد كان الشعب — والشباب خاصة — يعيش فى احلام وهمية .. ثم استيقظ على صوت الهزيمة المؤلمة .. ولولا هذه الصحوة ، لما كانت هناك هذه الرغبة الشعبية الجارفة فى ان تصلح من شأننا وان تحاول العودة بمصر الى امجادها القديمة ..

فليكن حوارنا القادم اذن عن ٥ يونيو .

***

سر القرار رقم ١٣٥٠

كان المتفق عليه أن يدور الحوار حول مأساة ٥ يونيو ١٩٦٧ . ودخل الأستاذ الى قاعة الحوار يحمل معه ملفا رقيقا ويتحدث الى صديق جديد اصطحبه معه لأول مرة وكان الأستاذ يمسك بالملف فى حرص شديد ، ولاحظ أن عدد الحاضرين قد زاد عن كل مرة وكانت معظم الوجوه جـــديدة وقد ارتسمت على بعضها علامات التحفـــز والاستعداد والتحدى .

وفتح الأستاذ الملف أمامه ، وأخذ يقلب فى بعض الأوراق الى ان ساد الصمت القاعة ، وقبل أن يبدأ فى الكلام انبرى طالب ووقف فى تحد ظاهر موجها الى الأستاذ سؤاله الأول :

الطالب : لقد قيل لى أن حواركم اليوم سيتناول أحداث ٥ يونيو ، وقيل لى أيضا أن كلاما ما قد تردد فى الحوار السابق عن اتهامات ترددت عن تهريب أموال مصرية الى الخارج ، ولم يعرف مصيرها ، وقيل ان بعض الرأسماليين الغربيين أكدوا أنها وضعت فى خزائن سرية باسم الرئيس جمـــال عبد الناصر ..

الأستاذ : هذا كلام تردد فعلا ، وهو كلام نسب الى شخصية مصرية ذات صلة بالدوائر المالية فى سويسرا ، كما أن بعضه قد نشر فى صحف الخارج ونقلته الصحف المصرية مبهمـــا وغير واضح .

الطالب : وهل يمكن قبول مثل هذا الكلام العائم فى أمر خطير كهذا الأمر ، فالذى فهمته أن الحوار كان دائرا حول كلام لم يؤيد بالدليل الملموس . فقد قلتم ، كما سمعت ، أن شخصا ما ، مهما تكن درجة صدقه وأمانته ، قد سمع من آخرين

ان الرئيس الراحل جمال عبد الناصر قد أودع فى الخارج باسمه مبالغ ضخمة قد تصل الى مئات الملايين من الجنيهات الاسترلينيه ، فكيف يمكن قبول هذا الكلام بلا دليل قاطع وملموس ؟ .. أوليس المعروف لدينا جميعا أن الرئيس عبد الناصر كان عدوا مرعبا لجماعة الرأسمالية المستغلة، وانهم فى سبيل القضاء على سمعته التاريخية ــ حتى بعد مماته ــ **لا يترددون فى تلويث هذا الاسم العربى الضخم** ، بادعاء وبلا دليل انه كان يهرب أموالنا الى الخارج ويودعها باسمه فى خزائن سرية ؟.

اننا بهذا الكلام العائم والمطلق بلا دليل نخدم الاستعمار والرأسمالية المستغلة ، ونروج اشاعاتهما الكاذبة دون ادراك لخطورة ما نقول .

الأستاذ : هذا كلام منطقى فى مضمونه . ولابد أن يكون هو دستورنا فى محاسبة الناس ــ كل الناس كبيرهم وصغيرهم ــ فلا نلقى التهم بلا دليل أو أدلة ، على أنه فى نفس الوقت لا يجوز ترك الاشاعات الكبيرة ــ اذا صح أنها اشاعات ــ دون تعقبها وتجميع الأدلة على صحتها أو على كذبها . ان دراسة الاعلام تتطلب أول ما تتطلب أن تكون كل الوقائع التى نقدمها للقارىء مدعمة بالدليل أو مستقاة من مصادر لا يتطرق اليها الشك أو بهما معا ، كما أن من واجب اجهزة الاعلام الا تترك الاشاعات الضخمة بدون قتلهـا أو كشف أسبابها .

الطالب : انى أرفض ما جاء فى الجزء الأخير من كلامك ، أرفض أن يقال فى مثل هذا الأمر الخطير المتعلق بسمعة رجل مازلنا نراه عظيما ان الاتهام يمكن أن يقوم بناء على معلومات مستقاة من مصادر لا يتطرق اليها الشك . فمن هو الذى يحكم فيما اذا كان المصدر موثوقا به أو مغرضا ؟.

الأستاذ : عندك حق .. بل انى أسقط هذا الشرط من كلامى وأتفق معك على أنه فى هذه الأمور الخطيرة والمتصلة بنزاهة الحكم لابد من قيام أدلة ملموسة .

الطالب : اذن فأنت تتفق معنا فى أنه ليس كل كلام يقال نقبله على العين والرأس ونصدقه ، ثم نسقط فى مصيدة ترديده على السنتنا أو فى صحفنا أو فى كتبنا على أنها وقائع صحيحة ، .ما ذلك الا لأن بعض مانصفهم بالموثوق فيهم من الراسماليين أو من الموتورين قد نطقوا بهذه الاتهامات أو أطلقوهـــا كالسموم فى أجواء منطقتنا العربية .

الأستاذ : هذا كلام صحيح ايضا ، بل لعل واجبنا فى هـــذا الحرم الجامعى أن نضع الأسس والمبادىء التى نهتدى بهـــا فى تعرضنا للامور العامة وبخاصة ما يتصل منهـــا بنزاهة الحكم والحاكم ، ولا سيما اذا كان الشخص الذى نتعرض له قد أثر فى جيلكم تأثيرا ضخما وانه لولا كارثة ٥ يونيو العسكرية وما كشفت عنه لظلت هذه الشخصية مسيطرة عليكم سيطرة كاملة تقودكم الى حيث لا تدرون ..

الطالب : هذا رأيك الشخصى . ولعل الأسلم أن ننتقل الى مناقشة أحداث ٥ يونيو وأن نعتبر كل ما جاء بشأن تهريب الأموال الى الخارج واقعة مرفوضة لأنه لا دليل عليها .

الأستاذ : ان ما أطالبكم به مزيد من الصبر ، الى جانب الوعـــد والاتفاق على التزام الدقة فى معالجة كل أمر فى أمورنا الخطيرة بغير تسرع . اننا هنا أمام كلام تردد عن تهريب اموال مصرية يملكها الشعب الى الخارج لتودع فى حسابات خاصة ، فهل نكتفى ازاء هذا الكلام بهز الأكتاف والقول بأنها مجرد اتهامات أطلقتها الرأسمالية المستغلة ، أم نمضى فى بحثها والتنقيب فيما اذا كانت صحيحة أو غير صحيحة ، فاذا قامت الأدلة على صحتها او كانت بعض التصرفات محوطة بشكوك لا تفسير لها كان علينا ان نسال لـــاذا حدث هذا وما الذى ولد هذا الشك . فاذا مازالت الشكوك بالدليل القاطع قلنا هذا كذب وبهتان واذا ثبت عكس ذلك كان لنا موقف آخر . موقف محاسبة ومساءلة .

الطالب : هل افهم من ذلك انك تريد فتح باب الـكلام فى موضوع الأموال المهربة من جديد على أساس انك قد تأكدت ان الاشاعة صحيحة ؟ هل نفهم من مضمون كلامك الاخير ان لديك جديدا تريد اضافته الى كلام الذين اتهموا الرئيس عبد الناصر بالتصرف فى بعض أموال الشعب .. بغير علم الشعب ؟

الأستاذ : **(وهو يفتح الملف الذى أمامه)** ربما . ولكن لا اريد ان اسبق بالاتهام ، ذلك لأن لـدى وقائع وشكوكا لابد من وضعها أمامكم . لقد أحسست بأن ما قيـل فى حوارنا السابق غير كاف . ولهذا بحثت وتحريت ، ولو انى لم أفعل لحق لكم رفض كل ما قيل فى هذا الحوار .

ان الوقائع التى تحت يدى الآن تطـرح اسئلة ضخمة لابد من مناقشتها معا .. وعليكم فى النهاية أن تصدروا حكما أعلن من الآن انى سأقبله . فهل انتم على استعداد للاستماع اليها ؟.

الطالب : طبعا . فليس أحب الينا من التأكد من طهارة الذين عشنا نؤمن باخلاصهم وصدق نواياهم . بل باستشهادهم فى سبيل مصر والعروبة والقومية العربية .

الأستاذ : لا داعى للتسرع فى الحكم . ولنستمع الى ما لدى ثم نطرح معا فى النهاية ما يعن لنـا من أسئلة .. ان الوقائع التى سأرويها لكم تعود الى الأيام السابقة لمعركة ٥ يونيو ١٩٦٧ وكذلك خلال أيام المعركة ذاتها والتى هزت كيان شعبنا المصرى والعربى هزا عنيفا . بل لعل من الخير ان يدور حوارنا هذا قبل الكلام عن أحداث هذا اليوم الأسود. اننى أعود بكم الى الأيام الأخيرة من شهر مايو ١٩٦٧ حيث بدأت الصحف وتصريحات الرسميين المصريين وتحركاتهم بين اقطار الوطن العربى تعد الأمة العربية لحدث خطير ، ثم تطور الموقف وأصبح الكلام منصبا على توقع قيـام الحرب ، ومضت الصحف تعبىء الشعب لمعركة مع اسرائيل ، واخذت التعبئة الشعبية والعسكرية ترتفع فى درجتها الى

حد أن الناس كانوا يتطلعون شوقا الى نشوبها فى اقرب وقت ، لايمانهم — من واقع ما كان يقال لهم فى التصريحات والمقالات والشعارات — بان نهاية اسرائيل قد أصبحت قريبة وفى متناول ايدينا .

ولقد عدت الى عناوين الصحف فى يومى ٢٧ ، ٢٨ مايو — وقد اخترت هذا التاريخ الأخير بالذات لأهمية ما سأذكره من وقائع فيما بعد — فوجدت أن خطورة الموقف السياسى كانت قد بلغت حدها الأعلى . وعلى سبيل المثال فقد قدم سكرتير الأمم المتحدة يوثانت تقريرا الى مجلس الأمن بعد زيارته للمنطقة قال فيه « ان الموقف أكثر تهديدا من أى وقت منذ عام ١٩٥٦ (وهو عام العدوان الثلاثى على مصر) » .

كما عقد الرئيس جمال عبد الناصر مؤتمرا صحفيا شهده اكبر عدد من الصحفيين العالميين أعلن فيه :

- انه لن يتزحزح ولن يقبل اى مساومة .

- سندافع عن سيادتنا ولن نقبل أى مساومة .

- اى دولة مهما كبرت لا تستطيع أن تهزم أى شعب مصمم على حقه فى الحياة (وكان يقصد بذلك الولايات المتحدة الأمريكية) .

- اننى أتوقع هجوما اسرائيليا فى اية لحظة واى اعتداء سنواجهه بحرب شاملة .

- نحن على استعداد كامل — اذا تطورت الأمور — الى صراع شامل فى الشرق الأوسط .

مجمل القول ان الشعب فى مصر وفى العالم العربى أصبح بعد هذه التصريحات الملتهبة وهذا التأكيد القاطع بوجود الاستعداد الكامل والقدرة على مواجهة اى دولة مهما كبرت ، أصبحت الشعوب كلها على اتم استعداد لتحمل التضحيات . وشعرت بأنها توشك أن تتخلص من

هذا السرطان الذى غرس فى جسم أمتنا وجعلنا وخاصة فى مصر عاجزين عن اصلاح عطب صغير فى آلة أساسية بمصنع من مصانعنا بسبب قلة العملة الصعبة والتى كنا نتصور انها تنفق بلاحساب على مواجهة التحديات السياسية والعسكرية والاستعداد لهذا اليوم العظيم . يوم الخلاص من اسرائيل .. واستجاب الشعب للتعبئة بكل طبقاته ، واخذ يستعد للمساهمة فى المعركة ، وكان على قمة هذه المساهمة اندفاعه فى دفع التبرعات المالية والذهبية التى انهالت على الرئيس عبد الناصر مساهمة فى أعباء المعركة المقبلة وسعيا لمساعدته فى التخلص من المرض السرطانى الذى غرسه فينا الاستعمار .

ولم تكن التبرعات وحدها نابعة من أفراد الشعب المصرى بل ان الكثيرين من المواطنين العرب بعثوا بتبرعات سخية بالعملة الصعبة الى الرئيس عبد الناصر . وهنا نأتى الى الخيط الأول من الوقائع الخطيرة التى أثارت فى نفسى الشكوك فاستمعت اليها ثم بدأت أتحرى عنها .

ففى هذه الفترة كان الملك السعودى السابق سعود بن عبد العزيز آل سعود يعيش بعيدا عن بلده بعد اقالته وتنصيب فيصل بن العزيز مكانه . وكانت الخصومة القائمة بين عبد الناصر وفيصل سببا فى أنه استقبله بمصر وأكرمه. ولهذا وفى غمرة الحماس الذى سيطر على العقول المصرية والعربية فقد كتب الملك سعود فى ٢٨ مايو ١٩٦٧ شيكين أحدهما بمبلغ ثلاثة ملايين دولار أمريكى والآخر بمبلغ مليونى دولار أمريكى . وكان أحد الشيكين لأمر الرئيس عبد الناصر والآخر لأمر السيد صلاح نصر مدير المخابرات العامة ، وذلك تبرعا من الملك السعودى السابق لدعم المجهود الحربى المصرى .

وقد كان مفهوما أن هذين الشيكين سيحولان الى الذين يتولون ادارة المجهود الحربى لدعم خطواتهم واستعداداتهم العسكرية . ولكن الذى حدث أن الشيكين حولا الى حساب

خاص للرئيس عبد الناصر . وصدق على التوقيع بالتحويل الأستاذ احمد فؤاد رئيس مجلس ادارة بنك مصر ..

الطالب : ارجو ان يسمح لى الأستاذ بكلمة . ان هـذه الوقائع ليست كافية . فهل تستطيع أن تبرز لنا دليلا ملموسا يؤكد ما قلته الآن عن مصير هذين الشيكين . صحيح أنك قدمت أرقاما وتواريخا وأسماء ، ومع هذا يحتاج الأمر لخطورته الى أكثر من ذلك .

الأستاذ : اننى هنا لا أحاول ارغامك على تصديق هـذه الوقائع والتسليم بها دون مناقشة ، ولكنى أضعها أمامك بعد أن تحريت بنفسى عن صحتها بين جدة والقاهرة ، ومع هذا لا مانع عندى من طرحها فى هذا الحوار على صورة تساؤلات ثم نطالب بتقديم اجابات حاسمة عليها . فهذه الأموال التى نتكلم عنها هى أصلا مدفوعة لخدمتى وخدمتك ومع هذا ظلت مجهولة المصير حتى اكتشف أمرها وأمر غيرها — وهو أضخم بكثير — بمحض المصادفة وبأدلة تثير تساؤلات وشكوكا ضخمة .

طالب : محض المصادفة ؟ ماذا تعنى بذلك ؟

الأستاذ : لنبدأ قصة الوقائع التالية من بدايتها وستجد منها الاجابة على سؤالك . والذى أحب أن انبه اليه هو أن هذه الأموال التى سنتكلم عنها أحيطت بسرية ، ووقائع متناقضة ، بينما أشارت الصحف الى أموال اخرى أقل منها أهمية وقيمة وهو ما يثير الشك ويدعم حقنا فى التساؤل . ففى اليومين السابقين لاعلان الرئيس عبد الناصر التاريخى باستقالته من رئاسة الجمهورية واسنادها الى السيد زكريا محيى الدين ، فى هذا اليوم كتب الملك سعود بن عبد العزيز شيكا بمبلغ عشرة ملايين دولار على بنك هولندا العام باسترداد لأمر الرئيس جمال عبد الناصر ، وذلك دعما للمجهود الحربى مضاما

الى الدعم السابق على اعتبار أنه قرض للجمهورية العربية المتحدة (مصر الآن) .

واحب أن انبهكم الى أنه كان معروفا لدى القيادة العسكرية المصرية أن معركتنا مع اسرائيل قد انتهت بنهاية يوم ٥ يونيو وأن ما جرى بعد ذلك لم يكن الا عمليات انسحاب غير منظم من جانب قواتنا وذلك بعد أن فقدت القيادة كل سيطرة عليها . وكان الرئيس جمال عبد الناصر قد كلف الأستاذ محمد حسنين هيكل رئيس تحرير الأهرام باعداد بيان يلقيه على الشعب يعلن فيه حقيقة الهزيمة وتنازله عن منصب الرئاسة — أى أنه كان يرى أن صلته بحكم مصر قد انتهت . ومع هذا تسلم الرئيس عبد الناصر شيك الملك سعود السابق وقام بتحويله الى بنك باريس والبلاد الواطئة Banque de Paris et des Pays Bas وذلك لتحصيله من بنك هولندا أو ايداعه فى حساب خاص لديه ، وقد صدق على صحة امضاء الرئيس عبد الناصر السيد/ محمود صدقى مراد الذى كان نائبا لمحافظ البنك المركزى المصرى .

وفى نفس الفترة أصدر الرئيس عبد الناصر قرارا جمهوريا رقم ١٣٥٠ لعام ١٩٦٧ بالاذن لوزير الاقتصاد والتجارة الخارجية نيابة عن حكومة الجمهورية العربية المتحدة باقتراض مبلغ عشرة ملايين دولار أمريكى من الملك السابق سعود بن عبد العزيز آل سعود بالشروط والأوضاع المرفقة بالقرار . أى أن الرئيس السابق اعتبر المبلغ المدفوع والذى حوله الى بنك باريس والبلاد الواطئة لوضعه فى حساب خاص باسمه قرضا على مصر ، وذلك فى نفس الوقت الذى قرر فيه أن يترك منصبه ويقطع كل صلة بينه وبين الحكم . وقد بعث وزير الاقتصاد والتجارة الخارجية بخطاب بتاريخ ٧ يونيو ١٩٦٧ موجه الى صاحب الجلالة الملك سعود يتعهد فيه نيابة عن حكومة الجمهورية العربية المتحدة بأن يقوم البنك المركزى المصرى **برد هذا القرض الى البنك الهولندى على ثلاثة أقساط خلال عام .**

أى فى الفترة بين ٧ يونيو ١٩٦٧ و ٦ يونيو ١٩٦٨ وأن يكون السداد بالدولارات الأمريكية • وقد ثبت فعلا أن البنك الفرنسى المذكور قد قام بتحصيل مبلغ عشرة ملايين دولار من حساب الملك السعودى ببنك امستردام (هولنــدا) وأودعها فى حساب باسم الرئيس عبد الناصر فى بنك باريس والبلاد الواطئة .

طالب : •• وكيف ثبت ذلك ؟

الأستاذ : عندما تكتب شيكا لشخص ما على بنك معين . فان هذا البنك يصرف المبلغ ويحتفظ لديه بأصل الشيك بما عليه من توقيعات استلام أو توقيعات تحويل وذلك لتقديمه اليك اذا ما تطلب الأمر ، أو للرجوع اليه خلال مراجعةحساباتك بالبنك وهو أمر يتم بشأن أى شيك مهما بلغت قيمته ، فما بالك بشيك تبلغ قيمته عشرة ملايين دولار أمريكى دفعة واحدة ؟ ولهذا فانه عندما مات الملك سعود فى فبراير ١٩٦٩ وشكلت هيئة وصاية للاشراف على تركته أرسل بنك هولندا العام الى هذه الهيئة هذا الشيك مع كشف حساب الملك السابق لديه .

طالب : انك قلت من قبل ان أمر الشيك كشف بمحض الصدفة ؟

الأستاذ : عقب وفاة الملك سعود تقدم المهندس (المرحوم) عبدالفتاح زكى حسن حسنى يحجز على التركة مقابل مبلغ يستحقه قدره ٥١١٣٠ر٣٥٦ جنيها . وكان من بين المبالغ التى طالب المهندس المصرى بالحجز عليهــا مبلغ عشرة ملايين دولار المدينة بها الحكومة للملك سعود . ومع أن الشخص الذى قام بهذا الحجز قد خسر قضاياه الا أن هذا التصرف من جانبه كان من العوامل التى حركت هيئة الوصاية لمطالبة الحكومة بسداد المبالغ المستحقة المدينة بهــا لورثة الملك سعود . وان كان هذا التحرك لم يبدأ الا فى عام ١٩٧١ أى بعد وفاة الرئيس عبد الناصر .

وقد قام الشيخ حسين شــكرى المحامى الســعودى ومستشار هيئة الوصاية على تركة الملك سعود باتخــاذ

اجراءات مطالبة الحكومة بسداد كل المبالغ التى دفعها الملك سعود الى الرئيس عبد الناصر وصلاح نصر . فقابل فؤاد الصراف وكيل الوزارة لشئون النقد وبحثا الأمر معا . وفوجىء ممثل الهيئة بأن الحكومة لا تعلم شيئا عن مبلغ الخمسة ملايين دولار المدفوعة بشيكين باسمى الرئيس عبد الناصر وصلاح نصر .

أما عن مبلغ العشرة ملايين دولار فقد ذكر فى رواية سعودية أن الدكتور الصراف قال للشيخ حسين شكرى أن هذا المبلغ دين على تركة الرئيس عبد الناصر وأن المطالبة بسداد المبلغ يجب أن توجه رأسا الى ورثته دون الحكومة المصرية . وفى رواية أخرى مصرية — وهى مؤكدة عندى — أن الدكتور الصراف قال فى اجابته ((**يسأل عن هذا من حصل على هذا المبلغ**)) .

واضطر الشيخ حسين شكرى الى التوقف عن مواصلة مباحثاته مع الدكتور فؤاد الصراف حتى يستكمل بحث الموضوع . ثم عاد الى مقابلته بعد أيام وبيده القرار الجمهورى رقم ١٣٥٠ لعام ١٩٦٧ والذى اعتبر مبلغ العشرة ملايين دولار قرضا على الحكومة المصرية واجب السداد وبالدولارات الأمريكية على ثلاثة أقساط خلال عام اعتبارا من ١٩٦٧/٦/٧ .

وازاء هذه الوقائع فقد بدأت حكومتنا تبحث كيف تواجه هذا الموقف وتقوم بسداد التزاماتها ثم اتفق فى النهاية على أن تفى الحكومة بالتزاماتها بسداد مبلغ الملايين العشرة من حصيلة الصادرات غير التقليدية الى المملكة السعودية وقد أوشك سداد هذا القرض أن يتم بغير الشروط المتفق عليها .

ومع أن المفاوضات مع الحكومة المصرية لسداد هذا المبلغ لم تبدأ الا فى عام ١٩٧١ الا انه وقع فى يدى خطاب بتاريخ ١٢ فبراير ١٩٧٠ أى قبل وفاة الرئيس عبد الناصر

بعث به وكيل وزارة الخزانة لشئون التموين والخزانة العامة (الادارة العامة للتمويل) ورقمه ٢٥—٤/٦ الى وكيل نفس الوزارة لشئون البحوث والتشريع المالى اقرا عليكم نصه :

السيد وكيل الوزارة لشئون البحوث والتشريع المالى
بوزارة الخزانة

تحيد طيبة وبعد : اتشرف بأن ارسل لسيادتكم رفق هذا صورة الانذار وامر الاداء الواردين رفق كتاب مراقبة الشئون القانونية والتحقيقات رقم ١٠٣ — ٩/٢ المؤرخ ٧٠/٢/٤ الذى بينه فيه المنذر (المهندس عبد الفتاح زكى حسن حسنى) على المعلن اليهما الاولين (السيد وزير الخزانة بصفته والسيد وكيل وزارة الخزانة لشئون الميزانية بصفته ، بعدم صرف ما استحق للمعان اليه الثالث (الشيخ عبد الله بن عدوان وزير الدولة السعودى بصفته رئيس لجنة تصفية تركة المرحوم الملك سعود بن عبد العزيز) وتقرير لجنة تصفية ما فى الذمة وفق المتبع بالمصالح الحكومية فى المدة المحددة قانونا ويصرف مبلغ ٥١١٣٠ جنيها و ٣٥٦ مليما الى الطالب أو من ينوب عنه مع حفظ كافة الحقوق الاخرى .

ونظرا لانه سبق ان صدر قرار السيد رئيس الجمهورية العربية المتحدة رقم ١٣٥٠ لسنة ١٩٦٧ باذن لوزير الاقتصاد والتجارة الخارجية نيابة عن حكومة الجمهورية العربية المتحدة فى اقتراض مبلغ عشرة ملايين دولار امريكى بالشروط والاوضاع المثبتة بالمذكرة المرافقة لهذا القرار وقد تضمنت المذكرة المذكورة ان جلالة الملك سعود قد وافق على اقراض الجمهورية العربية المتحدة مبلغا من المال قدره عشرة ملايين دولار امريكى على ان يقوم البنك المركزى

المصرى برد هذا القرض على ثلاثة اقساط فى خلال عــام بنفس العملة . كما تعهد السيد وزير الاقتصاد والتجــارة الخارجية بخطابه المؤرخ ٧ يونيه ١٩٦٧ الموجه لصاحب الجلالة الملك سعود ــ نيابة عن حكومة الجمهورية العربية المتحدة بأن يقوم البنك المركزى برد هذا القرض الى البنك الهولندى على ثلاثة اقساط فى خلال عام من ١٩٦٧/٦/٧ لحسابه بالدولارات الامريكية .

ونظرا لان البنك المركزى المصرى قام باضــافة المبلغ المعادل لقيمة هذا القرض بالعملة المحلية وقدره ٣٤٧٨٢٠٠ جنيه الى حساب وزارة الخزانة حـ/ صندوق الاستثمار موارد استثنائية حـ/ المبالغ المقترضة من جــلالة الملك سعود ومفتوح لديه على أن يتم الخصم بالأقساط المستحقة بالاستبعاد من نفس الحساب .

ونظرا لانه لم يتم سداد القرض المذكور حتى الآن .

لذلك (لانه لم يتم سداده) نرجو التفضل بالتنبيه ببحث الموضوع وافادتنا بالرأى . مع رجاء الاحاطة بأننا ابلغنا كلا من البنك المركزى ووزارة الاقتصاد والتجارة الخارجية بمضمون ما تقدم ،

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام ...

وكيل الوزارة

١٩٧٠/٢/١٢

وقد حولت صورة من هــذا الخطاب للاحاطة وبحث الموضوع الى كل من وكيل وزارة الاقتصاد والتجــارة الخارجية ومدير البنــك المركزى ومراقب عام الشئون القانونية والتحقيقات بوزارة الخزانة ..

ومن واقع هذا الخطاب نلاحظ انه يشير الى القرار الجمهورى رقم ١٣٥٠ لسنة ١٩٦٧ بالرغم من ان هــذا القرار لم ينشر فى الجريدة الرسمية ــ كما ساوضح لكم فيما بعد ــ كما كشف عن تعهد وزير الاقتصاد والتجارة الخارجية (الاستاذ حسن عباس زكى) برد هذا القرض فى خلال عام اعتبارا من ١٩٦٧/٦/٧ لحســـاب الملك سعود بالدولارات الامريكية .. ومع هذا فاننا نرى أن البنك المركزى المصرى قد قام باضافه المبلغ المعادل لقيمة هذا القرض بالعملة المحلية الى حساب وزارة الخزانة على أن يتم الخصم بالاقساط المستحقة بالاستبعاد من نفس الحساب دون أن يشار الى مصير الملايين العشرة من الدولارات الامريكية وأين ذهبت ؟ .. ونحن فى مثل هذا الموقف لا يجب أن نسقط من اعتبارنا أن الظروف التى كانت تحكم بها مصر والتى كانت تضع السلطة فى يد فرد واحد بلا رقيب أو حسيب كانت قادرة بطبيعة الحال على أن تأمر بتغطية التصرفات الفردية بطريقة أو بأخرى . ومع هذا فالذي لا شك فيه أن ما احيط به هذا القرض من سرية هى التى تثير كل الشكوك .

لقد عرضت هذه الوقائع كلها قبل ان آتى اليكم على اقتصادى مسئول وسألته : « هل يمكن أن تفسر هذه الاجراءات مجتمعة بأنها سلبمة أم انها تحيط الامر بالشكوك والريب ؟ . » وكانت اجابته قاطعة بأن هناك تناقضات تثير الشك وتؤكد أيضا أن هناك تصرفات غير دستورية .

فكيف نفسر هذه التناقضات ؟

بل كيف نفسر جهل وكيل وزارة الاقتصاد لشئون النقد بوجود هذا القرض ؟ ثم يتضح بعد ذلك ان هناك قرارا جمهوريا يأذن للوزارة نيابة عن حكومة الجمهورية العربية المتحدة باقتراض مبلغ عشرة ملايين دولار .. الخ . ؟ ثم يقال بعد ذلك ــ او قبل ذلك ــ فى خطاب رسمى أن البنك المركزى قد قام باضافة المبلغ المعادل لقيمة هذا

القرض بالعملة المحلية الى حساب وزارة الخزانة .. بينما كان المتفق عليه ان يسدد المبلغ الى بنك هولندا وان يكون السداد بطبيعة الحال بالعملة الصعبة على ثلاثة أقساط ؟

هذه هى التساؤلات الاولى على انه لكى تكتمل الصورة فقد رجعت الى الصحف المصرية التى صدرت فى الايام السابقة لمعركة يونيو ١٩٦٧ وقد قرات بها أن التبرعات الشعبية بدأت تتدفق على الرئيس عبد الناصر ابتداء من مايو ١٩٦٧ وانها بلغت أرقاما كبيرة بعضها بالعملة المحلية والبعض الاخر بالعملة الحرة .

وعلى سبيل المثال : فقد نشرت الاهرام بعددها الصادر بتاريخ ٢ يونيو ١٩٦٧ أن الرئيس السابق تلقى عشرة آلاف دولار من مواطن ليبى اسمه صالح مسعود بواصير تبرعا كدفعة أولى لصالح المجهود الحربى العربى فى المعركة ضد الصهيونية والاستعمار .

وقبل ذلك نشر الاهرام بصفحته الاولى عمود ٦ و ٧ يوم ٢٨ مايو ١٩٦٧ وهو اليوم الذى تبرع فيه الملك سعود بالمبلغين ٣ و ٢ مليون دولار أن الامير الكويتى عبد الله المبارك بعث برسالة الى الرئيس عبد الناصر أعلن فيها تبرعه بمبلغ مليون دولار للقوات المسلحة فى الجمهورية العربية تقديرا لموقفها البطولى .

كما نشرت الاخبار بعددها الصادر بتاريخ ٨ يونيو — وهو اليوم التالى لتبرع الملك سعود بمبلغ العشرة ملايين دولار النبأ التالى — : « علم مراسل وكالة انباء الشرق الاوسط أن مجلس الوزراء الكويتى قد وافق بالاجماع فى جلسة سرية طارئة عقدها أمس على تخصيص مبلغ ٣٥ مليون دولار لدعم المجهود الحربى للدول العربية .. »

وبمعنى أوضح فان صحف هذه الايام امتلأت بقوائم التبرعات واسماء المتبرعين من مصر وخارج مصر ومع هذا

فان هذه الصحف ذاتها لم تشر الى المبالغ الثلاث التى دفعها الملك سعود لا فى الصفحات الاولى ولا فى الصفحات الداخلية .. وقد رجعت هذه الصحف بنفسى . أفلا يدعونا ذلك التصرف الى التساؤل؟ « لماذا .. لماذا اغفلت سكرتارية الرئيس عبد الناصر ورئاسة تحرير الاهرام ذات الصلة الوثيقة باسرار عبد الناصر الاشارة الى ذلك بينما هى قد حرصت على أن تذيع فى صفحة الاهرام الاولى ان مواطنا ليبيا دفع عشرة آلاف دولار وأن اميرا كويتيا قد تبرع بمليون دولار .. ألم يكن تبرع الملك سعود يستحق ان يعلن على الناس ويشار اليه فى سطور ، أم انه رؤى احاطة ما دفعه الملك السعودى السابق بسرية كاملة لخطة مرسومة ؟ ..

واذا فرضنا أن الخبر نشر فعلا رغم الجهد الذى بذلته عبثا فى العثور عليه فانى اتنازل عن صحة هذه الحجة مؤقتا ..

طالب : (**مقاطعا**) ولكن الم يرد فى الخطاب الرسمى الذى قراته علينا الان أن قرارا جمهوريا رقمه « ١٣٥٠ » لعام ١٩٦٧ قد صدر بالاذن لوزير الاقتصاد والتجارة الخارجية نيابة عن حكومة الجمهورية العربية المتحدة فى اقتراض هذا المبلغ من الملك سعود ؟ اذن فالأمر لم يكن سرا ؟ .

الأستاذ : بل كان كذلك وهذا ما يثير شكوكا اخرى .. ذلك لان القرار لم ينشر فى الجريدة الرسمية بل ظل سرا لا يعلمه أحد حتى رجال وزارة الاقتصاد والتجارة الخارجية ، ولعلك لاحظت أن رد الدكتور فؤاد الصراف على مستشار هيئة الوصاية على تركة الملك السعودى السابق كان رد الرجل الذى يرى مطالبة من تصرف فى هذا المبلغ لا مطالبة الحكومة المصرية وما ذلك الا لانه لم يكن يعلم به .

الطالب : ولكن كيف يمكن الا ينشر قرار لرئيس الجمهورية فى الجريدة الرسمية ؟

الأستاذ : لقد رجعت بنفسى الى مجموعة الجريدة الرسمية المودعة فى دار الكتب المصرية . فوجدت أن القرارات الجمهورية التى صدرت فى هذه الفترة ونشرت بها قد اسقط منها القرار رقم ١٣٥٠ .. واليكم ما وجدت ..

ان شيك القرض قد قدم الى الرئيس عبد الناصر بتاريخ ٨ يونيو .. ومع هذا فان القرار الجمهورى بقبوله لم ينشر لا فى هذا التاريخ ولا بعده . وعلى سبيل المثال فان القرار رقم ١٣٤٧ والقاضى بتعيين رئيس ونائب رئيس مجلس ادارة لبعض الشركات التابعة للمؤسسة العامة للادوية صدر فى ٣ ربيع الاول الموافق ١١ يونيو ١٩٦٧ ونشر فى الجريدة الرسمية والقرار رقم ١٣٤٨ لعام ١٩٦٧ بتشكيل مجلس ادارة العبوات الدوائية أيضا فى نفس التاريخ ونشر كذلك .

أما القرار رقم ١٣٤٩ — فلا وجود له بين القرارات المنشورة بالجريدة الرسمية ، والله أعلم بمضـــمونه . وكذلك القرار ١٣٥٠ الخاص بالقرض فلا وجــود له فى الجريدة الرسمية بل أنه ضائع وغير مدرج ضمن القرارات المنشورة .

أما القرار التالى لذلك وهو القرار رقم ١٣٥١ لسنة ١٩٦٧ فقد صدر فى ١٩ يونيو ١٩٦٧ بتعيين رئيس لمجلس ادارة الهيئة العامة للمطابع الادارية وكذلك القرار رقم ١٣٥٢ لعام ١٩٦٧ بتشكيل وزارة جديدة برئاسة عبد الناصر (صدر فى ١٩ يونيو) والقرار ١٣٥٣ بتعيين الدكتور محمود فوزى مساعدا لرئيس الجمهورية للشئون الخارجية والقرار ١٣٥٤ بشأن ....

الطالب : (**مقاطعا**) ولــكن كيف يمكن أن يختفى قــرار لرئيس الجمهورية ولا ينشر فى الجريدة الرسمية ؟

الأستاذ : هذا هو السؤال الذى يثير الشك . بل ان هناك واقعة هامة اعتقل فيها الاستاذ جمال العطيفى المحامى ووكيل مجلس الشعب ترد تفاصيلها على سؤالك وقد وقعت احداثها بعد وفاة الملك سعود بثلاثة أشهر .

نشر الأستاذ جمال العطيفى فى الاهرام الصادر بتاريخ ٨ مايو ١٩٦٩ مقالا بعنوان « ظاهرة خطيرة » أشار فيه الى انه نشر بعدد الوقائع المصرية رقم ٧٨ الصادر فى ٧ أبريل ١٩٦٩ قرار من وزير العدل بتعديل اختصاص محكمة المرور بالاسكندرية رغم ان القرار كان قد صدر فى أول يناير ١٩٥٦ أى منذ أكثر من ثلاث عشرة سنة . وطالب الأستاذ العطيفى بعد ذلك بالتحقيق فى هذا الامر الخطير . ثم انتقل فى ختام مقاله الى الفقرات التى اعتقد انها أثارت كل الحساسية عند الرئيس عبد الناصر بحيث بادر فورا وفى نفس اليوم الى اصدار امره باعتقال الاستاذ العطيفى .

فماذا جاء فى هذه الفقرات التى أثارت ثائرة الرئيس الى حد اصدار الامر باعتقال الاستاذ العطيفى فور صدور المقال .. لقـد قال فى ختام مقـاله ... « وأهم من ذلك انه يقتضى اعادة النظر فى اجراءات نشر القوانين والقرارات التشريعية فى الجريدة الرسمية والوقائع المصرية .. »

« فان القوانين تخاطب الناس وهى لذلك تقتضى **اوسع مدى من العلانية** فى مجتمع ديمقراطى » .

« **وظاهرة اغفال نشر بعض القوانين** او التراخى فى نشرها أو اعطـاء تاريخ للنشر مغـاير للتاريخ الحقيقى **أو النشر فى عدد رمزى** محدود من النسخ استيفاء لمجرد الشكل الدستورى ــ **هـذه الظاهرة قد تكررت** . وفى السكوت عليها مخاطرة بحقوق المواطنين واهدار لسيادة القانون .. مجاف لروح بيان ٣٠ مارس » .

هذه هى الفقرات التى اثارت ثائرة الرئيس جمال عبد الناصر . فهل فيها ما يثير اى فرد لا تحاط أعماله بالشكوك والريب ؟ ذلك لأن الذى يقرأ المقال كله من بدايته حتى قرب نهايته لا يجد فى ملاحظة الأستاذ جمال العطيفى بشأن قرار وزير العدل ما يثير ثائرة رئيس الجمهورية ويدفعه الى اتخاذ قرار باعتقال كاتب المقال فى اليوم ذاته ويصدر فى نفس الوقت قرارا آخر بوصفه رئيسا للاتحاد الاشتراكى باعفائه من جميع المناصب التى يتولاها فى الاهرام واسقاط عضوية الاتحاد الاشتراكى عنه ثم تعدل الى الاكتفاء باعفائه من عضوية مجلس ادارة الأهرام التى أعيد اليها بعد ١٥ مايو ١٩٧١ . ذلك لأن مثل هذه الملاحظات تنبه الحاكم الى خطأ للعاملين فى الدولة تجعله يبادر الى محاسبة المسئولين . لا محاسبة الذى نبه الى الخطأ .

ان الأمر لم يكن أمر غضب لانتقاد خطأ ارتكبته وزارة العدل بشأن قرار يتعلق بتعديل اختصاص محكمة المرور فهذا أمر لا يسأل عنه رئيس الجمهورية لأن المسئولية فى هذا هى مسئولية أجهزة وزارة العدل وانما أراد الرئيس جمال عبد الناصر بهذه الاجراءات بالغة العنف انذار كل من يفكر فى التعرض لموضوع نشر القوانين فى الجريدة الرسمية أو عدم نشرها وكذلك لكى تكون الاجراءات التى اتخذت ضد الأستاذ جمال العطيفى تهديدا لكل من تسول له نفسه الاقتراب من هذا الموضوع الحساس ..

بل ان الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكى وزعت منشورا يتضمن أسباب الاعتقال كنوع من الهجوم المضاد .. ومما يؤكد أن الفقرات الأخيرة من المقال هى التى أثارت ثائرة الرئيس المصرى ما قاله الأستاذ ضياء الدين داود عضو اللجنة المركزية العليا (وهو مسجون الآن) فى اجتماع لجنة الاتحاد الاشتراكى بمؤسسة الأهرام عند اجتماعها لبحث موضوع الاجراءات التى اتخذت ضد الأستاذ العطيفى ..

واليكم بعض فقرات من المناقشة توضح أن ممثلى الاتحاد الاشتراكى كرروا اكثر من مرة الاشارة الى الفقرات الأخيرة

التى جاءت فى المقال .. فقد قال الأستاذ ضياء الدين داود « ... والشق الثانى الذى اتكلم فيه الكاتب بالاشارة الى أن هناك ظاهرة اغفال نشر بعض القوانين والتراخى فى نشرها أو اعطاء تاريخ للنشر مغاير للتاريخ الحقيقى أوالنشر فى عدد رمزى من النسخ استيفاء للشكل الدستورى وان هذه الظاهرة تكررت .. » .

ويعود الأستاذ ضياء الدين داود فى حديثه ليقول بعد قليل : « والكاتب بمقاله يقول ان ظاهرة اغفال القوانين أو التراخى فى نشرها أو اعطاء تاريخ للنشر مغاير للتاريخ الحقيقى أو النشر فى عدد رمزى محدود من النسخ استيفاء لمجرد الشكل الدستورى هذه الظاهرة تكررت .. **ولم يذكر وقائع تؤيدها** ... » .

وهكذا تكررت الاشارة الى هذه الفقرات الحساسة وما تحمله من معان مما يؤكد انها هى السبب الرئيسى فى الاعتقال بل لقد جاء فى منشور الاتحاد الاشتراكى الموزع على لجانه ليشرح لها الأسباب التى دعت الى اعتقال الأستاذ جمال العطيفى .. « **ولما كان تعمد دس هذه الاجراءات التى تعرض نضالنا الثورى للخطر والتى لا تستفيد منها غير القوى المضادة للثورة فقد أحيل جمال العطيفى للتحقيق حتى لا تستخدم وسائل يملكها الشعب (يقصد الصحافة) ضد مصالح جماهير الشعب** .. » .

ولا أريد أن انقل لكم المزيد من محضر هذه الجلسة بل أكتفى بهذا القدر . ففيه الكفاية .

طالب : وماذا كان مصير الأستاذ العطيفى ؟

الأستاذ : ظل بمعتقل القلعة من ١٩٦٩/٥/٨ وهو يوم نشر المقال حتى ١٩٦٩/٥/١٥ اى مدة اسبوع كانت كافية لأن توصل الانذار بعدم الاقتراب من مثل هذه الموضوعات الحساسة

الى كل من تسول له نفسه بالتعرض أو الاقتراب من هذا الموضوع . ولست أظن أن أى حاكم يتصرف بالطرق الدستورية السليمة يمكن أن يغضب لمجرد ملاحظة عابرة يبديها رجل قانونى ما لم تكن له تصرفات مشكوك فيها .. ويخشى أن تعرف أو أن تصل الشعب الذى من حقه أن يعرف كل شيء خاصة اذا كان الأمر متعلقا بأمواله التى هى من حقه .

طالب : هذا كلام خطير يصدمنا بواقع لا يقل عن صدمتنا فى ٥ يونيو ١٩٦٧ . ومع هذا فاننا نحب لو أنك وافقتنا على عدم الحسم فى هذا الموضوع برأى قاطع أملا فى أن يظهر ما يوضح ما وراء هذه الأسرار الغريبة ؟.

الأستاذ : أنا لا أمانع فى هذا . ولكن علينا فى نفس الوقت أن نربط بين هذه الوقائع بما ذكره اللواء محمد نجيب أول رئيس لجمهورية مصر فى مذكراته التى نشرت فى مجلة الحوادث اللبنانية والتى جمعت بعد ذلك فى كتاب .

الطالب : وماذا قال هو ايضا ؟

الأستاذ : لقد ذكر واقعة حدثت فى الأيام الأولى للثورة تتلخص فى أن الرئيس عبد الناصر اقترح فى اجتماع لمجلس الثورة أن يحول مبلغ من المال قيل انه عشرة آلاف جنيه الى الخارج باسم كل عضو من أعضاء المجلس ضمانا للمستقبل المجهول ولكن كل أعضاء المجلس — وقد أيد لى أحدهم الواقعة فى حديث شخصى — رفضوا الاقتراح مما اضطر عبد الناصر الى سحبه .. بعد أن قال انه كان يداعب أعضاء المجلس .. ويختبرهم !

الطالب : هل تحاول بذكر هذه الواقعة توضيح أن اتجاه عبد الناصر الى فتح حسب له فى الخارج هو اتجاه قديم ، لم يستطع تحقيقه فى البداية ثم حققه عندما تركزت السلطة فى يده ؟

الأستاذ : لك أن تستنتج ما تشاء . كما انى احب الاشارة الى واقعة محلية اخرى مؤيدة وهى أن الليثى عبد النــاصر شقيق الرئيس رشح لعضوية مجلس الأمة عن دائرة من دوائر الاسكندرية فى أول انتخاب لمجلس الأمة وقد كان فى عام ١٩٥٧ على ما أذكر ، ولمـا كانت المعارك الانتخابية تحتاج الى مصروفات متعددة فقد سحب الرئيس ثلاثين الف جنيه (٣٠,٠٠٠) من الأموال السرية ـ ملك الشعب ـ وحملها الضابط سعيد حليم سكرتير السيد زكريا محيى الدين وزير الداخلية اذ ذاك وسلمها بنفسه الى الليثى عبد الناصر ليصرف منها على المعركة الانتخابية .

.. فكيف حق له أن يفعل ذلك ؟

طالب : انى أقترح الاكتفاء بما دار فى هذا الحوار على أن نتجه الى المسئولين نطالب منهم أن يعلنوا على الناس كل الحقائق .

طالبة : ان هذه القصة بوقائعها المترابطة هي من أخطر ما سمعناه فى حوارنا منذ بدايته .. واستأذن الأستاذ فى أن نقف عند هذا الحد وأن نعود الى متابعة حوارنا الأليم الآخر .. حوار حول مأساة ٥ يونيو .

الأستاذ : بل أرى انه قبل الانتقال الى التساؤلات التى سنختتم بها حوارنا فلابد من تذكيركم بواقعــة نشرت تتعلق بأكياس من الذهب هربها أحد المسئولين الكبار .. فنحن نذكر أنه عقب هزيمــة ١٩٦٧ العسكرية أعلن الرئيس جمــال عبد الناصر استقالته فى بيان أذاعه بالراديو والتليفزيون وكذلك استقالة المشير عبد الحكيم عامر . وكان أن انطلقت المظاهرات الى الشوارع والتى أطلقنا عليها شعار ٩ و ١٠ يونيو ، بعضها مصنوع ومرتب والبعض الآخر كانت تسيطر عليه عاطفة شعبية نابعة من طيبة المصرى وتمسكه بالمبدأ الذى نردده دائما وهو « انا واخويا على ابن عمى وانا وابن عمى على الغريب » . وكانت المظاهرات تطالب ببقاء عبد الناصر فى الحكم .

ويبــدو ان الاتفاق كان قد تم مســبقا بين الرئيس عبد الناصر والمشير عبد الحكيم عامر على ترك منصبيهما معا . ولكن المظاهرات أعادت الأول وتركت الثانى مبعدا عن الجيش وعن كل مناصبه ، ومن هنا انطلق العــداء المكتوم بين الاثنين الى العداء العلنى .. وهو العداء الذى تطور الى ما تطور اليه منمحاكمة مؤيدى المشير عبد الحكيم عامر ونهاية رفيق عبد الناصر فى عملية قيل انها انتحارية وقيل أنها تمت بقتله بالسم وهو الأمر الذى لا نبحث عن حقيقته فى هذا الحوار ، وانما نتركه للجنة تقصى الحقائق .

المهم أنه خلال نظر القضية التى حوكم فيها مؤيدو المشير عامر أعلنلأول مرة ان أكياسا منالذهب هربت ــ داخليا ــ لصالح المشير . وكان أن توسعت جريدة « الأخبار » فى نشر ما ذكر عنها فى المحاكمة العلنية وبعناوين بارزة .

ولم يكن هناك ما يبرر غضب الرئيس عبد الناصر لكشف هذا الموضوع المتعلق « بالتهريب » . ولكن الذى حدث أنه انتهز فرصة اجتماعه برجال الصحافة العرب فى ١٥ فبراير ١٩٦٨ ــ اى قبل اعتقال الأستاذ جمال العطيفى ببضعة أشهر بسبب اعتراضه على عدم نشر بعضالقرارات الجمهورية فى الجريدة الرسمية ــ وتكلم فى موضوع أكياس الذهب المهربة باسم المشير عامر وركز كلامه على القول بأنها لم تكن مهربة لحساب عامر الشخصى « بل لاستخدامها فى أغراض » . فماذا قال الرئيس عبد الناصر فى هــذا الخطاب عن هذه الأغراض .. ؟

قال « يجب أن يعلم الشعب أن هناك انحرافات . وعلينا أن نقومها ، ولكن الصحافة عندنا حاولت أن تستغل محكمة الثورة (التى كانت تحاكم المتمردين من أنصار عامر) لزيادة التوزيع ونسيت انها **« عملية سياسية » أكثر منها عملية اثارة . أنا يوم ما لقيت عنوان احدى الصحف عن الذهب والفلوس استغربت جدا لأن معنى هذا اننا نحول العملية من قضية سياسية أثرت فى مصير البلد الى قضية اثارة ومحاولة اظهار فلان اخذ ذهب وفلان اخذ فلوس !! »**

العملية كما أعتقد . لا أظن ابدا ان المشير عامر حاول **يأخذ الفلوس لنفسه ، أو حاول يأخذ الذهب لنفسه . ولكن احنا نعرف ان كل شيء مباح في حالة التآمر.** اذا أراد شخص أن يتامر فهو بيحصل على سلاح وبيحصل على ناس وبيحصل على قوى . **ويحصل أيضا على فلوس علشان يستخدمها في انجاح هدفه** ، الفلوس هنا زى الدبابات زى العساكر . زى الضباط . **تصوير العملية انها عملية فساد هو تصوير خاطيء ..** العملية عملية تستخدم في الهدف اللى كانوا مصممين عليه من أول يوم .. » .

هذا هو نص كلام الرئيس عبد الناصر ، وتصورى أنه اذا أراد أن يقول انه اذا كان هناك هدف — وقد يكون منها مقاومة كل حركات مضادة للثورة التى كان يقوم عليها حكم الرئيس عبد الناصر — فان أى أموال تهرب أو تدخر لهذا الغرض لا تعتبر فسادا .. وانما تعتبر **عملية سياسية** يراد بها حماية الثورة من ثورة مضادة .

طالب : أولا ترى أن هذا الكلام فيه بعض المنطق .. ؟

الأستاذ : بل أرفضه رفضا باتا . ان أى عملية من هذا النوع هى عملية لا رقابة عليها . وقد سبق أن هرب بعض زعماء الجزائر أموالا الى الخارج تحت شعار استخدامها فى عمليات مقاومة كل ثورة مضادة ثم وضح فيما بعد أنه شعار كاذب وحاولت حكومة الجزائر الحالية اعادة هذا المال بكل الوسائل .. بل ان هذه التصرفات تعنى أن مال الشعب قد أصبح فى هذا العهد منطبقا عليه الكلمة المعروفة « المال السايب » . ونحن نعلم ماذا يعلمنا هذا المال السايب ؟ ..

طالبة : وهل هناك مزيد من الوقائع ؟

الأستاذ : نعم هناك واقعة مؤكدة ، وهى ان واحدة من بنات الرئيس عبدالناصر — والذى كان يتفاخر بفقره — طلبت من الاصلاح

الزراعى فى عام ١٩٧٥ على ما أذكر ان يبيعها قطعة من الأرض باقرب من فندق مينا هاوس بأهرامات الجيزة ، وبجوار ناد اسمه « تورنج كلوب » .. وهى قطعة ارض مساحتها ٢١ فدانا ، ويبلغ ثمنها الأصلى — أى بغير مقارنة بأسعار السوق التى ارتفعت ارتفاعا مذهلا — بين ١٥٠ الفا و ٢٠٠ الف جنيه — ولكنها كما عرفت توقفت عن الشراء لأن الاصلاح الزراعى يطلب فيها أضعاف المبلغ الذى كانت تعرضه وفقا لأسعار السوق فى ذلك الوقت وهنا الا يحق لنا أن نسأل كريمة الرئيس عبد الناصر : « من أين لك هذا ؟ وقد كان والدك يقول انه الرجل الفقير الذى لا يملك شيئا ؟ » .

طالب : هذه وقائع تسبب لنا صداعا .. ولا أحسب أن هذا الصداع سيزول الا اذا طرحنا على المسئولين ما نتفق عليه من التساؤلات المستمدة من هذه الوقائع كلها ..

الأستاذ : هذا صحيح . ومازلت عند اتفاقي معكم من أن وضع هذه الوقائع لا يعنى الا أمرا واحدا . هو أن نطمئن ونرتاح بما نتوقعه من اجابات .. ومن هذا الواقع فانى أضع أمامكم تصورى لنوع هذه التساؤلات ..

أولا : ان تاريخ العملية المالية مع الملك سعود بن عبدالعزيز يتفق مع التاريخ الذى انتهت فيه معركتنا الخاسرة مع اسرائيل وكان الرئيس عبد الناصر يستعد لاعلان تنازله عن رئاسة الجمهورية .. فهل كان تحويل الشيك الى حساب باسمه فى بنك باريس والبلاد الواطئة استعدادا لمواجهة المستقبل ؟

ثانيا : واذا لم يكن كذلك وكان المبلغ قرضا ، كما ذكر فى القرار الجمهورى رقم ١٣٥٠ لعام ١٩٦٧ فلماذا لم ينشر فى الجريدة الرسمية ؟ والاقتراض ليس عيبا بحيث يخفى اعلانه ، ولا يعرف به المسئولون الا بعد اكتشاف وقائعه ابتداء من عام ١٩٧٠ ؟.

ثالثا : لمـــاذا اثار مقال الأستاذ جمال العطيفى بجريدة الأهرام الرئيس جمال عبد الناصر بينما هو يتعرض فى صلب المقال لقـــرار وزارى ثم تعرض فى ختام المقـــال لمسألة دستورية سليمة منبهـــا الى ضرورة نشر كل القـــرارات الجمهورية فى الجريدة الرسمية .

رابعا : واذا كانت اجراءات الرئيس السابق دستورية وملتزما فيها بالحرص على أموال الشعب ، فلماذا لم يأمر بالتحقيق مع الذين اهملوا نشر القرارات الجمهورية فى الجريدة الرسمية بدلا من القاء القبض على من نبه الى هذه المخالفات الدستورية ؟ اليس من الطبيعى أن يثور الحاكم للخطأ الذى يرتكب ، لا أن يعاقب الشخص الذى نبه الى وقوع هذا الخطأ .

خامسا : اليس من حق الشعب أن يعرف أين تذهب أموال التبرعات والقروض التى يتحمل اعباءها وتصبح دينا عليه يدفعه من عرقه ؟ ثم الم نكن نشكو ــ وما زلنا ــ من توقف بعض مصانعنا الكبرى والصغرى بسبب عدم وجود العملة الصعبة التى نشترى بها بعض قطع الغيار .؟ بينما كانت الأموال موجودة بشكل تبرعات أو قروض .

سادسا : لمـــاذا وصف الرئيس عبد الناصر عملية تهريب المشير عامر لأكياس الذهب بأنها عملية سياسية ؟ ورفض فى نفس الوقت وصفها بأنها عملية فساد ؟ هل هناك دافع داخلى دفعه الى ذلك ؟

سابعا : من اين جاءت كريمة الرئيس عبد الناصر الثانية بالأموال التى تمكنها من شراء قطعة أرض كبيرة فى القاهرة بينما كان والدها يتباهى بأنه الرجل الفقير الذى لا يملك شيئا والذى قال الأهرام عند وفاته أن ما كان فى جيبـــه فى ذلك اليوم لا يتعدى بضعة قـــروش وكان ذلك اليوم هو من أيام الشهر الأخيرة !!

ثامنا : ماذا كان مصير المبلغ ــ الذى هو من الأموال السرية ملك الشعب ــ والذى صرف لمساعدة شقيق الرئيس

الليثى عبد الناصر فى معركته الانتخابية لعضوية مجلس الأمة بالاسكندرية ؟ هل أعيد الى خزانة الدولة .. أم أنه كان هبة من أخ الى أخيه ؟ والا تذكرون القرار الذى اتخذه مجلس الثورة بحرمان بعض الصحفيين من عملهم لأنهم كانوا يتقاضون مصروفات سرية من حكومات ما قبل الثورة ؟

هذا هو جانب من التساؤلات الشعبية ، وقد عرضت نفس هذه الوقائع على اقتصادى أثق فيه ، وطلبت منه أن يحضر معنا هذا الحوار من بدايته . وأن يختم هذا الحوار بملاحظاته وتوقعاته واقتراحاته . وها هو يدلى اليكم برأيه .

وبدأ الصديق الذى دخل مع الأستاذ قاعة الحوار يدخل فى الموضوع مباشرة .

أولا : التبرعات

الاقتصادى : ابدأ الكلام عن التبرعات :

ان التساؤلات التى نطرحها تختلف حسب اختلاف المبالغ والوقائع ومكان حوادثها . محليا أو خارجيا ، بالعملة الصعبة أو بالعملة المحلية ؟

وأول هذه التساؤلات هو التبرعات .

لقد جاء فى سياق الحوار أن الملك سعود تبرع بمبلغ ٢ مليون دولار ، ٣ ملايين دولار وأحد الشيكين كتب باسم صلاح نصر ، والآخر باسم الرئيس جمال عبد الناصر .

وهنا نتساءل :

١ — لماذا كتبت الشيكات بأسماء أشخاص ؟ وأيا كان الشخص رئيس مخابرات أو رئيس جمهورية فان هذه التبرعات ليست شخصية لأنها دفعت فى ظروف معينة ، وهى ظروف الحرب ، وكل القرائن تدل على أنها دفعت للدولة .

وكان الواجب علينا أن نطلب من المتبرع كتابتها باسم وزير الخزانة المسئول عن المـــال فى الدولة .

٢ ــ والتساؤل الثانى هـــو : « أين أودعت الأموال وباسم من ؟ » . والظاهر من الحوار أن الأموال أودعت بحساب باسم الرئيس جمال عبد الناصر ، وكان الواجب ايداعها فى حساب باسم الدولة . ولنا أن نتصور مقدار ما يمكن أن يحدث من فوضى اقتصادية اذا أودعت أموال الدول والمؤسسات والشركات بأسماء رؤسائها ، فلا فرق هنا بين المـــال العام والمـــال الخاص ؟.

٣ ــ والتساؤل الثالث هو: «كيف صرفت هذه الأموال؟» هل صرفت لصالح الحرب أو نصبت للورثة ؟.

٤ ــ **اما آخر الأسئلة عن هذه النقطة واهمهـــا فهو : « هل ظهرت التبرعات فى ميزانية الدولة كبند من بنود الايرادات أم لم تظهر ؟ وما معنى عدم ظهورها ؟ »** .

ولهذا فاننى كاقتصادى أقترح :

الا يضعنا كل هذا أمام سؤال هام ، هو مسئولية وزير الخزانة والوزارة والمسئولين عن الحـــكم لتنظيم استلام التبرعات . وهنا اذا كنا لا نحاسب ونترك الحساب لغيرنا. فلا أقل من أن نضع ما وصل اليه الماليون والمحاسبون حسب خبراتهم الطويلة فى شئون الاختلاسات والسرقات حتى يمكن أن نتلافى مستقبلا ما حدث فى الماضى .

١ ــ يجب ان يكون معروفا لمن يكون التبرع . « ان التبرع ليس شخصيا بل هو تبرع لغرض معين وان كان لحفلة ساهرة » . ويجب أن يطمئن المتبرع الى سلامة استخدام المبلغ المتبرع به للغرض الذى تبرع من اجله .
ومن البديهيات فى علم المـــال والمحاسبة أن الشيك المسطر هو أسلم وسيلة لنقل المـــال الى الجهة الواجب ان يصل اليها بسلام . ويستلزم الأمر أن يكون الشيك مكتوبا باسم الجهة الصحيح وليس باسم شخص ، فلا يكتب

الشيك باسم صلاح نصر أو جمال عبد الناصر بل يكتب باسم الدولة .

فان من شروط صرف الشيك المسطر هو أن يكون سداده فى حساب فى البنك ولا يمكن تحويله .

٢ ـ من الواجب أن يظهر للشعب الذى دفع التبرع له بيان تفصيلى بالتبرعات ومصدرها وكيفية التصرف فيها فبذلك نقطع سبل التلاعب عن المختلسين ونعطى المتبرع الشكر الواجب ويعرف الشعب الحقيقة .

٣ ـ تكون مسئولية ،ورقابة سلامة التصرف من لجنة عليا تتكون من رئيس مجلس الشعب ورئيس الوزراء ورئيس الاتحاد الاشتراكى ورئيس ديوان المحاسبة . ولا يمكن القول بأن هؤلاء الرؤساء يخفى عليهم أى سر من أسرار الدولة خصوصا بعد التصرف فى الأموال وليس قبل التصرف فيها ، وبذلك لا تتأثر المشتروات الحربية باذاعتها قبل اتمامها . فالمطلوب هو رقابة لاحقة للصرف تطمئن الشعب على سلامة التصرف .

٤ ـ لابد أن تدخل التبرعات ميزانية الدولة كبند من بنود الايرادات . وبذلك تخضع للقواعد الخاصة بالمال العام . والا فان عدم ادخالها الميزانية يبعدها عن كل مساءلة ويعطى للمسئولين توهم الحق فى التصرف فيها كيفما شاءوا ، كأنها من أموالهم الخاصة .

ثانيا ـ القروض وشيك العشرة ملايين :

أما النظرة الاقتصادية الى مبلغ العشرة ملايين دولار ، والتى اعتبرت قرضا على الحكومة ، فهنا تزداد المسئولية وتتضخم . فان المبلغ كبير ، والغرض الذى منح له يعد من الأغراض السامية . واستخدام القرض استخداما سليما يخفف من وطأة الديون التى على الدولة . ويساعد ان لم يكن فى كسب المعركة التى خسرناها مثلا فيمكن أن يساعد الدولة على مواجهة هزيمتها القاسية .

والتساؤلات الاقتصادية حول هذا التصرف هى :

١ ــ لمــاذا أودع هذا المبلغ فى حساب باسم الرئيس جمال عبد الناصر ؟

ولا يمكننى الرد على ذلك بسذاجة سياسية بأن الشيك كتب باسم جمال عبد الناصر ذلك لأن العرف المصرفى يسمح بتحويل الشيكات فلا أقل من أنه كان يجب أن يحول الشيك باسم الدولة .

٢ ــ لمــاذا صدق السيد محمود صدقى مراد نائب محافظ البنك المركزى فى ذلك الوقت على التوقيع وهو رجل المــال ويعرف معنى تحصيل الشيك باسم شخص وليس باسم الدولة ؟. وهل تأكد السيد نائب المحافظ من قيــد القرض بالعملة الأجنبية فى دفاتر البنك والدولة ؟ .

٣ ــ ما هى الأبواب التى صرف فيها هذا المبلغ أم أنه اصبح حقا للورثة ؟

٤ ــ هل تضمنت الميزانية الخاصة بعــام ٦٧ كايراد فى العملة الصعبة قيمة هذا الشيك ؟

٥ ــ كيف صدر القرار الجمهورى ولمــاذا لم ينشر فى الوقائع الرسمية ؟

٦ ــ كيف تم سداد القرض ــ وهو فى صورة بضائع ــ اى فى حكم العملة الصعبة مع العلم بأن خطاب وكيل الوزارة فى ١٢/٢/١٩٧٠ لا يشير الى اضافة قيمة القرض بالعملة الصعبة لحساب وزارة الخزانة ، بل أشار فقط الى عملة محلية ؟ هل هناك على الأقل جريمة تهريب عملة ؟ ومن اين جاء السداد بالعملة المحلية ؟

٧ ــ كيف يقوم وكيل وزارة الخزانة المختصة بالمــال والتى تصرف العملة الصعبة فيوقع خطابا يتناول قرضــا بالعملة الصــعبة بمبلغ ١٠ ملايين دولار . ويؤمن على

اضافته بالعملة المحلية ، ويقول بعد ذلك ان هذا القرض لم يسدد طبقا للاتفاق وذلك بعد مضى ثلاث سنوات ثم تكون تأشيرته « البحث والافادة » .

٨ ــ هل يتضمن الدين الضخم على مصر والذى أعلن فى مجلس الشعب أخيرا مبلغ الملايين العشرة الذى دفعها الملك سعود .

وفى الواقع فانه يمكن اضافة عشرات من التساؤلات الأخرى . ولكن يجب علينا قبل ذلك أن نتمكن من الحصول على حقائق اكثر وتفاصيل دقيقة توضح كل ما أحاط بهذا المبلغ ، وان كان ذلك لا يمنع من طرح تساؤل أخير فى هذا الموضوع ، وهو :

٩ ــ لقد تولى وزارة الخزانة محاسب قانونى يعرف أكثر من غيره أصول الرقابة والمحاسبة ، وقد صرح وزير الخزانة اللاحق له ، أنه عندما استلم الوزارة لم يجد بها سجلا مقيدا به ديون الدولة بل لم توجد ادارة لذلك بالرغم من البلايين التى تمثل هذه القروض . بل الأدهى من ذلك أنه كان يلجأ للدولة الدائنة لمعرفة حقيقة ديونها . والسؤال هنا « لمصلحة من تغاضى وزير الخزانة السابق المحاسب والمراجع القانونى عن اظهار العقود الخاصة بالديون فى الدفاتر والميزانية عند العرض على مجلس الشعب ؟ » .

على أنه لكى تحقق هــذه المناقشات فائدة ما فلابد من اقتراح ضوابط تصلح للمستقبل :

١ ــ يجب أن تعرض على مجلس الشعب كل القروض مع شروطها . ذلك لأن القرض ما هو الا دين على الشعب وليس دينا على رئيس الجمهورية . والذى سيقوم بالسداد هو الشعب وليس رئيس الجمهورية .

٢ ــ يجب أن تقيد جميع القروض التى ترتبط بها الدولة وتنشر فى الصحف والجريدة الرسمية .

٣ — يجب ان تشمل الميزانية كل القروض ويخضع التصرف فيها كما تخضع له اموال الدولة من تصرفات .

اما اذا انتقلنا من الكلام عن التصرف فى الدولارات الى الكلام عن التصرف فى الجنيهات المصرية فهناك تساؤلان عن تصرفات ابنة رئيس الجمهورية وشقيقه .

١ — من اين لابنة رئيس الجمهورية القدرة المالية لشراء قطعة أرض فى القاهرة يبلغ ثمنها ١٥٠ الف جنيه أو ٢٠٠ الف جنيه ؟

وعلينا عندما نبدأ فى الرد على هذا التساؤل أن نضع فى اعتبارنا أن مرتب رئيس الجمهورية وبدلات تمثيله لا تمكنه — وهو الرجل الفقير أصلا — أو تمكن ورثته من اتمام عمليات شراء مهما تكن قيمتها . خاصة أن هذا المرتب يخضع للضريبة إذ أن رئيس الجمهورية غير معفى من الضريبة كما كان الحال مع الملك السابق فاروق .

٢ — ان الشقيق الأكبر صاحب المدارس الخاصة التى قيل أنها لا تخضع للضريبة ، عنده أموال كبيرة لا يمكن أن نسأل أين مصدرها اذ من السهل القول أنها من ايرادات المدارس . ولكن مع كل هذه الأموال التى كان يكسبها ، هل كان فى حاجة الى مبلغ ٣٠,٠٠٠ جنيه أخرى .

ام أنه اعتبر هذا الترشيح لخدمة الدولة ولهذا فانها يجب أن تصرف عليه دون الاقتراب من ماله الخاص ؟ وهذا فى رايى يثير اهم تساؤل : « من هو الرقيب على الصرف من الأموال السرية ؟ وما هو الحد الفاصل بين الاستخدام لغرض شخصى والاستخدام لغرض عام ؟ » .

ثالثا — عن المستقبل :

ومرة اخرى فان حواركم هذا مع الطلاب يجب أن يستفاد به لتحسين المستقبل ، واليكم ما أراه اقتراحا لذلك :

« لابد من وجود لجنة عليا من عدد محدود من الأشخاص المسئولين عن الحكم يقومون بمراقبة الصرف من الأموال السرية ، ولا بأس منه ان تشكل من نفس الأشخاص الذين سبق الاشارة اليهم ، وهم : رئيس مجلس الشعب ، رئيس الوزراء ، رئيس الاتحاد الاشتراكى ، رئيس ديوان المحاسبة .

واخيرا لابد من أن تعرض تفاصيل جميع الوقائع التى سبق اثارتها فى حواركم على الشعب ليحكم عليها حكما نهائيا ، وهو الذى يقر سلامة هذه التصرفات من عدمها .

طالب : ــ ... هذا كله كلام خطير .ولكن ما هى النتيجة التى وصلنا اليهـــا ؟

الأستاذ : لقد اجتهدنا وأظهرنا ما عندنا . وعلى غيرنا أن يكمل الصورة . فتظهر الحقيقة أيا كانت اليمة او غير اليمة . اننا لا نبغى الا الحقيقة ...

. . . .

. . . .

وساد الصمت قاعة الحوار . وانتهى اللقاء بلا مزيد من كلام ..

الحوار الثانى عشر

كلام عن معركة ٥ يونيو

وكان الاستاذ هذه المرة ، يشعر باجهاد شـــديد ، **فقد قضى** أربع ساعات يمر بين صفوف طلبته وهم يؤدون الامتحان فى مادته .. وهو صاحب فلسفة ــ غير مقبولة لدى الوسط الجامعى ــ تتلخص فى أن وجود الممتحنين بين الطلبة يهدىء من اعصابهم ، ويذهب عنهم « رهبة الامتحان » لاحساسهم بأن استاذهم الى جانبهم ، وانهم يستطيعون سؤاله فيما يجوز فيه السؤال .

وفى هذا اليوم بالذات قال له زميل جامعى ــ مداعبا ــ « انك تعامل طلبتك بأسلوب جديد علينا .. » فتظاهر بأنه لا يفهم ، ولم يظهر انه فى حاجة الى أن يفهم ..

وبدأ الطلبة يتسللون من قاعات الامتحان بعد أن انتهت الساعات الاربع كاملة ، وتسابق بعضهم الى المكان الذى اختاروه للالتفاف حول استاذهم ، وبدا عليهم ما يبدو على العـــائدين من مباراة رياضية .

وسألهم الاستاذ : هل نناقش اسئلة الامتحان .. وننصرف .

قالت طالبة : اما عن مناقشة الاسئلة فاننا نرفض ذلك ، ان اجاباتنا أصبحت وديعـــة بين يديك ، ونحن مطمئنون الى أنــك لا تصحح الاوراق بطريقة « البحث عن الخطـــا لانزال العقاب بنا .. » .

وقاطع طالب زميلته قائلا :

ومادمنا نتكلم عن الخطأ ونتائج الخطأ أليس هذا موعدنا للكلام عن ٥ يونيو .

وردت طالبة : لقد سرقت افكارى .. لقد تعمدت ذكر كلمة «الخطأ» لانى كنت اريد ان اقفز الى يوم اسود فى تاريخنا ، هو يوم ٥ يونيو ..

واستمرت الطالبة فى الكلام موجهة سؤالها الى أستاذها « لقد كنا نتوقع أن تسألنا فى الامتحان عن هذا اليوم الاسود » .

الاستاذ : لقد كان فعلا من الايام السوداء التى لا تنسى ، ولكن لماذا لا نأخذ زاوية أخرى من زوايا هذا اليوم كى نناقشها ونحللها .

الطالبة : وهل فى هذا اليوم سوى السواد والحزن ؟

هل يمكن أن نستخلص من مقدماته وذيوله ونتائجه سوى التمزق والانهيار والقلق وضياع الامال العريضة التى عشناها سنوات طوال ؟

الأستاذ : (مبتسما) نعم ... هناك زاوية أساسية مهدت لمسح هذا القلق والتمزق والانهيار .. انها الزاوية التى كشفت عن حقيقة الوضع الذى كنا فيه ، ولو أن هذا اليوم اختفى من تاريخنا لكان محتملا أن يتطور وضعنا الى اسوأ ما انتهت اليه كارثة ٥ يونيو ..

طالب : هذه فلسفة لا نفهمها ؟

الاستاذ : ولماذا تصرون دائما على وصف الكلام المنطقى بأنه « فلسفة » ؟ اننى اطلب منكم أن تعودوا — فقط — الى الايام الاخيرة من شهر مايو والايام الاربعة الاولى من شهر يونيو ١٩٦٧ .. واسألوا انفسكم : ماذا كان احساسكم فى هذه الايام بالنسبة لوضعنا العام — خارجيا وداخليا ..

طالبة : كنا نحس بأننا قوة ضاربة ، بل نذكر اننا اعلنا استعدادنا لمواجهة جيوش العالم كله .. بما فيها جيش واسطول دولة كبرى ..

الأستاذ : ثم ...

طالبة : ماذا تعنى بكلمة « ثم » .

الاستاذ : ماذا كشف لكم ما حدث فى ٥ يونيو ؟

الطالبة : تعنى الهزيمة ؟ .. لقد كشفت عن مأساة ...

الاستاذ : وما هو الاصل فى هذه المأساة ؟ لست أريد اجابة منك ؟ بل ارجو أن تسمحى لى بأن امضى فى « فلسفتى » اذا كنت مصرة على استعمال هذه الكلمة .

ان هذه المأساة ازاحت الستار الكثيف الذى حال بيننا وبين معرفة حقائق ما يجرى وراء الستار ؟ لقد كانت بداية طرح السؤال الكبير ، كيف حدث هذا ؟ .

ونتيجة لأننا طرحنا هذا السؤال ــ بعد طول استسلام غير طبيعى للاكاذيب ــ بدأت الحقائق تتكشف واحدة بعد أخرى ..فلم يكن أمامكم الا ان تثوروا ، وقد ثرتم فعــلا أكثر من مرة .. وتظاهرتم فى الطرقات وهاجمتم دور الصحف التى حملت لواء « الكذب والتضليل » .

طالب : ولكن هذا كله لم يستمر ليحقق نتيجة ملموسة بل ..

الاستاذ : ساقاطعك لاقول انه لم يكن ممــكنا أن تتحقق النتائج بسرعة لأسباب كثيرة . لقد كان فى الامكان ضرب غضبتكم بقوة . ولكن المهارة فى الخداع سمحت لجزء من بخار الغضب المكتوم أن يتسرب الى الخارج .. تطبيقا لمبدأ الانحناء للعاصفة . واستعدادا لمعاودة السيطرة على الموقف فى عنف وضراوة . كانت انطلاقتكم علامة صحية

ـ فعلا ـ اكدت لمن بيدهم الامر ضرورة الاستعداد لحقن الشعب بجريمة كبيرة من « المخدر » الذى يعيده ويعيد الشباب خاصة الى الكهوف التى اعدت لهم .

وقد كان ..

اذ لم تلبث فلول التضليل بعد ان استعادت سيطرتها على الموقف ، ان بدأت مهمتها الجديدة .. فاخذت الصحف تدق الطبول بنغمات جديدة .. وعادت عجلة المطابع تدور لتخرج على الناس بالاكاذيب ، وبالاضاليل .. واذا كانوا لم يستطيعوا ان يحولوا هزيمة يونيو الى النصر .. فقد اكتفوا بأن سموا النكبة « بالنكسة » .

طالبة : ومع هذا ابينا العودة الى الكهوف .. اننا لم ننم نومة أهل الكهف ؟

الاستاذ : لم تصمتوا ، ولم تناموا فعلا . ولكن اهتماماتكم وتحركاتكم بعثرت فى اتجاهات غير مدروسة ، أو بمعنى أصح ادخلتكم « الكهوف » التى علق عليها اسم « التنظيمات » فازداد بعضكم ضيقا ، وتسرب اليأس الى البعض الاخر وخضع الباقى لتيارات خارجية .. بذلك كله تحقق الهدف فى أن يتمزق الشباب مرة أخرى ، وأن تذهب صرخاته وتحركاته دون نتيجة ـ وبمعنى آخر نجحت حملات التضليل والتشكيك فى الحقائق فى تمزيق وحدة الغضب الأولى .

طالب : لست أدرى لماذا تصر دائما على ان تلقى التبعة على اكتافنا ، انكم ايضا اكثر مسئولية منا ، فقد تحرك الشباب ، ولم يتحرك الذين ارتدوا رداء الخبرة والتجربة.

الاستاذ : لقد تحركنا فى شبابنا وحققنا أكثر من نتيجة ، ولو انك عدت الى حركة الشباب فى عام ١٩٣٥ لادركت ان شباب ذلك الوقت كان قادرا على فرض ارادته على الكبار الذين يحكمون ، وانه عندما كان ينجح فى تحقيق ما يهدف اليه

كان يتراجع الى مكانه الطبيعى ليرقب ويتابع .. ثم يعاود غضبه اذا رأى الثمرة غير محققة .. ان عيبكم انكم لا تقراون تاريخ بلادكم القديم .. وقد امرتم بأن تقرأوا التاريخ كما كتب لكم ولم تفكروا فى أن تبحثوا بأنفسكم .

الطالب : لم نكن فى حاجة الى ذلك .. لاننا فعلا كنا نريد أن نفصل حاضرنا عن ماضينا ..

الأستاذ : من الخطأ القول بأنكم « أردتم ذلك » وانما أرادت أداة الحكم لكم ذلك فخضعتم لها .. ان الذى يفصل ماضيه عن حاضره . هو الجاهل الذى لا يعرف أن الحاضر صورة « معدلة » من الماضى ..

طالبة : انى احس باننا نكاد نخرج عن أصل موضوع حوارنا .. ولعل السؤال التالى الذى نطرحه للمناقشة هو : ماذا كنت تريد منا أن نفعل بعد أن تحركنا وتوقفنا . ؟

الأستاذ : كنت أود أن تكون « يقظتكم » كاملة ، فتحرصوا على رفض كل تكرار للماضى .. وتصروا على أن تكون « محاسبة » المسئولين عن كارثة ٥ يونيو سريعة وحاسمة .. وقد كان ممكنا أن يؤدى هذا الحساب الى فتح أبواب الماضى على مصاريعها لتخرج منها الرائحة « الكريهة » وينظف البيت ، ويعرف كل مخطىء أن الخطأ له ثمنه ، وأن الشعوب لا تفرط فى حقوقها بسهولة ..

طالبة : الم يحدث هذا فى حركة التصحيح ؟

الاستاذ : وهل كان يجب الانتظار هذه السنوات الطوال ليتم التصحيح على مراحل .. ؟ أليس فى هذا الانتظار الدليل على أن الشعب قد رضى بما تم فى ٥ يونيو ؟ الا تذكر عضو مجلس الأمة الذى وقف يرقص فى المجلس وقواتنا مازالت تضرب فى صحراء سيناء باحثة عن طريق آمنة

تقودها الى أرض الوطن .. الم تنشر هذه الصورة فى صدر صحيفة الاهرام كدليل على فرحة الشعب ..

طالبة : فرحته بمـــاذا ؟

الاستاذ : فرحته باستمرار الاوضاع كما كانت وان ٩ ، ١٠ يونيو كانا من ايام تاريخنا المجيد .

طالبة : هذا غير صحيح ؟ انك تجرحنا بهذا الكلام ..

الأستاذ : هكذا ننسى بسرعة ، وهذا هو عيبنا الأكبر . أن نخضع للعاطفة ، وننساق وراء الخيال والامال الكاذبة . عودى الى صحف الأيام التسعة أو العشرة الأولى من شهر يونيو وستقرأين ما يؤيد هذا الكلام ، ولعلك عشت فى تلك الفترة مندفعة فى تيار « الخداع » فمرت الاحداث .. ولم تترك فى نفسك الجرح الكبير .

طالب : فليكن هذا صحيحا فماذا تطلب منا الان .. ؟

الاستاذ : أمر بسيط .. ان تبدأوا فى دراسة تاريخنا الماضى وان تفهموا جيدا ما كنا فيه .. ثم نقيم هذا الماضي تقييما عادلا، ونضع لانفسنا مبادىء اساسية ، مستمدة من التجارب التى مرت بنا فى تاريخنا الحديث ، وأن نحدد بشكل قاطع ما نقبله ومالا نقبله . وأن نضع النقط فوق الحروف ، ثم نتعلم النطق بلغة الرفض متى تأكدنا أن هذا الرفض من الضروريات اساسية .

اننا لا ننكر أن نصر ٦ أكتوبر ١٩٧٣ قد مسح بعض الخطايا، ولكن من المؤكد ان الاستفادة من احداث ٥ يونيو لم تتحقق حتى الان .. اذ مازال بعض الناس يتوهمون أن النكسة كانت من صنع الذين عوقبوا وذهبوا بينما الحقيقة أن المسئولين الحقيقيين مازالوا — غيابيا وحضــوريا — يتحركون فى دائرة البراءة .. وهذه هى الجريمة الكبرى فى حق شعب عاش فى وهم .. ويقاسى الان ويلات هذا الوهم .. ؟

طالبة : اننى احس اننا ندخل فى موضوع قد يطول بحثه .. اننا هنا نريد أن نفهم حقائق ٥ يونيو ؟

الاستاذ : ان الكلام عن حقائق ٥ يونيو لا يمكن ان يتم فى حوار او أكثر .. فهو اكبر من ذلك بكثير ، وملفاته مازالت مغلقة ، ولكى تكون حيثيات الحكم فى هذه القضية الكبرى سليمة لابد من فتح هـذه الملفات ، ولست ادعى انى اعرف كل هذه الحقائق أو الكثير منها الذى يسمح لى بأن أكون امينا معكم ، ولكن الذى اعـرفه كمصرى ان نتائج هذا اليوم قد فتحت أبواب القاهرة على مصاريعها لكى يدخل منها جيش محتل . يمثل دولة صغيرة هى اسرائيل .. وانه بعد ١٥ عاما من قيام ثورة مصرية كان من أهدافها الستة اقامة جيش وطنى قوى ، هزم هذا الجيش فى معركة لم تستمر أكثر من ستة أيام كان اليوم الأول منها حاسما صارخا بالهزيمة . فهى معركة اليوم الواحد وليست معركة الايام الستة .

طالب : ولكن ما قاله الرئيس عبد الناصر فى مؤتمره الصحفى السابق للمعركة كان يؤكد أن وضعنا كان طيبا .

الأستاذ : نعم فقد تضمن هـذا المؤتمر الصحفى الذى عقده الرئيس عبد الناصر مع ممثلى الصحف العالمية فى نهاية شهر مايو أن مصر قد استعدت لكل احتمال عسكرى حتى ان اغلبية الشعب المصرى اعتبر ما جاء فى هذا المؤتمر من أقوى ما صرح به الرئيس عبد الناصر .

الطالبة : هـذا صحيح . ؟

الاستاذ : ثم اتضح بعد بدء المعركة أن كل ماذكر غير صحيح .

الطالبة : انى أرى أن المصلحة تحتم ان نتكلم عن الايام السابقة لمعركة يونيو ليكون كلامنا سليما .

الأستاذ : لا مانع من ذلك ، ولكن لكى نكون منصفين ولكى يكون

حوارنا عادلا لابد من القول بان ما سارويه لكم عما اعرفه من وقائع هو امر مؤكد عشته بنفسى او حققتـــه بنفسى . ومع هذا فما زالت كل وقائع هذا اليوم الخطير أكبر من ان نلم بها فى حوارنا .

والمهم الذى اريد ابرازه هو ان الوقائع التى سأرويها لكم تدل على أن الجدية فى المعركة لم تكن متوافرة وأن الزعيم اراد أن يلعب لعبة سياسية يستخدم فيها جيوش العرب وكرامتهم دون أن يكون مستعدا لصيانة لعبته السياسية من الانهيار المرعب .. فكانت النتيجة لذلك نكبة سياسية وعسكرية مازلنا نعيش اصداءها حتى الان .

ومهما يكن من امر فقـــد تحركت القوات المصرية فى صورة مواكب ، مندفعة الى الجبهة المصرية فى سيناء وعلى حدود اسرائيـــل ، وانطلقت فى نفس الوقت عدســـات التليفزيون المصرى تصور هذه التحركات واذاعت الصحف والراديو انباء هذه التحركات مما جعل الناس يتساءلون : « هل لهذه التحركات طابع الجدية ؟ واذا كان لها طـــابع الجدية فعلا فهل تذاع أسرار هذه التحركات بهذه الطريقة البدائية ؟ واذا لم تكن هذه اسرارا عسكرية ، فما هى الأسرار العسكرية اذن » ؟

ومن المؤكد أن الصحفيين الذين ذهبوا الى الجبهة ، عادوا يروون لنا قصصا غريبة ، فقد كانت القوات المصرية تتحرك الى الجبهة بلا طعام ، وبلا ماء ، وبلا استعداد ، وقد روى الاستاذ انيس منصور أن الجنود كانوا يوقفون سيارته فى الطـــريق ليطلبوا « امدادات » تعينهم على استكمال المشوار . وعاد أنيس منصور يتساءل « انحن جادون فعلا » ؟

وكنا نستمع الى هذه التفاصيل ولا نصدقها ، فليس من المعقول أن يرســـل جيش مصر الى الجبهة « ليقـــاتل » ويدافع عن الكيان العربى ، وهذا هو حاله من عـــدم

الاستعداد . وليس من الممكن ، بعد تجربة حرب عام ١٩٥٦ أن يساق الجيش المصرى الى ميدان معركة «ثأر» وكرامة ومعركة « عزة » دون حساب دقيق لما يحتاجه هذا الجيش العظيم من عتاد وطعام .

بل جاءنا بعد ذلك عائد من الجبهة ليقول أن القوات الذاهبة الى الميدان لا تعرف « بالضبط » أين مكانها من خط المواجهة . فهناك مجموعات عسكرت فى جهات معينة ، ثم صدرت لها الاوامر بعد ذلك ، بالانتقال الى مكان آخر .. وهكذا ظلت الوحدات تنتقل من مكان الى مكان بلا قاعدة أو سبب . ومن المؤكد أن أجهزة المخابرات الاسرائيلية كانت ترقب هذا كله ، وتعلم أكثر مما كنا نعلم . وعلى هذا الاساس عرفوا أن مأساة ١٩٥٦ يمكن أن تتكرر دون حاجة الى عون بريطانى — فرنسى كما حدث فى هذا العام الكريه ، ولعل هذا الارتباك هو الذى جعل اسرائيل لا تصدق ما قاله جمال عبد الناصر فى مؤتمره الصحفى الذى عقده فى ٢٩ مايو ١٩٦٧ : « اهو النهاردة احنا واسرائيل لوحدنا ، اذا كانوا عايزين يجربوا الحرب أقول لهم تانى النهاردة : أهلا وسهلا .. »

هذه الوقائع كلها — وهى ثابتة بما لا يقبل الشك وسنزيدها دليلا عندما نتعرض لاغلاق خليج العقبة — تؤكد أن جمال عبد الناصر لم يكن جادا فى الاستعداد لهذه المعركة . وان ماقاله لزميله عبد اللطيف البغدادى من أنه وجد العرب نياما فأراد ايقاظهم بهذه الطريقة ، انما كان يعبر عن الواقع فعلا . بل هناك ما يؤيد ذلك بكلام علنى القاه جمال عبد الناصر فى خطابه التاريخى يوم ٢٣ يوليو من عام ١٩٦٧ أمام جمع من القيادات الشعبية بقاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة .. قال عبد الناصر فى ذلك اليوم « عندما بدانا بحشد القوات كان احتمال الحرب بالنسبة لى ٢٠٪ » ..

ورغم انه قال بعد ذلك مباشرة أن احتمالات الحرب زادت عنده الى ٨٠٪ بعد اغلاق خليج العقبة ، الا اننا

نقف عند النسبة الاولى ونتساءل دون أن ندخل فى اعتبارنا ما قاله من أنه اراد ايقاظ العرب النيام .. هل كان عبد الناصر يقصد بذلك ان حشـــد القوات المصرية سيضعف احتمالات قيام القوات الاسرائيلية بمهاجمة سوريا ؟ أم أن الرئيس المصرى نفسه كان يعلم انه لا حشد اسرائيلى على الحدود السورية ، ولهـــذا كان يعلم فى مايو ١٩٦٧ أن احتمالات الحرب ضئيلة للغـــاية بحيث لا تتجاوز ٢٠٪ ؟ ثم كيف يتفق هذا مع ما قاله فى بيانه يوم ٢٣ يوليو ١٩٦٧: والوفد البرلمانى كان فى زيارة لموسكو برئاسة السيد أنور السادات وقام الأصدقاء السوفيت فى هـــذا الوقت بابلاغ السيد أنور السادات « بأن غزو سوريا وشيك » . ومعنى هذا الاخطار السوفيتى هو أن اسرائيل حشدت قواتهـــا فعلا . وانها على وشك أن تبدأ عملية الغزو . ومعناه التالى مباشرة هو أن احتمالات الحرب لم تكن ٢٠٪ كمـــا قال جمال عبد الناصر وانما كانت ١٠٠٪ .

طالب : ولكن كيف بدأت الزوبعـــة .. وماذا قال المحايـــدون الذين درسوا المعركة جيدا ؟

الأستاذ : ظهـــور أزمة مايـــو فى الجو ، زار أنور الســـــادات الاتحاد السوفيتى ، ثم عاد الى مصر لينقل الى جمـــال عبد الناصر ما أكده له السوفيت من أن اسرائيل تحشد قواتها على حدود سوريا ، وأنها تعد العدة لهجوم شامل على هذا القطر العربى ؟

وتحرك جمال عبد الناصر بكل طاقته استعدادا لهـــذه المعركة ، وتكهرب الجو .. وكتب ونستون تشرشل الصغير بالاشتراك مع والده راندولف تشرشل فى بداية كتـــابه « حرب الأيام الستة » وهو يؤرخ لمعركة سيناء ١٩٦٧ ، « لقد بدأت المعركة بكذبة » وكان يقصد بالكذبة الحشـــد الاسرائيلى على حدود سوريا . ويمضى الكاتب الانجليزى فيقول أن ليفى اشكول رئيس وزراء اسرائيل فى ذلك الوقت استدعى السفير السوفيتى وأكد له أن اسرائيل لا تحشد قواتهـــا على حدود سوريا ، وانها لا تنوى أن تفعل . ثم طلب منه مرافقته الى الجبهة السورية ليتأكد

من ذلك بنفسه . ولكن السفير السوفيتى رفض هـذه الدعوة . وقد ذهب الفريق محمد فوزى الى سوريا ، وطار فوق الحدود السورية ، فلم يجد مايثبت وجود هذا الحشد الاسرائيلى . كما انه فوجىء عند وصوله الى دمشق باسئلة تنهال عليه من السوريين قائلة : اين هذه الحشود التى تتحدثون عنها فى القـاهرة ؟ وعاد الفريق فوزى الى القـاهرة وابلغ المسـئولين نتيجة تحـرياته ومشاهداته الشخصية .

ولقد اشار محمد حسنين هيكل الى ذلك فى مقال نشره عام ١٩٧٠ عندما كان يسعرض بعض الوقائع عن حرب يونيو ١٩٦٧ الى « حكاية التهديد الاسرائيلى لسوريا » وكان فى اشارته ميالا الى التشكيك فى صحة هذا التهديد وان لم يقل صراحة أن مصر كانت ضحية لهذا التهديد .

والسؤال الذى يجب ان نسأله هو « هل كان جمال عبد الناصر يعلم باللعبة السوفيتية أم انها كانت أكبـر من تفكيره ؟ » وقبل ذلك هل كان السوفييت قد بداوا خطوتهم الكبرى فى « توريط » مصر فى أزمة اكبر من طاقتها لكى يزداد طرفا الكماشة اقترابا ؟ أن الجواب عن ذلك يمكن استخلاصـه من واقع ما قاله عبد النـاصر فى ذلك الوقت وما صرح به لبعض زملائه ابان بحث اسباب هذه الازمة ، وقبل وقوع كارثة يونيو ١٩٦٧ فقد سـأله عبد اللطيف بغدادى عندما زاره معلنا استعداده لتقديم كل « عون » ما الذى اثار هذه الأزمة كلها ؟ فرد عليه عبد الناصر قائلا « لقد رايت العرب قد استكانوا الى النوم ، فأحببت أن اوقظهم » وبادر بغدادى يسأله « واذا قامت اسرائيل بعدوان فعلا فما هو الوضع ؟ » فرد عبد الناصر قائلا « ان اسرائيل ليست مستعدة لذلك . بل لا يمكن أن تكون مستعدة قبل ستة اشهر . »

ومن هذه الواقعة المؤكدة تستطيع ان تفهم أن عبدالناصر اراد استغلال ما سمى بالتهديد الاسرائيلى لسوريا لكى يثير أزمة من الازمات التى اعتاد اثارتها كلما اراد أن يشغل الوطن العربى والجبهة الداخلية بعملية مثيرة ؟

ولعل السوفييت كانوا يعلمون من طبيعته أكثر مما نعلم ، وان سياستهم رسمت على هذا الاساس ليتمكنوا من المضى خطوات اخرى نحو سياسة اطباق « الكماشة » على عنق الشعب العربى ومن هنا قدموا لجمال عبدالناصر ما يمكنه من القيام بلعبته .. بينما كانوا يقومون بلعبة أخرى تنتهى الى ما انتهت اليه حرب يونيو من تدمير كامل للقوات المصرية ، بحيث تتاح لهم فرصة القيام مرة أخرى بدور المنقذ الذى لا يطلب شيئا غير مساعدة الصديق والاخ فى الكفاح ضد الاستعمار والامبريالية ، ومن هذا المنطلق يمكن استكمال خطة « الكماشة » حتى نهايتها فى سنوات أقل مما قدر لها .

وجمال عبد الناصر يقول فى خطابه بجامعة القاهرة يوم ٢٣ يوليو ١٩٦٧ :

« كنا نعمل ايه . كنا نستطيع ان نسكت . وكنا نستطيع أن ننتظر . وكنا نستطيع أن نكتفى باصدار البيانات الانشائية والتأييد والبرقيات . لكن هذا الوطن اذا قبل التصرف على هذا النحو كان يتخلى عن رسالته وعن دوره وعن شخصيته .. كان بيننا وبين سوريا اتفاقية الدفاع المشترك ونحن نقدس هذه الاتفاقيات ونعتبرها شرفا والتزاما ..... لذلك كان حتما علينا أن نتحرك عمليا لمواجهة الخطر على سوريا خصوصا وان تصريحات القادة السياسيين والعسكريين فى اسرائيل فى هذا الوقت وتهديداتهم الفعلية لسوريا .. لم تترك لاحد فرصة الشك فى أية معلومات . »

هذا الكلام لا يعنى الا أن احتمالات الحرب كانت ١٠٠٪ ومع هذا فهل كان جمال عبد الناصر قد اعد جيشه لهذا الاحتمال الخطير . احتمال مواجهة اسرائيل للمرة الثانية فى حرب ثارية . أو فى حرب يدافع فيها عن العروبة ؟ ان الجواب على هذا السؤال يكمن فى تحليل قام به الجنرال بوفر الذى جاء الى القاهرة فى اوائل عام ١٩٧١ بدعوة

من جريدة الأهرام فماذا قال الجنرال الكبير الذى وصفه الاهرام بأنه من أحسن الدارسين والمعلمين فى الاستراتيجية :

قال الجنرال بوفر — وأنا انقل كلامه عن محاضرة القاها على العسكريين المصريين وسجلت فى ملفات الاهرام :

١ — ان ما يثير الدهشة من الناحية العسكرية هو سرعة المعركة .

٢ — وقد يكون السبب هو **أن الجيش المصرى لم يكن مستعدا لمعركة من هذا النوع** ، وفى كل الحالات فالثابت أن المعركة كانت اقصر معركة منذ الحرب العالمية الثانية .
٣ — وقد تحقق هذا النصر السريع فى ساعات لأن المواقع المصرية لم تكن مرضية تماما .

٤ — وقال بوفر انه فى ابان الاستعداد لمعركة ١٩٥٦ كان من رأى البريطانيين أنه يمكن القضاء على السلاح الجوى المصرى فى ٣ أيام . ولكن الطيران الاسرائيلى استطاع فى عام ٦٧ أن يقضى على الطيران المصرى فى أقل من نصف يوم .

٥ — الاغرب من هذا ان القوات العربية البرية هزمت فى يوم واحد . يوم فى مصر . ويوم فى سوريا . ويوم فى الاردن ، وبذلك تكون اسرائيل قد حققت شيئا لم يحققه احد من قبل . وقد أطلق الجنرال بوفر عليها اسم « معارك اليوم الواحد » .

٦ — وقال أن الخطأ الاكبر بالنسبة للقوات البرية هى ان الجزء الاكبر منها تركز فى الخطوط الامامية ولم تكن المواقع المصرية مرتبطة بعضها ببعض .

٧ — وقد استخدمت القوات الاسرائيلية خطة قائمة على سرعة الوصول الى نتائج حاسمة قبل تدخل من

الامم المتحدة ، أو تدخل من جانب قوات أخرى ، ولهذا كانت القوات الزاحفة تحمل معها كل ما يلزمها من البترول والذخيرة التى تكفى للقتال ثلاثة ايام على اساس أن هذا الوقت هو الحد الاقصى الذى يجب أن تنتهى عنده المعركة . وهكذا جرت المعركة دون أن يدخلوا فى اعتبارهم ضرورة وجود خطوط مواصلات .

٨ — وفى رأى بوفر أن المواقع المصرية اختيرت كلها وفقا لخطة سوفيتية ، ومن هنا لم يفهم السوفيت على الاطلاق نوع الحرب التى ستواجه الجيش المصرى ، وليس هذا معناه أن الجندى الروسى غير قادر ولكن ربما كانوا أقدر على وضع الخطط التى تناسبهم ، وهى تختلف قطعا عن الخطط التى تتناسب مع الظروف التى تواجه الجيش المصرى .

ولكنا مع هذا نعود مرة أخرى — وباصرار — الى اللعبة السوفيتية التى أراد بها السوفيت اثارة الفوضى فى المنطقة خدمة لمصالحهم ، وأراد بها جمال عبد الناصر أن يستغل نصيحة هؤلاء الأصدقاء السوفييت لكى يوقظ العرب من نومهم ، واستغلت اسرائيل هذه الخدع كلها لكى تخدم مصلحتها الرئيسية وهى أن تصبح فى وضع عسكرى تفرض منه الصلح على الدول العربية وأن تحدد الحدود الآمنة لها أو التى تزداد بها توسعا .

وقد تجمعت أدلة كثيرة بعد المعركة بسنوات أيدت وتؤيد أن اللعبة السوفيتية كان لها أكثر من هدف ، وأنها اشتركت مع لعبة اسرائيلية ماهرة فى تحقيق أهدافها . كانت هناك عوامل خبيثة تلعب دورها فى هذا الموضوع ، ومن المؤلم ان نسقط فى الهاوية بأيدينا وبذكائنا الخارق .. (؟) رغبة منا فى أن نمارس أيضا « اللعب السياسى » فى عملية أكبر من طاقتنا . واكبر من طاقة مخابراتنا العسكرية ، هذه المخابرات التى كانت توجه نشاطها كله لمحاربة خصوم عبد الناصر فى داخل البلاد العربية . وتدع اسرائيل تلعب باقدارنا واقدار شعوبنا ، أو تدبر الانقلابات فى داخل البلاد العربية دون متابعة او دراسة أو اهتمام .

ان جمال عبد الناصر يعترف بذلك فى خطابه يوم ٢٣ يوليو ١٩٦٧ بجامعة القاهرة فيقول : « ان هذه الأزمة التى نواجهها وان لم تكن أخطر ما واجهناه وأصعبه فهى على وجه التأكيد من أخبث ما لاقيناه واكثره لؤما » .

ومن المؤكد حسب قول عبد الناصر نفسه « ان عملية الحشد العسكرى التى انتهت باغلاق مضايق تيران فى خليج العقبة بدأت يوم عاد الوفد المصرى من موسكو ليقول ان العدوان الاسرائيلى على سوريا يوشك أن يقع ومعنى هذا أن التحذير السوفيتى الصديق كان أول انذار .. فهل كان الأصدقاء السوفييت صادقين فى تحذيرهم هل كانوا يهدفون حقا الى تقديم خدمة للشعوب العربية ؟ وفى مقدمتها الشعب المصرى والجيش المصرى ؟ أم ان الحكومة السوفيتية الصديقة أرادت استخدامنا لتحقيق أغراضها ؟ ثم ماذا كانت هذه الأغراض ؟

ان الأدلة التى تجمعت لدينا تتمثل فى أقوال بعض من يعلم ، وبعض من عرف التاريخ جيدا .

١ — ففى جلسة اخرى من الجلسات التى عقدها الجنرال بوفر فى جريدة الأهرام فى يناير ١٩٧١ مع مجموعة من الضباط المصريين ، وبحضور بعض من المدنيين أثير مرة أخرى موضوع التحذير السوفيتى بشأن الحشد الاسرائيلى على حدود سوريا .. وسأل أحد الحاضرين عما اذا كان لحرب فيتنام صلة بهذا الموضوع فأجاب بوفر :

« اظن أنه كانت هناك صلة كبيرة . وهذا الرأى هو رأى شخصى، وقد أكون مخطئا . ولكن لدى الاحساس أن التقارير الخاطئة التى قدمتها المخابرات السوفيتية عن التهديد الاسرائيلى لسوريا فى عام ١٩٦٧ كانت تستهدف زغزغة هذا الجزء من العالم حتى تنصرف امريكا عن مواصلة الحرب فى فيتنام ، ولكن الوضع تطور الى ما هو أبعد من « الزعزعة » أو الى أبعد مما ظنوا أو دبروا .

٢ — وفى رواية ان السفير السوفيتى فى اسرائيل خلال ازمة عام ١٩٦٧ كان من أصل يهودى ، وقد اراد ان يقدم خدمة لحكومته والى

الحكومة الاسرائيلية فى الوقت نفسه ، فكانت تقاريره غير الصادقة عن الحشد الاسرائيلى .

هل نكتفى بهذا القدر البسيط من المعلومات المؤكدة ؟ .. ان المضى فى السرد قد لا يتوقف ولكنا مع هذا نفضل الالتزام بالواقعية. والانتظار حتى تتكشف كل الوقائع ان قدر لها أن ترى النور . على أن المهم أن مصر الرسمية ، حتى بعد الهزيمة ، كانت هى نفسها مصر العابثة قبل الهزيمة .. ولكى أدلل لكم على ذلك فاسمعوا القصة التالية :

منذ اليوم الأول للمعركة كان مجلس الأمن التابع للامم المتحدة فى اجتماعات متصلة لبحث الموقف ، واتخاذ قرار يحسم المعركة ، والواقع أن أعضاء مجلس الأمن كانوا يعيشون فى ظلام . فان اسرائيل بعد أن أحست بنجاحها الساحق فى ضربتها الأولى وأيقنت أنها احتوت جيش مصر وأصبح الطريق أمامها مفتوحا الى الضفة الغربية للقنال التجأت الى فرض ستار من السرية على تحركاتها فلم تقل للعالم شيئا عن انتصاراتها .

وفى الجانب المقابل للمعركة كانت القيادة المصرية تعلم ان جيشنا قد انتهى ، ومع هذا كانت تذيع الأنباء عن انتصارات وهمية جعلت الشعب يعيش فى وهم ، وفى خلال ذلك كان ممثل مصر الدائم فى الأمم المتحدة السفير محمد عوض القونى يجهل ماذا يفعل ، وفى يوم ٧ يونيو ١٩٦٧ — أى بعد أن تأكدت الهزيمة مائة فى المائة — اتصل وزير الخارجية المصرى السيد / محمود رياض وأخطره بأن المعركة ماضية فى طريقها لصالحنا ، واننا قد حققنا انتصارات حاسمة وعليه أن يلقى خطابا فى مجلس الأمن وان يكون موقفه متشددا .

وسهر السفير المصرى مع مستشاريه يعد خطابه القوى ، وكان كلما عرض عليه مشروع خطاب واحس بأنه غير قوى ، طالب بأن تضاف اليه عبارات أقوى ، وفى خلال ذلك قيل للسفير ان وزير الخارجية على الخط التليفونى . فرفع السماعة ليسمع السيد محمود رياض يأمره بأن يذهب الى مجلس الأمن ويعطى الموافقة على وقف اطلاق النار بلا قيد أو شرط .

وسمع السفير القونى هذه التعليمات . ولم يتكلم . بل وضع سماعة التليفون والدموع تترقرق فى عينيه .. واهتز الشباب المصرى العامل معه .. ولم يخف دموعه .. بل تركها تتساقط بلا توقف .

وذهب السفير المصرى الى الأمم المتحدة ، فاذا به امام ثورة عارمة من ممثلى الأشقاء العرب الذين سمعوا بالنبأ ولم يصدقوه . بل طالبوا بأن تستمر مصر فى الحرب .. بأى ثمن .. وقال بعضهم للسفير أن هناك احتمالا بأن يكون الحديث التليفونى الذى جاءه من القاهرة من صنع الصهيونية وأن عليه التأكد مرة أخرى .

وكلف السفير احد اعوانه بأن يطلب سامى شرف للتحدث اليه ، وجاءت المكالمة بعد ربع ساعة فقال له السفير : ان وزير الخارجية قد ابلغنى بأن أوافق على وقف اطلاق النار .

ورد سامى شرف قائلا : نعم .. ولكن لنا شروطا .

وقال السفير : ولكن وزير الخارجية أمرنى أن تكون الموافقة بلا قيد أو شرط .

وسكت سامى قليلا ثم قال : كده .. ؟ يبقى خلاص .. نفذ كلام الوزير .

وهكذا تفهمون كيف كانت الحالة فى مصر .. وكيف كان الاضطراب يسود كل تصرفاتها . ومع هذا فلنرجع الى طرح تساؤلاتنا ..

ماذا فعلت الثورة فى خلال هذه الأعوام الخمسة عشر لتكون ثمرة عملها هزيمة ٥ يونيو ؟ ثم لماذا استطاعت مصر نفسها فى خلال خمس سنوات أن تكون جيشا قويا ينزل بجيش اسرائيل ضربة قوية مفاجئة مسحت عار هزيمة ٥ يونيو ؟ الم يكن نوع الرجال الذين حاربوا فى ٥ يونيو هو نفس نوع الرجال الذين حاربوا فى ٦ أكتوبر ؟ واذن فالعيب لم يكن فى الرجال الذين هم من صميم الشعب .. ولكن العيب كان فى الرجال الذين هيأوا الجو المناسب لهزيمة ٥ يونيو . وهذا الجو هو الذى تحدثنا عنه فى مراحل حوارنا الماضية ، ثم ان النكت التى أطلقها الشعب بعد هزيمة ٥ يونيو كانت نكتا مضحكة ودامية فى نفس الوقت لأنها ارجعت الهزيمة الى الانحلال الخلقى ،

والانحراف وعــدم تماسك الجبهة الداخليــة ، وتسابق الناس نحو الثراء .. لم يكن الجيش يحس بمناعة ظهــره .. ولهــذا هرب من الميدان لأنه لم يكن مؤمنا بأن هنــاك « قضة يدافع عنها » ثم هل لعبت العوامل الخارجية دورها الكبير فى دفع مصر الى تعبئة جيشها بلا استعداد ؟ وهل كان تبليغ الحكومة السوفيتية لمصر بأن اسرائيل توشك أن تهاجم سوريا تنفيذا لخطة مدبرة فى دفع عبد الناصر الى اتخاذ موقف « رد فعل مسبق » وهل كان ســامى شرف العميل السوفيتى طرفا فى تهيئة هذا الجو تمهيدا لهزيمة تنزل بالجيش المصرى وتمكن الاتحاد السوفيتى من تضييق حلقة سيطرته على مصر والشرق العربى ؟ أم ان العلاقة بين عبد الناصر والمشــير عبد الحكيم عامر كانت قد وصلت الى حد من السوء جعلته يفكر فى التخلص منه عن طريق هزيمة الجيش المصرى الذى كانت غالبيته تدين بالولاء لعامر قبل ناصر ؟ أم .....

طالب : هذه كلها استنتاجات ، وبعضها خطير .. ؟

الأستاذ : (**مقاطعا**) **أنا متفق معك فى هذا ، ولهذا قلت ان الــكلام** عن ٥ يونيو يجب أن يجرى فى حذر شديد ، لا على أساس أن هناك خلافا حول ما اذا كان نكبة أو غير نكبة ، فلا خلاف على الاطلاق فى أنه كان يوما أسود ، وان جانبا كبيرا من الأسباب التى أدت اليه كان من صنع النظام الحاكم . أما الكلام عن الجانب الباقى من أســبابه العســكرية والسياسية فيجب أن يترك للذين يستطيعون أن يكشفوا الحقائق الكاملة بأمانة ودقة .

طالب : وهل تصلح لأداء هذا العمل لجنة التحقيق التى شــكلت أخيرا للاستماع الى أسباب هذه الكارثة ؟

الأستاذ : يمكن أن تنجح اذا ما توافرت لها وللجو الذى تعمــل فيه شروط أساسية . أولها أن تكون أعمالها معروضــة على الرأى العام ، وثانيها أن تحدد للانتهاء من عملهــا تاريخا معينــا بحيث لا يطول الوقت أكثر مما يجب .. وثالثها أن يشمل تحقيقها كل الأطراف . ورابعها أن تشكل بعد ذلك محاكم توقع الجزاء على من يستحقه ، وأهم من

ذلك كله ان يكون تشكيلها للوصول الى هدف لا ان يكون لغرض ارضاء مؤقت لمطلب شعبى .

طالبة : اى ان علينا أن ننتظر الى أن تفتح ملفات الماضى كله . انى اتفق معك فى أن عناصر الهيكل الذى تشكل به المجتمع هى التى أدت الى كارثة ٥ يونيو ولابد من تحديدها .

الأستاذ : ان اللجنة المشكلة بقرار من رئيس الجمهورية للتحقيق لن تبحث ــ كما هو مفروض ــ فيما اذا كانت هناك كارثة قد وقعت أم لا ، فهذه نتيجة لا خلاف عليها . وانما الخلاف القائم هو : من هو المسئول الفعلى عن التمهيد لوقوع هذه الكارثة .. ولهذا لا يعنينا الانتظار بقدر ما يعنينا أن نفتح باب الحساب . وما دام هذا الباب قد فتح ، فلن يغلق الا اذا قال الشعب كلمته . ولن يعوق فتح هذه الملفات حركة التقدم والاصلاح ، لأن مجرد تحقق الجزاء والعقاب يعنى أن البناء الجديد سيكون سليما .

طالب : هل تريد بذلك أن تقول اننا لم نستفد تماما من أخطاء ٥ يونيو ؟

الأستاذ : لقد كان ما حققه ٦ أكتوبر ١٩٧٣ هو الاستفادة الكبرى من بعض الأخطاء العسكرية والسياسية .

طالبة : هل تعنى بذلك اننا بعد ثورة ١٥ مايو لم نستفد استفادة كاملة من الأخطاء التى أدت الى وقوع الكارثة الكبرى فى ٥ يونيو ؟

الأستاذ : استفدنا بعض الشىء ، ونحاول الان تجنب بعض الأسباب التى أدت اليها . واذا كان حوارنا كله قد فتح موضوعات كثيرة للمناقشة .. فان هذه المناقشة لا تنتهى بانتهاء هذا الحوار .. انها تشبه فتح الشهية والتحريض على التعمق فى البحث والدراسة ، والشىء الذى يجب أن نتفق عليه هو اننا لا نسمح ــ أو لن نسمح ــ بتكرار نفس الأخطاء التى

تمس النزاهة والشرف وطهارة اليد .. وكذلك الا نتساهل فى الخطأ الصغير الذى يقع فيه الكبير على أساس أنه صاحب منجزات أو صاحب انتصارات وان « المسامح كريم » هذا هو فى نظرى عودة الى العيش فى « الوهم » أو الى التساهل الذى يؤدى الى أوخم العواقب . ويخيل الى الان اننا نقترب من نهاية الجزء الأول من الحوار ، واننا قادرون اليوم على مناقشة أوضاعنا بفهم أعمق ، وبعقلية اقرب الى الاتفاق منها الى الخلاف . لست أدعى اننا قد وصلنا الى حكم نهائى بالنسبة للماضى القريب ، واننا قد توصلنا الى تخليص نفوسنا من آثاره . ولست أدعى أن هذا الماضى القريب قد خلا من الحسنات . ولكنها بالقطع ليست الحسنات التى جاءت الثورة من أجل اقامتها أو تحقيقها .

اننا نعتبر أنفسنا الان فى مرحلة انتقال . انتقال من ثورة ١٥ مايو الى ثورة المستقبل القريب . وكما قلنا من قبل ليس المقصود بها أن تكون ثورة تأكل أولادها ، أو تأكل أهدافها ، أو تأكل القليل الذى حققناه فى خلال سنوات ، ولكن المقصود منها أن تكون ثورة تمسح الأرض وتبقى ما يصلح — ولعله قليل — وتمهد العدالة والقانون والمساواة والاشتراكية الحقة التى تحقق الخير لمن هم تحت قبل أن تحققها لمن هم « فوق » .

طالبة : وهل نختتم حوارنا عند هذا الحد ؟ انى ارى أننا استعرضنا الماضى القريب بمعظم ابعاده ، ولكنا لم نتعرض للمستقبل بأبعاده كلها ، أعنى أننا يجب أن نطرح تصوراتنا للمستقبل للمناقشة المفتوحة .

الأستاذ : لم اقل اننا اختتمنا حوارنا ، ولكنى اقول اننا ختمنا جانبا منه ، والذى يدور حول الماضى القريب ، ولا اريد حاليا ان امضى فى الكلام عنه اكثر من ذلك ، لأنى على ثقة من ان الكلام عنه سيتجدد عندما تمضى عملية الحساب وكذلك عندما نناقش خطوات المستقبل .

طالب : واذا لم يتم هذا الحساب ؟

الأستاذ : اذا لم يتم هذا الحساب فلابد من أن يكون حسابنا مع كل من عطله او أوقف السير فيه .. المهم الان ننتقل الى الحاضر والى المستقبل وأن يكون انطلاقنا ناطقا بقدرتكم واستعدادكم لتحمل المسئولية ..

طالبة : ولكنى لا أوافق على وقف هذا الجانب من حوارنا عند هذا الحد ، اننا لابد من أن نتكلم عن الاشتراكية المصرية ، ماذا تحقق منها وماذا لم يتحقق . فمن الظلم للفترة السابقة أن تذكر معايبها ولا تذكر خيراتها ؟

الأستاذ : ألم نتكلم عن ذلك خلال جلساتنا السابقة ؟

الطالبة : نعم .. ولكن يجب أن نجعلها مادة لحوار مستقل .

***

الحوار الثالث عشر

حوار حول الاشتراكية

.. وكان الأستاذ يتصور ان مناقشة الاشتراكية المصرية ووسائل تطبيقها قد اخذت حظها خلال جلسات الحوار السابقة ... ولكن الطالبة التى اثارت الرغبة فى تخصيص حوار يدور حول أهدافها وما حققته للمجتمع ، وهى من الذين آمنوا بالثورة ومنجزاتها ايمانا لا يتزعزع ... وهى ترى أن النظام الذى ولدت وترعرعت فيه قد خلق عملا لكل فرد .. وحقق مجانية التعليم ، وأشاع العدالة فى المجتمع ، وقرب بين الطبقات وخلق الصناعة المصرية .. وهى اذا كانت قد سمعت وقرأت لأول مرة عن مخالفات تتصل بالحريات الفردية ، ووقائع تعذيب نفسي وجسمانى . فهى ترى أن ذلك كان ضروريا لتأمين الثورة وحماية المكاسب الاشتراكية الضخمة التى تحققت وكانت هدفا للاستعمار وأذناب الاستعمار والرجعية العربية التى مازالت جيوبها القوية تهدد المنطقة بخطرها ونفوذها البترولى ..

وقد قبل الأستاذ العودة الى مناقشة هذا الموضوع كيلا تتأثر جلسات الحوار فى صميم ايجابياتها ، ولأنه يعرف ان هذه الطالبة ليست وحدها التى مازالت ترفض القاء نظرة على ميزانية الأرباح والخسائر لترى هل حققت الاشتراكية المصرية أهدافها أم لم تحقق..

وتطلع الأستاذ الى الطالبة قائلا : ان الذى لا خلاف عليه هو ان النظام الاشتراكى أنسب النظم لتطوير المجتمع المصرى.ولم يكن مولد اشتراكيتنا مع مولد الثورة ، بل كانت هناك رغبات واتجاهات نحو الاشتراكية تضغط على مجتمعنا فى عهد الملك فاروق . ولا جدال فى انها آراء حوربت ، واتهمت بأنها آراء هدامة وملحدة .. وكان طبيعيا ان يحدث ذلك لان المجتمع الفاروقى كانت تسيطر عليه رأسمالية يؤرقها اى كلام عن الاشتراكية .

وجاءت الثورة لتطبق الاشتراكية على اوسع نطاق ، وتجعلها اساسا للحكم . وحددت الملكية الزراعية على مراحل . وبذلك قضت على الاقطاع . واصدرت القوانين الاشتراكية فأممت كل الصناعات والبنوك وشركات التأمين .. وبذلك قضت على سيطرة رأس المال على الحكم . ثم اتجهت بعد ذلك الى اطلاق مجانية التعليم — وقد كانت مقررة من قبل — فأضافت اليها الجامعة ، وجعلت التعليم بها مجانيا . ثم انطلقت من اشتراكية التعليم الى اشتراكية الاستقلال الصناعى وقررت ان تكون مصر دولة منتجة من الابرة الى الصاروخ ، وان يكون لكل مواطن فيها السكن المناسب وان يوفر له كل ما يحتاج اليه من ملبس .. ومأكل وسيارة .. وكل شىء ..

الطالبة : اذن فأنت متفق معى فى ان هذه الانجازات الضخمة قد رفعت من رصيد الثورة فى حساب الأرباح والخسائر ؟

الاستاذ : هنا نختلف فلو ان التطبيق سبقه التخطيط العلمى السليم لما اهتزت الثقة فى الاشتراكية ، ولتحول الشعب بأكمله — بصرف النظر عن الجيوب الرجعية التى تأثرت نتيجة للتطور الاشتراكى — الى جيش يدافع عن هذه الاشتراكية . بل لما وقعت هزيمة ٥ يونيو .

الطالبة : وما دخل الاشتراكية فى هزيمتنا فى ١٩٦٧ ؟

الاستاذ : لان الذى يحارب من اجل هدف .. لا يهزم بسهولة .. بل يكون أقرب الى الانتصار منه الى الهزيمة .

الطالبة : أخشى أن نوسع دائرة حوارنا الأصلى بحيث ندخل فى متاهات لا أول لها ولا آخر .

الاستاذ : سأترك ٥ يونيو ، وأعود الى نقطة البداية فاسأل : هل يسبق التخطيط التطبيق. .ام ان العكس هو الذى وقع..؟ ولكى اثبت لك اننا اخترنا الطريق المخالف لابد لنا من التحدث عن تحديد الملكية ، هذا الاجراء العادل اعطى الفلاح أرضا يملكها ويزرعها — ولكنه واجه حالات لم يكن

يواجهها من قبل ، واجــه اقطاعا ممثلا فى الجمعيــات التعاونية التى سيطرت على كل عناصر الفساد لتسلب من الفلاح ثمرة جهده الذى يذله طوال العام كمالك للارض . ومن هنا تولدت فى نفسه كل عوامل الكفر بالاشتراكية التى تعطيه أرضا باليمين وتسحب حقه فيها باليسار . هل أقول هذا الكلام بلا دليل أم ان الحكومات المختلفة اعترفت بهذا الواقع بعد ازدياد السخط داخل كل قرية ، وحاولت مرارا وتــكراراً ان تصلح ما أفســدته الجمعيات التعــاونية وفشلت .

فلو أن تخطيطا علميا سبق التطبيق ، ما كان يمكن أن تكون الأخطاء بهذه الفداحة التى جعلت الفلاح يعود بذاكرته الى النغمات القديمة المغرضة التى كانت تحاول اقناعه بأن الاشتراكية كفر والحاد ؟ فهل صحيح انها الالحاد والكفر. ؟ أم ان الذين طبقوها لأغراض خاصة هم الذين لم يؤمنــوا بها .. ؟ والا كيف تطلب من غير المؤمن ان يجعلك مؤمنا . ان الفلاح لم يجد جديدا فى التغيير الكبير الذى اهدى له ، بل رأى فيه صورة مميزة لاهمال أمره ، وتركه فريســة ان لم يكن فى يد الاقطاعيين القدامى ، ففى يد الطبقةالريفية الجديدة التى أرادت ان تقلد الذين حكموا الريف بجاههم وجبروتهم وسطوتهم . أرادت أن تكون طبقة اقطاعيــة جديدة وقد أصبحت فعلا بأدلة ووقائع .

الطالبة : وهل كنت تريد أن تؤجــل الثورة الاستيلاء على الأرض وتوزيعها على المعدمين ؟

الاستاذ : بالعكس . انما كان يجب ان يسبق ذلك اعداد الأجهزة التى تفهم معنى الاشتراكية وتعرف كيف تطبق مبادئهــا العادلة . وان تكون هناك توعية صادقة للفلاح ، وان تراقب الأجهزة الانحراف الجديد مع مولده ، فتقضى عليه فى مهده . وبمعنى اوسع ان تشكل الأجهزة الطاهرة التى تبشر بالاشتراكية عملا .. لا قولا .. ولــو انك القيت نظرة على الريف بوضعه الحالى ، وبعد عشرين سنة من قيام الثورة لاحسست بأننا اهملنا الأســاس فى كيــان

مجتمعنا . فمازال الريف على حالته ولا أريد ان اقول انه ازداد سوءا على سوء .

الطالبة : انتحديات الخـــارجية التى واجهت الثـــورة ، وخططت لعرقلة كل اصلاح داخلى هى السبب وراء ذلك كله ؟

الاستاذ : ربما .. ولكن ألم يكن ممكنا ان نقابل هذه التحديـــات بأخرى من صنعنا ، بأن نوفر كل ضمانات النزاهة وطهارة اليد التى تحقق عدالة فى توزيع كل ما يحتـــاج اليه رجل الريف ، قد يكون من نتائج التحديات الخارجية التى تقولين عنها نقص فى توفر البذرة والسماد والكسب وغيرها من مستلزمات الزراعة ... ولكن كان كافيا ان تكون هنك عدالة فى توزيع ما هو متوفر ، ليرضى الفلاح ويقتنع ويؤمن بعدالة الاشتراكية ، اما ان يجرى توزيعها للذين يدفعون الرشوة ، ويجد الفلاح نفسه فى مواجهة طبقة ثرية جديدة لم تكن تملك شيئا ، فهذا هو الكفر الجديد .

وقد كان لاثرياء الريف الجدد عذرهم ، لان هذه الموجة الفاسدة كانت تهب من القاهرة ، حتى ليمكن ان يقـــال ان الريف لم يفعل شيئا سوى تقليد العاصمة .

وهكذا نرى أنفسنا نعود مرة أخرى الى الفساد لنتأكد انه الأصل فى فساد النيات ، ثم ان النيات وحدها غير كافية لتحقيق الايجابيات . فالقول بأن النيات كانت متوافرة لاخلاف عليه . وانما الخلاف فى ان ما وراء هذه النيات لـــم يكن بريئا ولم يكن مدروسا ومن ثم فلم يكن التخطيط له سليما .

الطالبة : انها أخطاء وتصحيحها ممكن .. ؟

الأستاذ : اشك فى ذلك ،لأن حقيبة الانحرافات قد امتلأت وغطت على كل النوايا الطيبة .. هل نتكلم عن مجانية التعليم ؟

الطالبة : ان هذه المجانية قد اتاحت لى ولاخوتى السبعة فرصـــة التعليم الى آخر مراحله ..

الاستاذ : لقد التزمت الدولة بمجانية التعليم حتى نهاية المرحلة الثانوية من قبل الثورة ، لأن من حق المواطنين أن تعلمهم. أن تقضى على الأمية . أو تقلل نسبتها الى حد كبير ولايمكن لأحد ان يلوم الدولة لأنها فتحت مجال التعليم للقادر وغير القادر . ولكن التعليم له رجاله . ومن هنا لايفرض عليه أهل الثقة دون أهل الخبرة ولا يسمح لضابط برتبة (صاغ) ان يرأس المجلس الأعلى للجامعات . وان تكون كلمته هى النافذة وأفكاره هى المرجحة . لقد كان يكفى ان يقــول النظام انه يريد مجانية مطلقة للتعليم ، وأن يكلف من يضع خطة خمسية تجعل التعليم المجانى حقا للجميع .. ولكن بحيث يخدم احتياجات المجتمع .

وقد اتجه مجتمع الثورة الى التوسع فى التصنيع ، واعداد الطاقات اللازمة له وتحقيق هذا الهدف هو التوسع الافقى والرأسى فى المعاهد الفنية ذات المستوى الرفيــع والتى تخرج للدولة الطاقات الفنية لتأخذ على عاتقها هذه المهمة الكبرى . ولكن الثورة بعد أن حاولت أن تنحو هذا النحو تناست ان هذا التحول يحتاج الى توعية اشتراكية تصرف الشــباب عن التعلق بالتعليم الجامعى ، وتوجهــه ــ بارادته ــ نحو التعليم الفنى ، وبدلا من ان تفعــل ذلك قررت مجانية التعليم الجامعى واستمرت تتوسع فى فتح الجامعات وكانت النتيجة الحتمية لذلك هو ما نشكو منه فى كل الطاقات العاملة فى الدولة .

التعليم الجامعى ازدحم بعـــدد الطلاب ، دون توســـع فى قاعات المحاضرات أو فى المعامل ، أو فى عدد أعضاء هيئات التدريس . وكانت حصيلة هذا الهدف فى التعليم . انخفاضا فى مستوى الخريجين ... بل لعل اهم من هذا هو طعن مجانية التعليم الجامعية فى صميمها ..

طالب : ولكن هذه المجانية ما زالت قائمة .. ؟

الاستاذ : لو انك فكرت وحسبت لوجدت ان ما تصرفه عائلة كل طالب ــ قادرة وغير قادرة ــ على الدروس الخصوصية

بلغ أضعاف ما تحقق من كسب نتيجة المجانية . اى أن الدولة قالت للتعليم الجامعى « كن مجانيا » ... فكان بينما قال الواقع « كن باهظ التكاليف » .. فكان .

الطالبة : هذه حقيقة لا أنكرها . ولكن من المؤكد ان هناك من لم يكن فى حاجة الى هذه الدروس الخصوصية .. وانا منهم .؟

الاستاذ : ان النتائج لا تقاس بالفائدة التى تعود على القلة . بل على الأغلبية .. لا أحب أن ننسى أن التسابق فى الثانوية العامة للتغلب على عقبة التنسيق والحصول على مقعد جامعى قد ضاعف ما يصرفه الآباء على الدروس الخاصة فى السنة الأخيرة من مرحلة الدراسة الثانوية .. هل تنكرين هذا ؟ ثم هل تنكرين ان الذين كنوا يدخلون المعاهد الفنية كانوا يفعلون ذلك مرغمين ، وماذا تتوقعين من طالب يرغم على تعليم مالا يرغب فيه ..

الطالبة : اذن ماذا كنت تريده من الدولة .. ان تقف مكتوفة الأيدى ؟

الاستاذ : بل كنت أريدها مفتوحة العقل لا تستهدف كسب التصفيق فى أمر حساس بالغ الخطورة بالنسبة لكل دولة نامية أو .. غير نامية . وهو التعليم .

وفوق هذا كله يجب ان نسأل : هل نجحت الدولة فى مواجهة الأمية المتفشية ؟ أم أن نسبتها مازالت تضعنا فى مصاف الدول المتخمة بالذين لا يعرفون القراءة أو الكتابة ..

ومعى الآن حوار كتبه أستاذ بكلية هندسة القاهرة ونشر أخيرا بصوت الجامعة ، هل تريدون ان اقراه لكم . لقد كتب الأستاذ يقول : هل تسمح صوت الجامعة أن يكون الحوار هذا الأسبوع .. مع طالب واحد .. طالب يمثل قطاعا كبيرا من الطلبة المكافحين الذين يعيشون فى ظروف قاسية بالغة القسوة . اذا طرقت اذنيه كلمة رحيمة سمعها

« كوعد » ولكنها تذوب مع الأيام ، لتمضى الرحمة فى طريق آخر لا تطرق باب حجـرته ، ولا تضىء له طريق حياته وكفاحه . والرحمة القائمة على الوعود لا تطعم الجائع المحروم .. ولكنهم مع هذا يتحملون فى صبر .. يسمعون كلمة « الاشـتراكية » على الألسنة فيؤمنون بها — بل يزدادون تعلقا بها — ولكن هذا الايمان يتضاءل اذا مارأوا ان حياتهم قائمة على « وعود » وأن هذه الوعود ضلت طريقها فتاهت فى الزحام .

كان الطالب يجلس أمام لوحة الرسم وحيدا ، شارد الفكر يتطلع الى السماء وعلى وجهه أكثر من سؤال وتساؤل .. واقترب منه أستاذه ليسأله : هل تنوى البقاء كل الوقت فى هذا المكان ؟

الطالب : وأين أذهب ؟ انك أستاذى وتعلم أن على طالب الهندسة أن يعمل ساعات وساعات .. وأنا هنـا الى أن يقال لى « أخـرج » .

الاستاذ : ولكن أليس من الأفضل ان تكمل عملك فى منزلك ؟

الطالب : منزلى .. وهل تسمى ما أسكن فيه « منزلا » انى أسكن فى غرفة ايجارها ٦٠ قرشا فى بولاق .. واذا شئت الدقة فى العنوان فانه « حارة على النوبى — بالشيخ على .. »

الاستاذ : وهل تعيش أسرتك فى الريف ؟

الطالبة : أسرتى .. يبدو أن سيادتك تعيش بعيدا عن متـاعب أكثر النـاس .. ان اسرتى تعيش معى فى هذه الحجـرة البسيطة ، ثم هل تعرف ممن تتكون هذه الأسرة . من أبى الذى يبلغ عمره ٨٠ عاما وأخت تزوجت ولكنها عادت الينا منذ فترة مطلقة لتشاركنا هذه الغرفة ..

الاستاذ : ولكنك كطالب فى كلية جامعية ، يمـكنك ان تطرق اكثر من باب لتحصل على العون الذى يساعدك ويعينك على مواجهة الحياة .

الطالب : هكذا يقولون . وما اكثر ما يقولون ، ولكن القول شىء والعمل شىء آخر ، ان مصـــيبتنا اننا نتكلم كثيرا ونعــد بالكثير ولكن هذا كله لاشىء .. لا وجود له الا فى النادر من الحالات ، بل ان حالتى بالذات قد عولجت العلاج الذى اسموه « العلاج الاشتراكى » .

الاستاذ : وكيف حدث ذلك ؟

الطالب : كتبت الى رئاسة الجمهورية ، فأحالوا رسالتى الى وزارة الشئون الاجتماعية .. وبحثت حالتى وارسلتنى الى معونة الشتاء ، ودون بذل اى جهد لبحث حالتى قررت ان تصرف لى مبلغ جنيهين .

الأستاذ : ــ متسائلا ــ فى الشهر ؟

الطالب : فى الشهر .. ياريت .. انهما جنيهان كل ثلاثة شهور.. ولو تدرى كم من جهد ابذله كى احصل على الجنيهين فى كل مرة ، لأدركت أن العذاب الذى اتحمله يساوى أضعاف هذا المبلغ .

الاستاذ : هذا وضع غريب ؟

الطالب : هذه الصورة الكريهة ادهشـــتك .. الا تســـألنى كيف اعيش بعد هذا ؟ وكيف اواجه الحالة القاسية التىأعيشها ؟ لقد تسببت هذه الحالة فى أن ارسب السنة الاعدادية بعد ان كنت متفوقا ، واضطررت لاعادة السنة ، وها أنذا الآن ادخل السنة أولى ــ عمارة ولا يستطيع أن أتصور وأنا على أبواب امتحان آخر العام كيف يمكننى التغلب على الصعاب التى تواجهنى . ان الرحمة قد تلاشت من قلوب الكثيرين .. ولكن الثقة بالله أقوى من كل شىء .

الأستاذ : وهل درس العميد الحالة ؟

الطالب : يا استاذ ، ان العميد يستطيع ان يعد ، انى اعرف انكم مقيدون بالروتين ، ومقيدون فى تصرفاتكم .. ان شجاعة التصرف تحتاج الى علاج ، وهذا العلاج مازال ضائعا ،

ومن الصعب العثور عليه . انه كالعملة الصعبة التى يتحدثون عنها . انني احب ان اقول شيئا صريحا ارجوك لاتمد يدك الى جيبك ، لن اقبل حسنة من احد ، أن حقى فى مجتمعنا الاشتراكى يجب اعادة دراسته ، وان تقفالدولة من الحالات الكثيرة التى أواجهها ويواجهها غيرى من الطلاب موقفا رحيما ، فهذه الأموال التى تصرف فى نواح غير سليمة ، نحن أولى بها وأقول أولى بها لأنها تعدنا للمستقبل . تعدنا لممارسة مهنة البناء .

وأولى للدولة ألف مرة أن يكون لديها مهنيون قد خلت قلوبهم من الكراهية والحقد بدلا من مهنيين ينظرون الى المجتمع نظرة لا انتماء فيها له ، ولا احساس فيه بالدين لأحد ، ان مثل هؤلاء سيكونون وبالا على المجتمع لا خداما له . ولعلك تسألنى عن الحل .. وانا أسأل كيف تسألنى هذا السؤال وعقلى مشرد ولست أدرى ما اذا كنت سأجد لقمة تشبعنى وشركائى اذا عدت الى منزلى .. عفوا الى حجرتى .. اننا شعب تعلمنا « التواكل » ولكن أليس لهذا التواكل من حد .. ؟ اسألنى وانا اقول لك ..

وترك الاستاذ الطالب .. تركه بلا سلام ولا كلام .. لم يكن قادرا على ان يقول كلمة طيبة .. نصيحة .. فكلتاهما لا تصلحان .. وكلتاهما دخان فى الهواء .

ولكن اليس هناك علاج لهذه الحالات ؟؟ ان الاستاذ قد بعث برسالة الى « صوت الجامعة » تحمل هذا الحوار . وتحمل فى نفس الوقت اسم الطالب وعنوانه .. فهل من رجل فى الجامعة ، أو فى الدولة تحركه الشفقة فيقول « ابحثوا محنة هذا الطالب ، وغيره من الذين يعيشون محنته ، ومحنة المجتمع » .

الاستاذ : انتهى حوار أستاذ الهندسة مع تلميذه .

الطالبة : هذه حالة خاصة ، ولا دخل لها بمجانية التعليم . وهى

ايضا توجد فى كل بلاد العالم . بما فيه ما يسمى العـالم الحـر .

الأستاذ : انها ليست حالة خاصة ، وانت تعلمين جيدا ان جامعات مصر مليئة بهذا النوع الساخط الذى حشر عقله بالامانى والوعود .. ثم ضلت هذه الأمانى والوعود طريقها الى حياته لسنوات متصلة . والذى حدث بعد نشر هذا الحوار ان جاءنى الطالب بمكتبى وقال ان عددا من اسـاتذته قد سارع الى مساعدته ، ولكن ماذا عن الآخرين ، عن الألوف الذين يعيشون نفس وضعه وحالته ؟ وهكذا ترين ان معدن الشعب المصرى هو معدن أصيل لا يفكر فى نفسه .. ولو ان الذين بيدهم الأمر فكروا أول ما فكروا فى أن يكونوا آخر من يصلهم نعيم الاشتراكية ، ولو انهم كروا فيما سموه « القاعدة الشعبية العريضة » لدعمت انثورة من ايمان الشعب وضاعفت من ثقته بنفسه . وهكذا نرى — مرة أخرى — ان العيب لم يكن فى الأهداف . وانما هو فى جعل هذه الأهداف شعارات براقة تغرى بالاستماع اليها والجرى وراءها .. ثم هى فى النهاية تعطى القليل ، أو لا تعطى شيئا ، وتظل أملا للشعب علينا أن نحققه مهما يكن . وهو الآن يساوى أضعاف أضعاف ما كان عليه لو اننا بدانا بتخطيط وبصدق فى النيـات .

الطالب : ولكن لعلك لا تنكر فضل النظام فى ارساء قواعد الصناعة المصرية ؟

الاستاذ : اما ان تسمى ذلك « ارساء لقواعد الصناعة » فتسمية غير صحيحة .. لان الصناعة بدأت من قبـل ذلك بزمن طويل . واذا كنت درست تاريخ « طلعت حرب » لعرفت انه أحد الذين اقاموا البناء الكبير .

والقول كذلك ان التصنيع ركيزة هامة لكل دولة تريد ان تنمو ويزداداعتمادها على نفسها حقيقة لا تناقش . ولكن ماذا كان يتطلب تنفيذ هذا كله . هل كان لابد من ان تصرف

عشرات الملايين كى تنتج الصاروخ ، رغم علمنا باننا مهما فعلنا فلن نستطيع ان نساير الدول الكبرى فى سرعة انتاجها وتطويرها لصناعة الصواريخ العسكرية ؟ ثم هل تذكرون قصة اطلاق الصاروخ « الظافر » من مكان ما بالصحراء بعد انتهاء مرحلة تصنيعه ، هل تعرفون أين ذهب هذا الصاروخ بعد اطلاقه .. ان كان أحدكم يعرف هذا فليقل لنا . ومع هذا ستظل الحقيقة قائمة وهو ان انتاج الظافر والناصر والقاهر الى آخر التسميات التى تعرفونها ، قد توقف بعد أن ذابت عشرات الملايين من الجنيهات ، وذهب بعضها الى جيوب الاشتراكيين الأثرياء.

ثم هل تذكرون مصانع الطائرات التى بشر بها «الاهرام» وجعلها مادة لدعاية كل صباح .. هل تعرفون كم صرف على هذا المصنع .. أرقام خيالية .. مئات الملايين من الجنيهات .. أين ذهبت ؟ واين هى الطائرات المصنعة فى مصر .. واين .. واين .. كلها أسئلة تدور حول«ألغاز» لم تجد حتى الآن من يحلها ؟

الطالبة : ولكن لو اننا نجحنا فى هذا لما مددنا يدنا يوما لطلب السلاح ؟

الاستاذ : لم يكن ممكنا ان ننجح ، لان هذا الانتاج الحربى يتطور بسرعة ، وتنفق عليه الدول الكبرى عشرات الملايين من الدولارات ، فهل كنا قادرين على مسايرة هذا الركب المجنون ؟ وهل كل دولة كبرى فى العالم تنتج الطائرات والصواريخ ؟ وهل كان ممكنا ان ندخل فى تسابق مع الدول بقدراتنا المحدودة جدا .. ام ان الأمر كان كلاما يصلح أن يقال فى الخطب وان نفخر قبل ٥ يونيو ١٩٦٧ باننا قد تحولنا الى دولة تصنع من الابرة الى الصاروخ.. وقد اخترت هذين المثلين الكبيرين مدخلا للصناعات الخفيفة التى تأثرت نوعيتها واصبحت مفروضة على الشعب ولكنها فى نفس الوقت مرفوضة ، وبعد ان كان الهدف ان تتحول مصر الى دولة منتجة ومصدرة اصبحت منتجة ومستهلكة ، لم يكن هم الذين اخذوا مهمة التصنيع

على عاتقهم الا ان يقيموا المصنع وراء الآخر سعيا وراء العمولات ، دون اعتماد على تخطيط سليم او دراسة امكانية الاستمرار فى التصنيع .. وكانت النتيجة فى حالات كثيرة ان توقفت بعض هذه المصانع عن الانتاج لان «قطع الغيار» غير متوافرة ، ولان العملة الصعبة قد تبخرت .. وتسللت الى حسابات الأثرياء الاشتراكيين الجدد فى بنوك سويسرا وغيرها .

ان هذا الحوار قادنا الى بحث طويل .. وشاق .. وعسير .. وأليم .. وتغطيته بأمانة ونزاهة تحتاج الى مجلدات .. فالسد العالى مشروع عظيم ، ولكن التحدى فى تنفيذه والرغبة فى الاسراع بتشييده كى يكون هرما ثانيا، لا يقل روعة عن اهرامات الفراعنة ، قد تسبب فى انه جاء ناقصا الكثير ، وخلف وراءه آثارا خطيرة .. يسميها الذين يدافعون عن السد بآثار جانبية .. ولكم أتمنى أن يكون كذلك .. ومع هذا قد انتقل أمر هذا السد الى لجنة فنية تدرسه وتقول رأيها .. ولعلها تفعل .

هل نمضى فى الكلام عن كل الأمانى التى تعلق بها الشعب .. ومازال متعلقا حتى الآن . ؟

الطالب : بل نفضل ان نتوقف عند هذا الحد .. لقد تفتحت أمامنا الكثير من الثغرات الكبيرة والصغيرة .. ونحن قادرون على ان ندرس ، وان نهيىء الظروف التى تسمح بالترميم المؤقت .. الى ان يكون فى مقدورنا ان ننجح فى تبويب السلبيات .. وان نصارعها كى نجعل منها ايجابيات .

ليس هناك ما يفرض علينا اليأس بل ان الفترة الاخيرة من تاريخنا قد وضعت امامنا تحديات داخلية كبرى ، وليس من المصلحة ان نضعف امامها لأنها ليست من صنعنا . فنحن الورثة الشرعيون . والوارث لا يهرب من الالتزامات التى جاءت بها التركة . حتى ولو رغب فى ذلك .

القسم الثـــالث

الجزء الثالث

الحاضر والمستقبل

"١"

كان الأستاذ يتطلع الى وجوه الحاضرين من الطلاب الذين جاءوا يساهمون فى جلسة اليوم ويعود بذاكرته الى الأيام الأولى التى بدأ فيها هذا الحوار .. ثم يجرى عملية مقارنة سريعة يخرج منها باطمئنان وثقة الى ان النفوس التى كانت ثائرة ضد ربط أى حوار بالماضى القريب أو البعيد . عاد اليها هدوءها ، وعادت اليها ثقتها بنفسها ، وأصبحت تحس انها قادرة على ان تفكر للحاضر وللمستقبل وان يكون هذا التفكير منطلقا من مركز ثقة وقوة فى العزيمة واصرار على ألا تتكرر أخطاء الماضى ..

هل كان مصيبا فى استنتاجه ؟ هل كان مخطئا فى حكمه وفيما حققه من نتائج ؟ هل كان مغاليا فى تقدير قيمة النتيجة التى حققها الحوار ؟ .. هل تحققت نقطة بداية صالحة لأن تكون قاعدة انطلاق الى تدعيم الماضى وبناء مستقبل أفضل .

ولم تطل تساؤلات الاستاذ أو لعلها توقفت لان طالبا شاء أن يكون هو البادىء بالحوار .

الطالب : لقد تكلمنا — ولا أقول انتهينا من الكلام — عن الماضى القريب . افلا نحاول ان نتكلم عن حاضرنا ؟ ..

الاستاذ : بالقطع يتحتم ان نتكلم فى حاضرنا ، قبل أن ننطلق الى الكلام عن المستقبل ؟ .. فماذا تريد ان تثيره من نقاش حول هذا الحاضر . ؟

الطالب : انى احب اولا ان اناقش واقارن بين صحافة ما قبل التصحيح وصحافة ما بعد التصحيح ؟

الاستاذ : تقصد صحافة ما قبل ١٥ مايو ١٩٧١ وما بعده ؟

الطالب : نعم . واذا كنت قد اخترت الصحافة كنقطة بداية فذلك لانى أصبحت مقتنعا بأن لا قيام لدولة ما بكيان محترم مالم تكن صحافتها قادرة على التعبير عن شعبها . وقد كان جمال عبد الناصر موفقا — من وجهة نظره — فى أن يبدأ برنامجه السياسى بتأميم الصحافة وجعلها اداة خاضعة له خضوعا تاما .. ثم انطلق بعد ذلك فى تنفيذ برامجه بكافة أنواعها المتعددة بعيدا عن رقابة الشعب .

الاستاذ : ولهذا كان أول ما فعلته حركة التصحيح ان رفعت الرقابة عن الصحافة ؟

الطالب : نعم رفعت الرقابة ولكن ظلت السيطرة الفردية قائمة ، اعنى أن رئيس الاتحاد الاشتراكى وهو فى وضعه الحالى رئيس الدولة أيضا قادر على أن يجرى فى الصحافة وفى الصحفيين ما يشاء من تنظيمات أو تنقلات بمعنى انه فى كل الحالات مازالت الدولة هى المسيطرة على اتجاهات الصحفيين وأفكارهم . وهذا بالقطع لا يوفر لهم حرية التحرك والتعبير ؟

الاستاذ : وماذا أيضا ؟

الطالب : هل تعنى بسؤالك أنى أغفلت الاشارة الى قيد آخر يتعلق بالصحفة .. ؟

طالب آخر : انى أحس بأن المجلس الاعلى للصحافة يمثل اتجاها غير محقق لفكرته ؟

الاستاذ : لقد اردت ايضا ان نضم فكرة المجلس الأعلى للصحافة فى حوارنا حول حاضر ومستقبل الصحافة . وعلى العموم فان الذى يجب الاعتراف به — كبداية — للحوار ان الصحافة اليوم غير صحافة الأمس . ولكنها بوضعها الحاضر لم تبلغ غاية المرام .

فان رفع الرقابة عن الصحف قد مهد لاعادة الحياة اليها . واصبح ممكنا لرئيس الوزراء والوزراء والمسئولين فى القطاعات العامة والشعبية ان يقرأوا الصحف فى الصباح كما يقرأها الشعب ، وذلك يعنى انه يمكن ان يفاجأوا بنقد لأعمالهم وتصرفاتهم دون علم مسبق به ؟

الطالبة : لا افهم ما تعنى ؟

الاستاذ : لقد كانت الرقابة حاجزا بين الصحافة وبين نقد المسئولين . وكان الصحفيون فى كل الحالات يتصلون برؤساء الوزارات أو المسئولين ، ويقرأون لهم ما هو معد للنشر فى اليوم التالى — رغم تفاهة هذا النقد وعدم جدواه ، ثم للخوف الذى كان مسيطرا على النفوس — ولم يكن أحد من هؤلاء يقبل ان تمس ذاته أو ان ينتقد تصرفا من تصرفاته . وكان الرقيب ينفذ التعليمات تنفيذا حرفيا ضمانا لوظيفته . ومن هنا كان المسئول الكبير .. والصغير ينام هادىء البال مطمئنا الى انه لا نقد ولا محاسبة لأى تصرف من تصرفاته ..

ومن هذا الواقع الذى عاشه الجهاز التنفيذى كله .. فانه عندما رفعت الرقابة عن الصحف وبدأ بعض الصحفيين يمارسون النقد « الخفيف » اهتز تفكير الوزراء واعتبروا هذا النقد خروجا على « النظام » .

ولعلكم تذكرون أول مواجهة من هذا النوع عندما كتب صاحبها عمود « دخان فى الهواء » نقدا لرئيس الوزراء لانه ترك سكان القاهرة بلا ماء وذهب الى الاسكندرية — وكان ذلك فى محاولة لاثارة موضوع حيوى من مخلفات اهمال الماضى القريب .. فقد غضب رئيس الوزراء وبادر فكتب ردا اتسم بالغضب ، ويذكر بعض الذين اجتمعوا به فى ذلك اليوم انه لم يكن يتحدث الا عن وقاحة هذا الذى كتب ينتقده فى الأخبار .

ونشرت الأخبار رد رئيس الوزراء فى ابرز مكان ثم عاد الصحفى فرد عليه وناقشه مناقشة كان المقصود منها

اساسا ان يوضح الصحفى لرئيس الوزراء انه غير محصن ضد النقد وان كل تصرفاته هى ملك الشعب .

وفهم المسئولون تدريجا ان الوضع قد بدأ فى التغيير وانهم قد نزلوا الى مرتبة البشر واصبح نقدهم مباحا . وحقهم فى الرد مصونا .

على ان المهم فى هذا كله هو ان الشعب نفسه كان يراقب هذا الاتجاه الصحفى الجديد . ولا يصدقه . بل ازدحم بريد الكتاب الصحفيين برسائل تهكمية ، ورسائل اتهام بأن ما يجرى على صفحات الصحف ليس الا تمثيلا فى تمثيل . وان المقصود منه هو ايهام الشعب بأن الصحافة حرة فعلا .

طالب : أظن ان الشعب لم يكن مخطئا فى تصوره ؟

الأستاذ : تعنى انك تتفق فى ان ما جرى كان تمثيلية اتقن اخراجها ؟

الطالب : لا وانما أعنى انه اذا كان الوزراء يتصورون انهم فوق النقد . فقد كان الشعب أيضا لا يتصور أن يعيش ليرى اليوم الذى ينتقد فيه الرؤساء والوزراء ؟

الاستاذ : هذا صحيح . بدليل ان فترة اعادة بعض ثقة الشعب فى صحافته استغرقت وقتا طويلا وجهدا اكبر من الصحفيين ذاتهم ، على انه عندما وضع اساس هذه الثقة بدات الصحف المصرية تحقق ارتفاعا فى ارقام التوزيع تأكيدا لهذه الحقيقة .

طالب : اذن فهو نوع من الرقابة المستترة ؟

الأستاذ : قد تكون التسمية قريبة من الواقع . وقد يحدث أن يتصل وزير الاعلام برئيس التحرير ليناقشه الرأى فى بعض ما هو معد للنشر ، ولكنها فى كل الحالات مناقشات لا تنتهى الى فرض رأى الوزير .. بل ان الصحفى يملك ان يرفض الأخذ برأى الوزير ..

طالب آخر : ولكن مكتب الصحافة ما زال قائما فى وزارة الأعلام . وهو يملى تعليمات معينة على رؤساء التحرير تتعلق بما لا يجوز نشره ؟

الاستاذ : يجب الا ننسى اننا مازلنا فى حالة حرب مع اسرائيل . واننا نمر بظروف بالغة الخطورة بالنسبة للاوضاع العربية ، وليس هناك ضرر من ان تشترك الدولة مع الصحافة فى تكييف ما ينشر أو مالا ينشر من أنباء أو تعليمات لها صلة بالموقفين العسكرى والعربى . وقد كان هذا هو النظام المتبع خلال الحرب العالمية الثانية فى أكبر دولة ديمقراطية واعنى بها بريطانيا .

طالب : وهل تعتبر هذه التعليمات ملزمة لرئيس التحرير ؟

الاستاذ : ان مسئولية الصحفى فى هذه الحالات بالغة الخطورة. فانه يجب ان يكون متعاونا مع الدولة فى حماية جيشها وحماية أمنها الخارجى والداخلى . ولا أظن ان صحفيا يمكن أن يرفض تحمل هذه المسئولية كاملة بالتعاون مع الدولة . ولهذا لا أرى فى قيام هذا النوع من التعاون ما يمس حرية الصحافة .

طالب : الا تتضمن التعليمات منع نشر ما يمس أوضاعنا الداخلية ؟

الاستاذ : لا اظن ذلك .. وان كانت بعض العناصر الصحفية المسئولة تحاول ان تلعب دورا فى التخفيف من حدة النقد فى بعض الحالات .

طالب : اى انها رقابة من الداخل .. ؟

الاستاذ : ربما تكون التسمية صحيحة الى حد ما .. ولكن .

طالبة : لماذا تحاول ان تأخذ موقف دفاع أو تبرير ممـــا يجرى فى الصحافة حاليا ؟

الاستاذ : (مبتسما) انها ليست محاولة للدفاع أو التبرير وانمـــا هى رغبة فى توضيح حقيقة لا مفر من مواجهتهـــا ، وهى ان المرض الذى أصاب الصحافة مرض مستعص لا يعالج فى يوم أو ليلة . كما ان حساسيه المسئولين بالنســبه لنقد الصحافة مازال أيضا فى دور النقاهـــة . ولابد من ايجاد تركيب دوائى ينقذ المريض ويشفى الحساسية .

طالب : وهل تراه تركيبا صعبا ؟

الاستاذ : أنا شخصيا أراه كذلك . وان كنت أؤمن بأن اكتشافه يحتاج الى بعض الوقت . ويلزمه كتلة صحفية متماسكة ويجب ألا نتناسى ان ما تسبب فى نكبة الصحافة فى الماضى القريب يرجع الى أن الصحفيين سمحوا بأن تمـــزق صفوفهم ويفـــرق بينهم ، وقبلوا ان يتجمعوا فى قبضـــة واحدة ضربت بها مهنتهم فى صميمها .. وهذا مالا ينبغى ان يتكرر ..

طالب : وهل يعنى هذا انك مازلت تحس بأن النفوس الصحفية غير مهيأة لتكوين هذه الكتلة المتماسكة ؟

الاستاذ : نعم للأسف . فان الخوف مازال مسيطرا على نفوس الكثيرين . كما أن التطلع الى احتلال مكان مرموق فى بلاط الرئاسة ما زال يراود البعض منا ، وهذا التطلع يتنافى مع حرية المهنة ، لان الارتباط بهذا النوع من العلاقـــات يسحب من الصحفى حقه فى ممارسة واجبات مهنته كمـــا يجب ... وهذا هو ما يجعل المعادلة ـــ حتى هذه اللحظة معادلة صعبة وان لم تكن مستحيلة الحل .

طالب : وهكذا مازالت الصورة غير واضحة المعــالم .. او اذا شئت الدقة فانه يبدو ان الظلام مازال مخيما على حاضر الصحافة وبالتالى مستقبلها .

الاستاذ : هذا غير صحيح .. ومادامت هناك بوادر تصحيح .. وان هذا التصحيح ماض فى طريقه ــ مهما كان بطيئا ــ فان الامل قائم والظلام لابد ان يتبدد .

طالب : ولكن كيف السبيل الى التعجيل بتحقيق وضع صــحفى احسن ؟

الاستاذ : هذا تساؤل وجيه . وفى تصورى ان وضع صــحافتنا يحتاج الى تجرد وتحرر من كل أطماع صحفية أوشخصية فالمريض يحتاج الى عناية كاملة اجماعية من كل العاملين فى خدمته ورعايته ، وكل محاولة للتسلل من الاجمــاع تعنى نكسة ــ أو توقع نكسة ــ للمريض . ولا أظن ان صحفيا واحدا من الممسكين بيد المريض لم يشعر خلال سنوات الماضى القريب بالمــرارة والالم ازاء حجــزه عن النطق أو ممارسة واجبه الصحفى كما يجب ، يمكن أن يسمح بتكرار المأساة مرة أخرى .

على ان هذا وحده ليس العلاج النهائى ، بل هو خطوة حيوية لأن المريض فى حاجة الى دم جديد يحل تدريجــا محل القديم ، فلسنا نضمن تخلص القــدماء من الأطماع والغايــات . وقد يكون من بيننــا من يطمع فى ان يكون الصحفى الأوحــد وان يكون هو المتحدث باســم الدولة لتفتح له بذلك خزائن الشهرة .. والدم الجديد الذى شهد المآسى التى ارتكبت فى حق الصحافة والصحفيين .. ولم تتوافر له كل الفرص التى ترفعه الى أعلى هو الطــريق الى الحل الحاسم .

طالب : ولكن من يمنح هؤلاء الفرص التى تفتح لهم كل الأبواب ؟

الاستاذ : ان بين قدامى الصحفيين من قاسى الأمرين ، ولا يتردد فى ان يقدم العون للشباب المبرأ من كل غرض والمســتعد

لتجنيد نفسه فى ميدان الخدمة الصحفية العامة ، ويقبل المهنة بكل ما فيها من متعب وتضحيات وكفاح وعرق ان انخراط الفرد فى سلك الجندية او العسكرية يعنى انه سياتي اليوم الذى يقتل فيه او يذبح — رغم ما فى ذلك من قسوة على النفس — فى سبيل الدفاع عن وطنه . ولافارق فى نظرى بين الجندى والصحفى . كلاهما يحمل فى يده سلاحا . وكلاهما مرتبط امام الشعب بعهد يقطعه على نفسه .. وسلاح الصحفى هو قلمه المحرر من كل ضغط او قيد وهو لا يحب ان يقبل التفريط فى هذا السلاح .. مهما تكن التضحيات ومهما ترتفع عوامل الاغراء .

هؤلاء المخضرمون مستعدون لان يأخذوا بأيدي الشباب الى المقاعد الرئيسية وأن يمدوهم لا بالخبرة وحدها ، بل يغرسوا فى انفسهم أيضا ما نطلق عليه اسم « شجاعة المواجهة » والتحذير مما وقع فيه أسلافهم من صحفيى الماضى القريب من خضوع واستسلام .. وتسليم القلعة لمحتل غريب .

طالب : ولكن هل يصلح هذا الاتجاه معوضع الصحافة الحالى..؟

الاستاذ : لابد — ايضا من خطوة أخرى ، فلا بأس من ان تبقى صحافة الاتحاد الاشتراكى كما هى قائمة تؤدى دورها السياسى والتوجيهى . ولكن علينا أن نمهد لقيام صحافة أخرى تعبر عن كل الاتجاهات وكل الاراء ، وتصطدم بصحافة الاتحاد الاشتراكى فتجدد بذلك حيوية الصحافة الحرة .

طالبة : ولكن من يضمن ان تكون هذه الصحافة الجديدة مصرية خالصة ... بمعنى الا يكون تمويلها من الخارج . كما هو الحال فى صحف لبنان . وبذلك يعرض الشعب لتيارات تقوده مرة أخرى الى التمزق .

الاستاذ : من البدء ارفض رفضا تاما ان يشبه الصحفيون فى مصر بالصحفيين فى لبنان ، ثم ان الاتهامات القديمة بان صحافة مصر كانت تقبل تمويلا من الخارج اتهامات باطلة لم تثبت

على الاطلاق ، بل استطيع ان اقرر ان تاريخ صحافة مصر على مدى عمرها الطويل كان أبيض ناصع البياض . وقد اخترعت هذه الاتهامات بقصد التمهيد لاجراءات تعسفية تتخذ ضد الصحافة .

ومع هذا لا بأس من الاتفاق على ان تكون ميزانيات الصحف الجديدة خاضعة لرقابة قضائية ، بمعنى ان يكون هناك جهاز مهمته التأكد من ان هذه الصحف تعتمد على نفسها ولا يرد لها اى عون من الخارج ، سواء أكان ذلك فى صورة أموال سائلة أو اعلانات أو اشتراكات أو ما الى ذلك من وسائل التمويل ، ولست أعتبر هذه الرقابة صورة من صور تدخل الدولة ، فما دام مورد الصحيفة سليما لا خوف من النتائج ، وبخاصة اذا كانت هذه الرقابة فى أيد قضائية لا تتأثر بمؤثر خارج عنها .

طالب : انك بهذا تطالب باحداث انقلاب صحفى ؟

الأستاذ : بل ادعو الى التمهيد لتحرر الصحفيين من سيطرة الدولة ، وتخلصهم من التهديد بلقمة العيش . أو بمعنى آخر نريد الاستفادة من اخطاء الماضى ، فيوم يجد الصحفى أنه غير معرض لأن ينقل من مؤسسة صحفية الى أخرى كنوع من العقاب أو الترقية . ويوم يحس أن قلمه قادر على التحرك من موقع الى آخر صيانة لحريته من أن يعبث بها .. عند ذلك نحس أن حرية الصحافة أصبحت حقيقة مقبولة .. بدلا من أن تكون ــ كما هى ــ حقيقة مشكوكا فيها .

الطالب : ولكن هذه الصحف الجديدة .. من تمثل ؟

الأستاذ : هذا مدخل جديد الى نوعية التغيير الذى يجب أن نفكر فيما اذا كنا نتجه اليه الان .. أو نتجه اليه فيما بعد .. أو نبقى على ما نحن عليه .

طالبة : لا افهم ما تعنى ؟

الأستاذ : اعنى الوضع السياسى الداخلى . واعنى هل نبقى فى ظل نظام الحزب الواحد ، ام نتجه الى نظام الأحزاب ؟

الطالب : الم تنته المناقشات التى اثيرت فى الصحف حول هـذا الموضوع الى رفض فكرة قيام الأحزاب ؟

الأستاذ : صحيح أن هناك مناقشة بدأت ، ولكنها لم تنته بالصورة السليمة . بل اقفل بابها ، ثم قيل أن الشعب ما زال متمسكا بنظام تحالف قوى الشعب العاملة ، وانه لا مكان للاحزاب السياسية فى نظامنا العام ، ولقد اشتركت شخصيا فى هذا النقاش . وأبديت رأيى فى أن تجربة الحزب الواحد التى بدأت بهيئة التحرير ثم الاتحاد القومى ثم الاتحـاد الاشتراكى رقم ١ والاتحاد الاشتراكى رقم ٢ هذه التجربة وما تبعها من تجارب لم تأت بنتيجة . ولم تحقق اى نفـع سياسى للدولة ، كذلك ابدى الكثيرون من أصحاب الرأى آراءهم ، ولكن من المؤكد أن النقاش لم يكتمل ، ثم انه ليس صحيحا أن الشعب قال كلمته ورفض الأحزاب ، لأن الشعب لم يمنح الفرصة الحقيقية كى يقول كلمته .. التى يؤمن بها .

طالب : ما الذى نستفيده من عودة الأحزاب ؟

الأستاذ : لم أقل بعودة الأحزاب . بل بقيام أحزاب جديدة تنبت فى جو واقعنا الذى نعيش فيه . اى اننا نرفض كل قـديم كما اننا نرفض كل ما جرب وتكررت تجربته وكان فى مآله فاشلا ، ونظام الحزب الواحد يعنى قيام ديكتاتورية . او على الأقل يترك احتمال استمرارها او قيامها من جديد قائما ، حتى لو حسنت النيات وتوافرت الرغبات الطيبة . ومن هذا الواقع يكون كل جهد الشباب لبناء جديد عرضة لان ينهار فى اى وقت وفى اية لحظة .

طالب : ولكن كيف تقوم احزاب جديدة ؟ ومن يشكلها ؟

الأستاذ : لعلكم تذكرون أن اهم ما اهتمت به ثورة ٢٣ يوليو هو

دراسة نظام حكم « سالازار ديكتاتور البرتغال » على اساس انه النظام الذى دام عشرات السنين .

ومع هذا سقط نظام سالازار وانتهى . فلماذا لا ننظر فى الأخذ بتجربة البرتغال الحالية .. ؟ لقد فتحت الابواب لتكوين الأحزاب ، ولم تحدد عددها او اهدافها ..

وتكونت الأحزاب الجادة وغير الجادة . ثم أعدت برامجها . وطرحتها على الشعب فى أول انتخابات جرت لتشكيل جمعية تأسيسية تضع للبلاد دستورا جديدا .. وقال الشعب كلمته فى التشكيل الحزبى ذاته ، فاختفت الأحزاب غير الجادة أو أصبحت صفرا .. وبقيت الأحزاب الجادة مرتبة على حسب ما فازت به من أصوات الشعب .

طالب : ولكن الصراع الذى جرى بعد ذلك بين هذه الأحزاب البرتغالية كاد يجر البلاد الى حرب أهلية ؟

الأستاذ : هذا يعطينا الفرصة فى أن ندرس ما أدى الى هذا الصراع ونحاول تجنبه ، وقد يكون استمرار التدخل العسكرى فى الأوضاع القائمة هناك سببا من الأسباب التى أدت اليه. وربما كان التمويل الخارجى هو الذى دفع أحزابا معينة هناك الى الاصرار على تحدى ارادة الأغلبية الشعبية الاشتراكية .. ربما . وربما هناك أسباب كثيرة تفتح لنا مجال الدراسة ، ونسترشد بها فى تجنب الوقوع فى نفس الخطأ . وحتى اذا افترضنا وقوعنا فى أخطاء عند بداية المحاولة الجديدة فلا يجب أن تحول دون الاقدام عليها .

طالب : ولكنك لم توضح بعد ما يمكن ان يتحقق من الفوائد عن طريق قيام الأحزاب السياسية ؟

الأستاذ : بالاضافة الى تخلص الشعب من حكم الفرد ، تتاح له فرص ممارسة سلطاته ، وتقوى هذه السلطات عن طريق

مجلس نيابى يجرى انتخابه فى جو الحرية ، هذا الى أن البرامج المتعددة تعطى فرصا اكثر لتحقيق خدمات احسن كما تهيىء مجال التسابق لخدمة الشعب بالطريقة التى تزيد من ثقته .

طالبة : ولكن البلاد جربت الحزبية .. وفشلت ؟

الأستاذ : القول بأنها فشلت غير سليم تماما . لأن حزب الأغلبية لم يمنح فرصة كاملة كى يحكم ، وما ذلك لأنه كانت هناك ديكتاتورية استعمارية ممثلة فى سلطة المندوب السامى البريطانى . وكانت الارادة الشعبية تزور فى كل انتخابات تجرى اذا كانت نيات السلطات العليا هى ابعاد الأغلبية عن الحكم ، ولا أظن أن تزوير هذه الارادة الشعبية قد زال فى اى فترة من فترات حياتنا السياسية حتى اللحظة .

وظروفنا اليوم متغيرة . وهى لا تتطلب الا أن تختار النظام الجمهورى الذى نرتضيه ، أهو نظام رئاسى أم غير رئاسى وهل نأخذ بالنظام الجمهورى الفرنسى والأمريكى أم نأخذ بالنظام الجمهورى الألمانى الغربى. هل يكون رئيس الجمهورية هو رأس الجهاز التنفيذى أو لا يكون ؟ فنحن هنا نحدد سلطات رئيس الجمهورية بل ونغير رئيس الجمهورية اذا انحاز رأى الشعب الى الحزب المخالف لرأيه ..

طالب : هذه النظم صالحة هناك لأن درجة تعليم الشعب عالية ؟

الأستاذ : دعك من هذا الرأى الرجعى . ان شعب مصر وان لم يكن كله متعلما على درجة كبيرة من الوعى السياسى ، ولو ترك حرا ليسمع او ليقرأ ان كان قادرا على القراءة او ليقر بنفسه صلاحية الحاكم من عدم صلاحيته على اساس ما يعود عليه من خير لو ترك حرا فى هذا كله . وتوافرت له كل وسيلة تمكنه من تكوين رأيه .. لوضع فى مكانه الديمقراطى السليم .. ان الادعاء بأن الشعب جاهل او غير متعلم ادعاء ديكتاتورى ، سواء صدر عن النظام الملكى القديم او عن نظامنا الجمهورى الحديث ، وقد

آن الأوان كى يعطى الشعب فرصته ويثبت عكس ما الصق به من اتهام .

طالب : وماذا ايضا عن النظام الحزبى ؟

الأستاذ : انه يتيح الفرصة لاجراء التغيير الكبير الذى يجب أن يتم على أيديكم . فأنتم فى حاجة الى وضع جديد نظيف تتفاعلون معه ويتفاعل معكم ، ومصر فى حاجة الى الدم الجديد .. والنظام الحزبى هو سبيلكم الى هذا كله ..

طالب : أى انك – مرة أخرى – تدعو الى قلب الأوضاع ..

الأستاذ : اذا شئت أن تسميه قلبا للاوضاع فأنت حر . ولكن لا أسميه انقلابا ، فان الاشتراكية ستظل هى الأساس الذى ترتكز عليه الدولة ، وقطاع العمال سيجد فرصته فى أن يجمع طاقاته لخدمة الطبقة العاملة ، والفلاحون سيجدون من يعبر عنهم التعبير الجاد . وبذلك يصبح تعريف الفلاح – الذى ما زلنا عاجزين عن تعريفه – مستمدا من واقعه ، فيختار من يمثله ويحسن تمثيله . ثم ألست فلاحا من صميم الريف .. فهل لى أن أسألك ماذا استفاد فلاح القرية المصرية من التمثيل النيابى الذى أعطى له وللعامل نصف مقاعد مجلس الشعب ؟ هل الريف الان أحسن حالا من ماضيه .. أم انه ازداد سوءا ؟

طالب : وكيف يمكن أن يخدم النظام الحزبى الفلاح فى قريته ؟

الأستاذ : ولماذا لا يشكل الفلاحون حزبا له برامج وله أهداف وله غايات ؟ ألست فلاحا قادرا بعلمك أن تمثل قريتك احسن تمثيل ؟ أليس الأستاذ الجامعى فلاحا قادرا على أن يفعل نفس الشىء ؟ أليس الفلاح الذى يزرع حقله قادرا على أن يتحرر من سيطرة العمدة والمأمور ومشرف الجمعية التعاونية ويخترق الصفوف ليحتل مكانه عن جدارة فى المجلس النيابى .. أليس مجلس العموم البريطانى مليئا بالعمال

والفلاحين الذين جاءوا الى السلطة التشريعية بالارادة الشعبية . واستطاعوا ان يهزوا الحكومات . وان يصلوا الى مراكز قيادية .

ان كل من يقول لك انك اقل من هؤلاء جميعا يقولون ذلك لأغراض فى انفسهم . اغراض يراد بها حصر السلطات فى ايديهم ، وفرض وصايتهم على الشعب .. باسم الشعب لقد آن الأوان لرفع هذه الوصاية ، والاعتراف بأن الشعب لم يعد قاصرا .

طالبة : هل يسمح الأستاذ باعتراض . ان ما تقوله هو مثالية او خيال لا أرى مجالا لتحقيقه .. ؟

وساد صمت عميق فى القاعة .. وأحس الأستاذ بأن الاعتراض يكاد يزعزع الثقة فى الحاضرين ، فبادر يسأل الطالبة :

الأستاذ : وما هو وجه المثالية أو الخيال فى هذا الذى اقوله .. ؟

الطالبة : هل تتصور امكانية تنازل أصحاب السلطة عن سلطاتهم بالسهولة التى تتكلم عنها ؟ ثم أليست هناك مراكز قوى تستفيد من بعض الأوضاع القائمة وليس من الهين عليها التنازل بسهولة عن سلطاتها وقوتها ؟

الأستاذ : الاجابة عن الشق الأول من السؤال هي ان نقنع أصحاب السلطة بأن التغيير اصبح ضرورة ، واعنى به التغيير فى الاشخاص والوسائل ، حتى تأخذ أوضاعنا الاشتراكية امكنتها السليمة ، اذ لا سبيل الى احداث تغيير بوجود القديم . على أن هذا لا يعنى الاستغناء عن القديم بأكمله . بل يستغنى عن العناصر التى ساهمت فى الاخطاء او تخرجت فى مدرسة وضع الماضى القريب برامجها المخربة .

واذا سألت من الذى يختار من القديم أحسنه ، كان جوابى هو الشعب الذى سيختار . والسبيل الى ذلك أن تتشكل من الان جماعات تدعو الى الاصلاح ، وتطالب باحداث التغيير عن طريق طرح آرائها فى الصحف وفى الندوات الجامعة ، وفى النقابات العمالية وغير العمالية . أو بعبارة أخرى . طرح بذرة الدعوة الى التغيير .

طالبة : ولكنك قلت انك تدعو الى ثورة ثالثة ..

الأستاذ : وهذا هو الطريق الذى اختاره لهذه الثورة . فليس بالضرورة أن تكون الثورة عسكرية دموية ، أو ترتكز على صراعات عقائدية ، بل يمكن أن تتم الثورة بغير هذا كله . بالكلمة والرأى والالحاح والاقتناع .

طالب : هل يمكن أن يتم هذا أيضا عن طريق الاتحاد الاشتراكى بصورته الحالية .. ؟

الأستاذ : أشك كثيرا فى امكانية تحقق شىء ما عن طريق الاتحاد الاشتراكى ، وان كنت لا أرى مانعا من المحاولة . ومادامت هناك — كما يقال — منابر متعددة داخل هذا الحزب الواحد ، فليس ما يمنع أن تختبر هذه المنابر فى الدعوة الى التغيير وان كنت أشك فى فاعلية فكرة المنابر ؟

طالبة : ومن يضمن لنا الا يتسلل الى صفوفنا من يحاول تشويه الدعوة .. ؟

الأستاذ : أن التسلل يأتى أما بتحريض من الداخل . أى من الذين يحاربون اجراء أى تغيير دفاعا عن سلطاتهم وهؤلاء لن يستطيعوا مقاومة التيار الجارف المندفع صوب التغيير . واما أن يأتى بتحريض من الخارج المستفيد من استمرار مجتمعنا بصورته المهتزة المضطربة ليسهل له ضربه عقائديا، وهذا التسلل محكوم عليه بالفشل ، انه لا يقوى على، مواجهة الواقع الدينى الذى يسيطر على فكر الشعب

وعقله . فالخوف من التسلل ليس له ما يبرره ، وان كنت ارى انه لابد من الاستعداد لمواجهته بما يستحق .

طالب : ولكن الا ترى أن ورقة ٦ اكتوبر هى فى حد ذاتها دعــوة الى التغيير الذى نطالب به ؟

الأستاذ : قد تكون ورقة ٦ اكتوبر عامرة بتصورات جديدة للمجتمع المصرى حتى عام ٢٠٠٠ ، ولست اريد أن اضعها فى مرتبة واحدة مع الميثاق وغيره من الأوراق التى كانت تعــالج حالات طارئة بتخدير معين ، لأنى أرى أن ورقة اكتــوبر جاءت بعد حدث كبير تحقق فيه لجيش مصر انجاز ضخم . ولكن مع هذا أراها ورقة جاءت وليدة فكر معين ، ثم طرحت على الشعب فى استفتاء عام جاءت نتيجة الموافقة عليه ٩٩٫٩٥ ٪ ؟ فهل هذه النتيجة طبيعية ؟ وهل هضمت ورقة أكتوبر جيدا بعد أن نوقشت مناقشة جدية وعلى نطاق واســع ؟

الطالب : الواقع انى لم أقراها جيدا . لأنى كنت فى حاجة الى من يقرأها لى ، ويعقد مقارنة بينها وبين ما سبقها من مواثيق وبيانات ، ودعى الشعب الى ابداء رايه فآمن بها ، كما قالت نتائج الاستفتاءات .. ثم لم يحس بها أحد .. وأنا شخصيا لم أشترك فى الاستفتاء ولم أقل لا أو نعم .

طالب آخر : هذا خطأ ــ وان كنت قد وقعت فيه ايضــا ــأن نبتعد عن صندوق الرأى عندما ندعى الى ابداء الراى ؟

الأستاذ : وهل جاء هذا نتيجة للتردد ؟

الطالب : بل جاء نتيجة اننا لم نفهم .. لقــد كان المفروض أن يطرح « مشروع » ورقة ٦ أكتوبر للمناقشة العــامة الحرة المفتوحة . على صفحات الصحف . وفى الراديو . وفى التليفزيون . وفى الجــامعات والمعــاهد والمؤسســات السياسية . ثم نجمع كل ما قيل فى شأن هذا المشروع

فنقبل منها ما نراه جديرا بالقول لأنه استند الى اتجـــاه شعبى معقول . ونرفض ما نراه جديرا بالرفض . اما ان « تنزل » ورقة أكتوبر الى الشعب ويدعى لأن يقـــول « لا » أو نعم فهذا هو الاتجاه الخاطىء الذى يجب أن نعـــدل عنـــه .

ان الطريقة فى عرض هذه المواثيق والأوراق هى التى تجعلنا نبتعد عنها وننفر منها .

الأستاذ : هذا اتجاه سليم يؤيد ما سبق أن قلته من أن تعدد الآراء والوسائل وتمثلها هنا الأحزاب ، هو سبيلنـــا الجديد ، بل أنه لكى نوضح سلامة نوايانا لا بأس أن نأخذ ورقة ٦ أكتوبر قاعدة انطلاق نحو الجديد الذى نريده . أو الهيكل السياسى الذى نسعى الى تشكيله .

طالب : انت لم ترد على الشطر الثانى من سؤالنا وهو خـــاص بمراكز القوى الجديدة فانهـــا تستفيد من بعض الأوضـــاع القائمة وليس من الهين التنازل عن سلطاتها وقوتهـــا بسرعة .

الأستاذ : نعم هناك ما يمكن تسميته بمراكز قوى .. ولكنهـــا لا تتمتع بنفس السلطان الذى كان يتمتع به أصـــحاب مراكز القوى فى المـــاضى .

طالب : وما ادرانا .. لعلها تتحول تدريجا لتصبح فى نفس الوضع خاصة أن الصحافة لم تتعرض لها أو تحاول كسر شوكة قوتهـــا ؟

الأستاذ : ان نجاح الحملات الصحفية على الفساد والعمـــولات سيؤدى حتما الى القضاء على هذه المراكز .

طالبة : لا افهم ..

الأستاذ : ولكى تفهم يجب ان نتفق أولا على اختيار الزاوية الصحيحة التى ننظر منها الى حقيقة ما نسميه مراكز القوى .

وقد سبق ان اتفقنا على ان الحاكم فى ظل اى نظام ، له مطلق الحق فى ان يختار صنف الرجال الذين يكونون جهازه المقرب اليه ويضع فيهم كامل ثقته ، ويكونون هم حلقة الاتصال اليومية بينه وبين الأحداث الداخلية أو الخارجية . هذا هو حقه المطلق .

وهؤلاء الرجال هم الذين يستند الحاكم الى آرائهم فى اتخاذ موقف معين أو قرار خاص . أو فى الاستعداد لمواجهة الاخرين خارج هذه الحلقة الرئاسية الخاصة .. ومن هنا نرى أن نوايا الحاكم واتجاهاته المتأصلة فى نفسه هى التى تقوده الى اختيار نوع من الرجال الذين يكونون حوله حلقة قوية فاذا كانت نواياه الاصلاح واحترام ارادة الشعب والحرص على الحريات الفردية والعامة ومحاربة الفساد ، واذا حرص على أن يكون القدوة للجميع فى الترفع عن الصغائر وتجنب المتناقضات اذا كان هذا هو اتجاه الحاكم فان اختيار نوعية رجاله يكون خاضعا لهذه الاعتبارات ، والا كان متناقضا مع طبيعته ونتيجة لذلك يظل فى صراع مستمر — هو فى غنى عنه — مع أقرب المقربين اليه ، وهو الأمر الذى يتنافى مع طبيعة الأمور . ومن هذا الواقع الذى لا يمكن أن نختلف فيه نسأل انفسنا سؤالا هاما وهو : هل يعتبر الحاكم مسئولا عن كل ما ترتكبه هذه المراكز من آثام واخطاء أم لا ؟

طالب : بالقطع يعتبر مسئولا .

طالب آخر : ولكن الا يمكن أن يكون الحاكم غير عالم فعلا بما يجرى ؟ .

الأستاذ : هنا تكون المصيبة أعظم . لأن الحاكم لا يكون اذ ذاك سوى العوبة فى يد قلة لها الحق — مطلق الحق — فى أن تفعل ما تشاء ، وان تخطىء كما تشاء ، وأن تنحرف بالجهاز الحاكم انحرافا خطيرا ثم ينعكس هذا الانحراف على كل اجهزة الدولة . وبذلك يكون كالاراجوز الذى تحركه يد المخرج وينطق بكلام يقوله غيره .

ومراكز القوى لا تنمو وتزداد قوتها وتتوغل فى كل أعمال الدولة وتهرب من العقاب الا فى النظم الديكتاتورية التى تسيطر على أجهزة الاعلام والرقابة الشعبية وتجعل الدولة قائمة على نظام بوليسى مرعب . أما فى الدولة الديمقراطية فانها تمارس عملها بحذر شديد لانها فى كل الحالات ستكون أعمالها مكشوفة ومطروحة للمناقشة والمساءلة . فهى تمارس نفوذها ولكن بغير انحراف اذ تعلم أن انحرافها سيؤدى الى سحقها ، وهذا ما حدث بالنسبة لمراكز القوى التى أحاطت بالرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون خلال فضيحة « ووترجيت » وانتهى الأمر بها الى طردها من البيت الأبيض ثم محاكمة أفرادها بعد ذلك والحكم بسجنهم .

وقد كان النظام الملكى فى عهد فاروق يستند الى ديكتاتورية القصر . وكانت مراكز القوى تعكس شخصية الملك فاروق العابثة التافهة غير المثقفة ، فكان على رأسها محمد حسن خادمه الخاص الذى كان يعرض عليه الأوراق الرسمية . وكريم ثابت الصحفى اللبنانى الأصل الذى كان يتباهى بوجاهته وصلاته بالدوائر الدبلوماسية ويشرب السيجار الهافانا ويتدخل فى كل شأن من شئون الحكم ، وأنطون بولى سكرتيره المكلف باعداد جو سهراته الحمراء الخاصة. ورغم هذه الديكتاتورية كانت الصحف المصرية وكذلك الأحزاب السياسية ، تنقد هذه الأوضاع بطرق مباشرة أو غير مباشرة بل كانت بعض الحكومات تطالب علنا بالتخلص من هذه العناصر .. صحيح ان الملك لم يقبل ولكن المهم هو أن الشعب كان قادرا على التعبير عن آماله علنا .

وقد كانت ثورة التصحيح فى ١٥ مايو أول فرصة علنية تتاح فيها للشعب أن يقول كلمته فى بعض مراكز القوى فكان سامى شرف واحدا منها وكان يقوم بالدور الذى قام به محمد حسن وعلى نطاق أوسع وأخطر . ومحمد حسنين هيكل وكان يؤدى دور كريم ثابت فيتصل بالندوات الدبلوماسية الأجنبيةويشرب السيجار ويقوم بمهام من صميم اختصاص وزير الخارجية ، بل لقد جعل من مكتبه بالأهرام

مركز نشاط داخلى وخارجى ، وصار واضحا للجميع ان هذين الشخصين كانا من أقوى الشخصيات المصرية صلة بالحكم وأكثرهما اقترابا من الرئيس عبد الناصر ، ولم تتأثر علاقته بهما على المدى الطويل ، مما جعل الكثيرين يضعونهما فى مكان المسئولية الأولى عن كل ما كان يحدث فى البلاد داخليا وخارجيا . والى جانب هذا كانا الشخصين — على ما أذكر — اللذين جاء ذكرها فى الكتب التى صدرت عن المخابرات السوفيتية والأمريكية ، وأكدت — كما ذكرنا فى حوار سابق — انهما كانا على صلة بهما وان كان كل منهما فى معسكر بذاته ، غير ان هذا التأكيد يجب أن يؤخذ بحذر شديد ما دمنا لا نملك الدليل عليه . بل أفضل الا نرتب على هذا الكلام الأجنبى أى نتائج .

طالب : ولكن محمد نجيب أول رئيس لجمهورية مصر ذكر شيئا عن شكوكه فى صلات محمد حسنين هيكل بالمخابرات الأمريكية ، ودار نقاش حولها على صفحات الأهرام .

الأستاذ : نعم . ولو كنت مكان هيكل لما ترددت فى مقاضاة محمد نجيب ، أما قوله انه أخذ بنصيحة الدكتور محمود فوزى وأهمل أمر المقاضاة فذلك ما لم أكن أحب ان يقوله محمد حسنين هيكل ، لأن حسم هذه الأمور عن طريق القضاء واجب على كل من يتهم بتهمة وخاصة اذا كانت التهمة تحمل فى طياتها ما يوصف بالعمل الأجنبى . وعلى العموم يجب أن نتفق على الابتعاد — مؤقتا — عن هذه الزاوية ، وأن نعود الى طرح تساؤلات أخرى وهى : هل كان هذا هو صنف الرجال الذين يصح أن تحكم بهم مصر ؟ هل خلت مصر من الرجال الجادين الذين يتحدث تاريخهم بالمواقف الوطنية الخالصة ؟ ويتحدث ماضيهم وحاضرهم عن كفاءة ممتازة وثقافة عالية ، وقدرة على فهم عقليات الجماهير والتعايش معها بحيث تكون منهم مراكز قوى حول الرئاسة وتكون دافعة لرئيس الجمهورية فى الاتجاه الشعبى السليم . أى أن تكون قوتها معبأة لخدمة الشعب ؟

طالب : الم تكن مجالس الوزراء مشكلة من كفاءات جامعية وقادرة على تحقيق هذا الذى نتكلم عنه ؟

الأستاذ : ربما كان هذا هو ظاهر الأشياء ، ولكن من كان يشكل الوزارات ، ومن كان يختار شخصياتها ؟ انها مراكز القوى التى تكلمنا عنها . ثم هل كان يمكن لها أن تختار الا وزراء من نوعية تتشابه مع نوعيتها واتجاهاتها ؟ وهل كان يمكن لها أن تختار وزراء يحترمون أنفسهم ويتمسكون بآرائهم ؟ وهل كان تعامل هؤلاء مع رئيس الجمهورية يتم بطريق الاتصال المباشر بينه وبينهم أم أنه كان يتم عن طريق هذين المركزين الخطيرين ؟ ..

طالب : أى اننا ندور فى حلقة مفرغة ؟

الأستاذ : تماما ..

الطالب : وكيف نتخلص حاليا ومستقبلا من هذا النوع من المراكز ؟

الأستاذ : قد يكون صعبا التحول طفرة واحدة الى تسليط الأضواء كاملة على مراكز القوى الظاهرة والخفية . لأن هذا يتوقف الى حد كبير على شكل النظام الحاكم حاليا ومستقبلا ، وما دمنا نتطلع ونعتزم الا نسمح بتكرار الماضى فلا تعود الصحافة الى سابق خضوعها واستسلامها . ويكون لنا النظام البرلمانى المستند الى غير الحزب الواحد. ويتمسك الوزراء بأن تكون لهم شخصيتهم القوية . ويقف الشعب من ذلك كله موقف الرقيب الصارم .. وفوق ذلك يحرص رئيس الجمهورية على أن يحكم بهذه الأجهزة كلها، لا بجهاز الذين حوله .. عندئذ يمكن أن تكون هذه نهاية ما نسميه مراكز القوى المستغلة والتى تسببت وتتسبب فى انهيار اى نظام .

وساد القاعة صمت عميق ..

وطال الصمت بعض الوقت .. وكان الاستاذ سعيدا بهذا كله .. لانه دليل الرضاء او الارتياح أو على الأقل

علامة صحية على ان جلسات الحوار كلها قد اثمرت شيئا يمكن ان يكون اساسا لتفكير اعمق وترتيب لمستقبل احسن بل لعل الأستاذ كان مستريحا الى انه اشعر طلبته بأن ممارســة « الديمقراطية الحقــة » قادرة على ان تحقق النجاح الكبير بأقل التكاليف والخسائر . وان الخروج عن خطها السليم يعنى التعثر وتراكم الخسائر والنكسات .

وقطعت هذا الصمت طالبة ، رات الأستاذ يجمع أوراقه علامة على انتهاء الحوار ، فسألت : هل نستطيع أن نفهم من جلسات حوارنا أن سبيلنا الى النجاح هو ممارسة الديمقراطيــة من جوانبها الواســعة وليس من زواياها الضــيقة ؟

الأستاذ : هذا تعبير جميل . وفيه النغمة الكبيرة لهذا الجهد الذى بذلناه معا فى حوار طويل . انه حوار بين رجل مخضرم ، كنت ترفضون فى البداية أن يكون شريكا لكم فى الرأى . ثم اخذتم بخاطره وقبلتم مناقشته . ولعلى لا اكون قد حاولت ان افرض عليكم رأيا . بل املى أن أكون قد مزجت رأيى وخبرتى بآرائكم وامانيكم . لقد سلطنا الأضواء «بسرعة»، على سنوات من ماضينا بما فيه من خسائر وبعض المكاسب، والمطلوب منا أن نركز الأضواء « وبشدة » على كل مكسب جديد نحققه فنضيفه الى تاريخنا الحديث . تاريخنا الذى اهملوا تقديمه اليكم ، وهو التاريخ الذى يؤكد ان الشعب المصرى كان دائما سباقا الى التضحيات وسباقا الى الدفاع عن حرياته ودستوره فكان القتلى من الشــباب والعمال والنساء يسقطون صرعى فى مواجهة المســتعمر الداخلى والمستعمر الخارجى ، وهم يرددون « تحيا الحرية » ان جامعتكم قدمت الشهداء فى كل الأزمنة وعنابر العمال قدمت الشهداء فى كل الأزمنة وحقول الفلاحين قدمت الشــهداء فى كل الأزمنة . لم تخل فترة من الشهداء الذين آمنوا بالحرية وليس صحيحا أن ثورة الشعب بدأت مع ثورة ٢٣ يوليو ، بل أن هذا انكار لفضل وحق شهداء ثورة ١٩١٩ وما تلاها او سبقها من ثورات شعبية متلاحقة .

ان علينا ان نسلط الاضـــواء على هـــذه الجوانب من تاريخنا ، وننطلق منها الى بناء هيكل جديد لدولة جديدة . نبنيه طوبة طوبة . وحجرا حجرا . ونساهم جميعا فى وضع أسسه واقامة جدرانه . يجب الا نسمح لأحد أن يضع الأساس ثم يدعونا الى المساهمة فى عملية البناء كالأغنام ذلك لأن الأساس هو الأصل . وما دامت الشركة ستكون قائمة فى بنائه ، فمن المؤكد ان الحرص على متانة البناء والتسابق الى المساهمة فيه ستكون منطلقة من حوافز شعبية اجماعية .

الطالب : وهل تعدنا ان يكون فشلنا أو نجاحنا فى تحقيق هذا البناء مدخلا لحوار متصل ..

الأستاذ : اعدكم بذلك ، وان كنت أدعوكم الى الانطلاق نحو اجراء المزيد من الحوار فى القرى والنجوع والمدن والمحافظات مع الذين تريدون أن تدعوهم الى ثورتكم المقبلة .. ولتكن النتائج التى انتهينا اليها هى نقطة انطلاقكم .

انكم تنتظرون نتائج الامتحانات .. وقد أوشكت أن تعلن ..

طالبة : (**مقاطعة**) ان الامتحان لم يعد يهمنا كثيرا .. ان امتحان الشعب هو الأهم .. ولا سبيل الى الاطمئنان الى أى امتحان الا اذاتحقق النجاح فى بناء المستقبل .

طالب آخر : نختم هذا الجزء من حوارنا .. بدعاء .. «يارب ننجح»؟

* * *



فهـــرست

مطابع الاهرام التجارية

رقم الايداع بدار الكتب
١٩٧٥/٥٦٠١



هـذا الكتـاب

« حـوار وراء الأسـوار » يكشف عن الوقائع والمخالفات والانحراف والأسماء بعد بحث ودراسة واستقصاء .

والحوار ليس مستمدا من خيـال . ولا يتناول حقبة واحدة من تاريخ . بل إنه يبدأ مع بداية عام ١٩٤٣ عندما اهتزت مصر كلها – والعالم من بعدها – لأكبر عمل سياسى سرى ظهر فى صورة « كتاب أسـود » . وقاد الذين أعدوه وأخرجوه ووزعوه إلى المعتقلات . وفى معتقل ضاحية الزيتون بدأ حـوار اشترك فيه الضابط الأسمر والطيار والصحفى والمهندس والمحامى والأزهرى والعامل الذين قضوا الليـالى يحللون ويبحثون فيما يجب عمله إزاء الوقائع الجسيمة الخطيرة التى تضمنها هذا الكتاب . فماذا كانت نوعية الوقائع التى أزعجت الشعب فى ذلك الوقت وحركت الأحداث السياسية بسرعة ؟

وتمضى الشهور وتقوم ثورة يوليو ١٩٥٢ والتى ساهم فيها بعض الذين عاشوا وساهموا فى حوار معتقل الزيتون ، ثم لعبوا بعد ذلك دورا أساسيا فى ثورة التصحيح فى مايو ١٩٧١ . ويتصل الحوار مع بداية هذا التاريخ . ولكنه يجرى بين فريقين مختلفين . فريق شباب ثورة ١٩٥٢ والذى يرفض الاعتراف بوجود أخطاء تحتاج إلى ثورة تصحيح ، وما ذلك إلا لأنه لم يكن يعلم الحقائق ، ويعيش بعضه الآخر ممزقا حائرا متسائلا : أين أنا . . . ومن أنا . . . وعلى الطرف الآخر من الحوار فريق الجيل الذى عاش ثورة ١٩٥٢ وما قبلها . .

وتختلف وجهات النظر وتحتد بين الفريقين ، ولكن حدة الخلاف تخف عند البعض وتتلاشى عند البعض الآخر مع المضى فى الحوار الشاق الطويل وعندما يواجه الكل بالوثائق والأدلة والأسماء التى تضع النقط فوق الحروف .

ومن هذا المنطلق يبدأ القسم الثالث من الحوار بسؤال كبير : وماذا بعد ؟ ثم يمضى بعد ذلك ليحدد المتحاورون المتفقون – نسبيا – خطوطاً للمستقبل تحقق ثورة ثالثة . ثورة فكرية وخلقية تستند إلى صحافة حرة . . وتكون نقطة بداية جديدة تبنى بها مصر مستقبلها .

الناشر :
احمد يحيى

الطبعة الرابعة

٨٠ ق

مطابع الأهرام التجارية